ثورة على التأريخ العربي

للدكتور : عـزة النص

نحن وتاريخنا

لاأملك الا أن أذكر تاريخنا على النحو المسطور به كلما ذكرت قول (نيقولا بردايف): الوصف المجرد لحوادث التـاريخ المجزأة والشخصيات المنفردة لاينتج عنه الا جثة ميتة للتاريخ .. وانـني لأحس في أغوار اليقين باللامنطقية البليدة بين مانضفيه على قوميتنـا العربية من أمجاد ومكارم ومأثرات وبين مانقع عليه في كتب تاريخنا من مجازر وأنانيـات وتنافر ومنازعات ..

وأهرع الى القول بأن تواريخ الأقوام الاخرى لاتنجو من مثل هذه المجازر والأنانيات والتنافر والمنازعات ، بل لعل تاريخنا في واقعه أقل هذه التواريخ زحمة بالمخازي والمساوىء،

ولكن الذين دونوا تواريخ أممهم من غير العرب عرفوا أن يحصروا المثالب في إطارها الضيق ، ويتحرروا من الحوادث الجزئية والخصومات الهامشية ،ليرتفعوا الى مستوى التاريخ الحق ، تاريخ التجارب والافكار والاتجاهات التي يتألف من امتدادها وتساوقها مسار المجتمعات البشرية من حياة الفطرة الى حياة الحضارة، ومن كهوف الانطواء والتحاجز الى مجالات التشارك والتمازج .

وانه لمن ترديد البديهيات في عصرنا هذا ، القول مع (كارل ياسبرز) بأن للتاريخ مغزى يتسامى فوق الاحداث الموضوعية المحدودة في نطاق الزمان والمكان ليصل الى الوجود الانساني المطلق ، في محيطيته الشاملة وفي تسلسله الحضاري المتكامل .

وبهذا المعنى وحده لايكون للتاريخ قديم وحديث ، بل يكون كلاً متصلاً ، ماضيه يعيش في حاضره ، وحاضره يشف عن مستقبله . وبهذا المعنى وحده ينقلب التاريخ من مقبرة موحشة الى جنة يسرح فيها الخالدون . وهو بذلك يستحق منا عناء البحث والدرس ، وتقييمه كخبرة وطنية وتجربة انسانية . وما الوطنية والانسانية في جوهرهما الاصيل سوى التضامن بين الأحياء والأموات على الوفاء لمغزى التاريخ وحمل أمانته . وعلى هذا النحو ندرك ما عناه (موريس بارس) حين قال : أيها الأموات كم انتم أحياء ..

فلنتساءل — نحن العرب — عن امواتنا ، هل هم احياء في نفوسنا ؟ وبمعنى آخر ، هل تاريخنا المدون يبرز مالنا من رسالة في هذا العالم ، نحملها عن أجدادنا جيلاً بعد جيل ، ننوء بها حيناً ، ونتعثر تحت وقرها حيناً آخر ، او ننهض بها على يسر ؟

تلك الرسالة هي « النوعية التاريخية » لكل امة وشعب . فما هي نوعية تاريخنا على ترامي أبعاده وتقادم أحقابه ؟

ان مروءة المنطق تدفع الى القول بان المدون من تاريخنا هو اولاً تاريخ أفراد لاتاريخ جماعات ، وبتعبير آخر ، هو تاريخ الحكام لاتاريخ الشعوب ، وهو ثانياً تاريخ حروب وغزوات لاتاريخ مبادىء وثقافات وحضارات ، وهو ثالثاً سجل جزئيات شتيتة وهنيات عابرة لاناظم لها ولا تتضافر في خط مستديم يبرز معاً الصوى الثابتة والمعالم المتغيرة في تطور بلادنا ثقافياً واجتماعياً واقتصادياً وسياسياً ، وهو بهذا الوصف ينأى عن الشمول ويبتعد عن الكليات ويتجرد من التسلسل المنطقي ويتأبه على التحليل والتعليل العلميين .

وأخيراً لانجد في مطولاتنا التاريخية ، على ضخامتها و كثافتها ، تحديداً بينا لموضعنا من العالم الخارجي وإحاطة بأحداثه وتفاعلاته ، فلا يستهوينا ذلك الا بالقدر الذي يسوقنا اليه غزونا هذا العالم او تعرضه لنا . وبتعبير آخر يكشف تاريخنا عن جهلنا بما كان يحيط بنا ويعاصرنا من دول وامم وشعوب ، لها ايضا نوعية تاريخية في تنظيمها السياسي وقوامها الاجتماعي وبنيتها الروحية والثقافية . والمهم في التبصر التاريخي تلك المقارنة والمقابلة بين امة واخرى وبين نظام وآخر .

واذن فان معرفتنا التاريخية بالغير لاتتعدى ايضاً شؤون السطو والحرب ، واذا تعدت ذلك فهي لاتجاوز مواطن الثلب والذم والانتقاص .

وقد حمل كل هذا بعض الورعين من علمائنا الأوائل على تحريم تدوين التاريخ ، والنهي عن دراسته وروايته . ذلك انهم اعتبروه غيمة واغتياباً وتعريضاً بالغير وذكراً لمساوىء الأموات وفضحاً للعيوب والسوءات .

وفي الواقع ان تاريخنا على الشكل الذي نقله الينا الرواة يعكس صورة شعب انفعالي المزاج ، وفيٍ دوماً لعدم الوفاء .. فهو يتأرجح بين قطبي الخير

والشر ، وينقاد للغرائز البدائية اكثر مما يلوذ بالأناة وتحكيم العقل ، ويهجم على الرغبات الآنية اكثر مما يضغط حريته في قالب الحصافة والاتزان . وهو بعد مجتمع متقطع لا يرتقي الى الامتداد الأفقي المتصل ، أعني انه مجتمع متخلخل الروابط تغلب عليه العصبيات الضيقة بدلاً من التكافل الاجتماعي الواسع .

واذا طبقنا معايير علم الطباع على مجمل الوصف الذي يتكشف عنه تاريخ الفرد العربي اضطررنا الى تصنيفه في زمرة (النموذج الحربي) او (نموذج المريخ) المتميز بحب المكافحة وسرعة الغضب وحدة الطبع والاندفاع والتهجم والتحريض..

وحسبنا أن نمسك بأحد كتب التاريخ العربي المشهورة ، ونمر بصرنا على فهرسه لنقف على محتواه المبثوث بالفتن وحركات الوثوب والخروج والانتقاض والاستنفار والثورة والتمرد والتنازع والاختلاف والقتل والقتال . وقد كتب الحافظ الذهبي ثبتاً بالذين راموا الخلافة وحاربوا عليها بني امية وآل العباس فأحصى منهم واحداً وأربعين .. ووجدنا انه مقصر في هذا الاحصاء ..

ولسنا هنا في مقام الحديث عن عدد الخلفاء الذين خلعوا أو اغتيلوا ، وكذلك الامراء والولاة والوزراء والقواد الذين نكلوا أو نُكل بهم ، والذين ابتزوا اموال الرعية ، والذين أفسدوا الحكم بالجور والتسلط والاغتصاب ..

ونحن اليوم ، حين نحشد العزائم لم البلاد العربية في مصير سياسي موحد ، نصر على التذكير **بأن وحدة العرب السياسية كانت امراً واقعاً ، وان الاستعمار الدخيل هو الذي مزق تلك الوحدة وفرق الشعوب العربية الى دول متناثرة متخاصمة** . وحين نقول ذلك ونؤكده ونجزم به لا يخطر لنا ببال ان كتب التاريخ العربي المبذولة لأبنائنا في المدارس تعلم نقيض ما نؤكده ونجزم به . تعلمنا هذه الكتب ان اول موج استعماري ارتفع نحو ارض العرب بعد الاسلام ، وغمر جزءاً من وطنهم ، هو المد الصليبي الذي بدأ عام ١٠٩٦ م . ولم يحدث قبل

هذا التاريخ أن سيطر أجنبي على تراب عربي ، فيما عدا الغارات البيزنطية التي كانت تجري على خط الثغور في شمال بلاد الشام ، بغاية السطو ثم الانكفاء ، والتي وصلت عام ٩٦٩ م حتى انطاكية ، وتوغلت عام ٩٧٥ م حتى بحيرة طبرية .

وإذن فان الحملات الصليبية كانت أول انتقاص لسيادة العرب المسلمين ؛ فهل وجدت هذه الحملات على أرض العرب دولة موحدة سياسياً وعسكريا ؟

لو وجدت ذلك لما ظفرت بذرة رمل واحدة من الغبراء العربية .

تاريخنا بالذات ، وبالصورة المحفوظة في بطون الأسفار ، يروي كيف دفع الأمويون ملوك الشام الهيمنة العربية الى اقصى مداهـــا ، رغم ماخاضوه من معارك هامشية على الارض التي ورثوها عن الراشدين ؛ فلما آل السلطان الى العباسيين تهافت بناء الدولة السياسي واستشرى التمزق العربي، في المشرق والمغرب، حتى لقد استقلت المدن في القطر الواحد بعضها عن بعض .

ويعتبر عام ٦٣٣ م بداية تأسيس الكيان العربي خارج حـــدود الجزيرة العربية ، وهو العام الذي انطلقت فيه جيوش الخليفة الصديق نحو تحرير العراق من سلطان الفرس ثم نحو بلاد الشام لاجلاء البيزنطيين عنها . وتتابعت موجات الفتوح المظفرة في كل اتجاه الى أن استنفدت عملية التوسع جذوتها سنة ٧٣٢ م على أرض الفرنجة .

وبعد ذلك بدأ الانكماش والارتداد ؛ ثم وقعت التجزئة على نحو متسارع عجيب .

واذن فان الامبراطورية العربية الاسلامية الكبرى دامت زهاء قرن من الزمن ، بمافي ذلك السنوات التي استلزمتها شؤون الفتح . وخلال ذلك القرن لم تعرف الامبراطورية الوسيعة الطمأنينة والاستقرار ..

بهذا يتحدث تاريخنا المكتوب . يتحدث دون تحليل أو تعليل ، ودون ان

يقايس ويقارن . وهو إذ يتحدث يضع نزوات الافراد في وزن أقدار الشعوب ، ويغفل عشرات الملايين من كرام الناس ليشير بالحرف العريض الى نفر من الطغاة والطغام والسفهاء .

هذا التاريخ بالذات لايهمه في شيء أن يبرز المعجزة العربية التي بدلت بالاسلام شعوب آسية وافريقية في اعمق أعماقهم ، وجعلت منهم أمة خيرة متفتحة العقل والضمير . انه يوجه الضوء ، كل الضوء ، الى الثغرات السياسية الدائمة او الموقوتة التي فتحها في كيان تلك الشعوب بعض الحكام الطامعين .

الوحدة النقيّة في الروح والوجدان والثقافة والسلوك ، والروعة المذهلة في الابداع والاشعاع والنضج والاكتمال .. ، كل ذلك يجب أن نلتمسه في غير كتب التاريخ العربي ، أو نلتقطه من خلال السطور التائهة في ذلك التاريخ . أما الفرقة الظاهرية والخصومات الطارئة والأنانيات النابية فهي تحتل المكان الرحيب في أسفارنا التاريخية المعبرة .

نعود الى قصة التجزئة السياسية لنقول أن تاريخنا المقروء يجعل منها المحور الذي يدور عليه . وهو اذ يسلك هذا النهج المضلّل يشكك الأجيال العربية بماضيها العظيم ، ويجتث منها حافز العمل في سبيل آتٍ أعظم .

وليس ادعى الى الاسف من ان تكون هذه التجزئة قد حدثت بالفعل ؛ ولكن الاصرار على متابعة مجراها وحدها ودونما تبصير وتمييز يجعل من تاريخنا غثاءً تافهاً ومؤذياً .

يبسط لنا تاريخنا المدرسي ان حكم الأئمة الخوارج قد ظهر في عمان منذ عام ٧٥٣ م ، واستمرّ في سبيله المستقل الى العصر الحاضر .

وفي اليمن تتالت دول المدن المستقلة منذ عام ٨١٨ م (الزيادية ، اليعفرية ، الرسّية ، النجاحية ، الصليحية ، الزريعية ، الهمدانيــــة ، المهدية ، الرسولية ،

الطاهرية الخ .. وفي القرن السابع عشر ظهر أئمـــة صنعاء الذين يحكمون اليمن الى اليوم)

ومنذ عام ٨٦٨ م **شق الطولونيون** عصا الطاعة على الخلافة العباسية في مصر، ثم كان الاخشيديون والفاطميون والأيوبيون والمماليك والعثمانيون وآل محمد علي ...

وفي سورية الشمالية كان حمدانيو حلب ينفردون فعلاً بالسلطة منـذ عام ٩٣٣ م ، ويتساجلون الحرب مـع الاخشيديين والفاطميين .. وبعد انقراضهم في مطلع القرن الحادي عشر تمزقت بلاد الشام بين شيوخ القبائل (صالح بن مرداس ، سنان بن عليـان ، حسان بن المفرج) ، ثم كان المدّ والجزر في عهود السلاجقة والأتابكة والأيوبيين والمماليك حتى الاحتلال العثماني ..

والعباسيون بدأت شكيمتهم بالضمور في العراق في القرن العاشر للميلاد وان ظل خلفاؤهم يحكمون بالاسم . فنشأت دولة **الحمدانيين** بالموصل (٩٢٩ م) ثم **الدولة العقيلية** (٩٩٣ م) ، ودام العهد الديلمي المسير للخلافة بين ٩٤٤ م و ١٠٥٥ م ، ثم سيطر **السلاجقة** منذ منتصف القرن الحـادي عشر . وفي القرن الثاني عشر والثالث عشر نجد **الأتابكة** في الموصل وسنجار والجزيرة . واحتـل هولاكو بغداد عام ١٢٥٨ م ولم تقم في العراق بعد ذلك أية حكومة عربية الا بعد الحرب العاليه الأولى ، فقد تعاقبت عليه دولة هولاكو الايلخانية والدولة الجلايرية المغوليـة ، ثم قام فيه العهد التركماني فالعهد الصفوي الفارسي فالعهـــد العثماني .. والتمزق العربي ظهر في غرب الامبراطورية العربية في الوقت ذاتـه الذي تفرق فيه الشرق العربي سياسياً الى دويلات وامارات مستقلة .

فلنذكر أن عبد الرحمن الأول ـــ صقر قريش ـــ قد دخل الاندلس عام ٧٥٦م ، ومنذ ذلك التاريخ خرجت اسبانيا من يد الخلفاء العباسيين . وبعـد بني أمية في الاندلس بل في اواخر أيامهم انفصمت اسبانيا العربيـــة الى حكومات

مراهقـة في قرطبة وغرناطة ومالقـة ودانية وسرقسطة وبلنسية واشبيلية وطليطلة الخ . . .

وفي مراكش قام حكم الادارسة منذ عام ٧٨٨ م ، وتـلاهم المرابطون والموحدون والمرينيون وبنو وطاس والأشراف السعديون ثم العلويون المالكون الى اليوم .

وفي تونس حكم بنو الأغلب منذ عام ٨٠٠ م ، وبعـد الفاطميين استقل بهـا بنو زيري ، ثم خضعت للموحدين فالحفصيين ، وخضعت للحـكم التركي عام ١٥٧٤ ، واستبد قواد الفرق التركية (الدايات) في شؤون الحـكم منذ ١٥٩٠م، وقامت حـكومة البايات المرادية منذ ١٦٤٠ م ثم البايات الحسينيين منذ ١٧٠٥ م ، وفي عهدهم بسطت فرانسا حمايتها على البلاد (١٨٨١ م) .

وفي الجزائر ايضـاً نشأت دويلات عديدة ولمّا يستقر فيها الحـكم العربي الاسلامي ، فالدولة الرستمية الخارجية في (تاهرت) عاشت بين ٧٧٦ — ٩٠٨م، ثم سيطر أنصار الفاطميين على الجزائر ، وبعد حقبة طويـلة من النزاع بين قبائل البربر خضعت الجزائر لدولة المرابطين ثم الموحدين ، وانشطرت بعد ذلك الى قسم شرقي يملكه الحفصيون التونسيون ، وقسم غربي شكل دولة تلمسان ، حتى سيطر العثمانيون على البلاد في آخر القرن السادس عشر ، واحتلهـا الفرنسيون من عام ١٨٣٠ حتى عامنا هذا المبرور .

وحصيلة هذا العرض الذي يقصه علينا تاريخنا بشيء كـثير من الافاضـة والدقة والتقص اننا أمة هشيمة الأوصال منذ عهد بعيد . بل ان النتيجة المنطقية التي لابد وأن نستصفيها من تاريخنا المأثور هي أن وحدتنا التي أحـكمتها عروبة الاسلام لم تدم الا الزمن الاقصـر من عمرنا المديد ، وان التفرقة في ماضينا هي الاصل والوحدة هي الحادث العارض،وان الاستعمار التركي هو الذي ابتنى وحدتنا

من جديد ، وقد عمرت الوحدة العثمانية دهراً أطول من عمر الوحدة العربية المستقلة ... ان غرائزنا الفردية المشاكسة التي يُضخمها تاريخنا تتراصف إذن مع نفرتنا من تقبل الدولة الموحدة .

ويقف العربي في حيرة ولوعة ودهشة ليتساءل : اذا كان هذا كل مضمون تاريخنا ، فمن نهض بالحضارة الانسانية في العصور الوسيطة ؟ ومن أقام في الدنيا رواسخ العدالة والاخوة والحق ؟ من عمر المدن وحمل مشعل النور وصعد بالبشرية الى قمم المعرفة والفضيلة ؟ من غرس في الانسان ، كل انسان ، كبرياء الكرامة ، وألهب في صدره عنفوان العزة ؟!

لقد أفردت مؤلفات موفورة عن المدنية العربية المتألقة ومشاركتها الخصبة في دفع التقدم العالمي . غير أن المشكلة تظل قائمة في الاذهان : هل يعقل أن يصف التاريخ العربي الفرد والمجتمع العربيين على النحو الذي وصفهما به من هزال وتفكك ومحاسدة ومنازعة ، وان يكون لهذا الفرد ولذلك المجتمع حضارة خالدة تعتز بها الدهور ؟

فإما أن يكون التاريخ العربي قد زيف صورة العرب ، أو أن تكون الحضارة العربية زعماً موهوماً وانتحالاً مكذوباً .

وفي حل هذه المشكلة ، وفي تعليل هذا التناقض ، تبدو نوعيتنا التاريخية على حقيقتها الاصيلة .

حقيقتنا التاريخية

لا نماري في أن الحقيقة التاريخية يجب أن تدون كما هي ، دون تحريف او تزييف . ولكن الصعوبة كل الصعوبة هي في العثور على هذه الحقيقة ، ثم في اسلوب عرضها كاملة مع ملابساتها وعللها وآثارها .

والكثرة من مؤرخينا دونوا جزءاً من الحقيقة ، وهو الجزء

المتصل بالحكم والسياسة ، وكانوا في اصطفائهم للحوادث أشبه بمن يؤرخ لعصر ما بالاستناد الى سجلات الشرطة وما فيها من وقوعات سطو واجرام .. وبالطبع فان ألوف الالوف من المتعبدين في بيوت الله وألوف الالوف من ارباب المهن والتجار الطيبين لا ذكر لهم في سجلات الشرطة ودوائر القضاء ...

وهكذا فان كتب تاريخنا لا تكشف عن مجتمعنا الا في نقاطه اللينة والمتهاوية ، واذا رمنا الصورة التي تعكس هذا المجتمع في قوامه المتماسك وفي تطلعه الى الخير وانطلاقاته نحو التسامي يجب ان تضع حوادث التاريخ في إطارها الشامل.

إن كتب الفقه والعقائد والحديث والتفسير والفلسفة والتصوف والاخلاق والحسبة واللغة والادب والعلم تعطي عن المجتمع العربي بالتأكيد فكرة أعمق وأقوم مما تعطيه صحائف التاريخ . بل ان المقدار الضخم من مؤلفاتنا المنوعة في العصور المختلفة هو وحده دليل على أن السياسة قد شغلت أصغر حيز ممكن في اهتمامات اجدادنا القدامى . وفي هذه المؤلفات ، التي لا نحصيها عدّاً ، نجد أنفسنا ، نجد نوعيتنا التاريخية ، نجد رسالتنا في هذا الكون .

معاجمنا اللغوية وحدها — إرثنا اللفظي ووعاء عبقريتنا — تؤرخ لمفاهيمنا في الحياة وأنماط معيشتنا أكثر من محتوى كتب التاريخ كلها .

رسالة واحدة في الأخلاق والواجبات — إرثنا الروحي — من جملة آلاف التصانيف التي خلفها لنا الأوائل في السلوك الانساني ، تفوق في نظرة ألف كتاب في التاريخ ، ومن الناحية التاريخية بالذات . ذلك لأنها تفتح بصيرتنا على القيم المثالية المخلدة التي ارتفعت بالمجتمع العربي الاسلامي وكفلت وجوده فوق موج النوائب والنكبات .

انتشار حركة التعريب العجيبة في البلاد المفتوحة ، واستجابة الحشود

المتكاثرة لدعوة الاسلام العربي في سرعة بزوغ الفجر – وحتى في البلاد التي لم تدخلها جيوش المسلمين – كل ذلك هو التاريخ العربي الحق ، تاريخ الجماعات المؤمنة المسترشدة برسالة العروبة .

إن أصالة العرب لا تتمثل قطعاً في الحروب التي خاضوها والبلاد التي دوّخوها ؛ فمن قبلهم عرفت البشرية حروباً مهلكة وتأسست امبراطوريات عريضة. أصالتهم هي ، على التحقيق ، في تحديد أسس السلام الدائم ، السلام النابع من باطن الفرد ، أي من وعي الضمير ، لا السلام المفروض من الخارج ، أي بالقوة القاهرة .

وما ندعوه (بالسلام الروماني) صنعه الجبروت العسكري ، بينما ارتكز (السلام العربي) الى الوازع الفردي والترابط الانساني . وهكذا فان أفول قوة الرومان عن أرضنا لم يخلف وراءه سوى أوابد صخرية متداعية ، **وحين تراخت قوة الحكم العربي** تركت فوق الأرض التي سادتها ؛ **من الجزيرة الى المحيط، ثقافة ولغة وتشريعاً ومبادىء سلوك استدامت الكيان العربي الى اليوم .**

واذا ظلت القومية العربية واقعاً حياً في نفوسنا ، رغم تهافت الحكم الذي صنعها ، فالأثرة في ذلك تكمن اولا وآخراً في ترسخ الشعور العربي الاسلامي .

واذا أخذنا بأسلوب (ياسبرز) في التحري عن محاور التاريخ نجد محوراً قديماً قدم الانسان على الأرض ، وجديداً دوماً في ارتكاساته المباشرة على مصائر البشر . هذا المحور عماده اصطراع الدول والشعوب على امتلاك سُبل المتاجرة بين الشرق والغرب ، وهو ماندعوه بمصطلح العصر : **طريق الهند**

هذا المحور التاريخي الجغرافي كان له الأثر المحموم في ايقاد الحروب بين شعوب العالم القديم ، وحول البحر المتوسط على وجه التخصيص .

والوطن العربي يؤلف عقدة أساسية في هذا الشريان الدافق ، وهو بهذا الوصف كان مرمى للأطماع ومسرحاً للحروب .

والعرب في جزيرتهم كانوا يستمدون جلّ كسبهم من التجارة على محور التبادل العالمي ، حتى لقد قيل (ومن لم يكن تاجراً ليس عندهم بشيء) . وفي ذلك يستوي مجتمعهم المستقر ومجتمعهم المتحرك : الحضر يسهمون في التجارة بأموالهم ، والبدو يشاركون في نقل السلع وقيادة القوافل .

وحين أراد الله للاسلام أن يتلألأ ضياؤه كانت المغالبة على الطريق البرمائي الذي نتحدث عنه قد تركزت بين الفرس الساسانيين والروم البيزنطيين (غُلبت الروم في أدنى الارض وهم من بعد غلبهم سيغلبون في بضع سنين) . وكان قدَر الشعوب المنتشرة على طوال هذه الطريق — ومنهم العرب — فلقاً مترجحاً .

وكان لذلك الطريق ذاته ، أو لوصلة منه ، قيمة حيوية أخرى بالنسبة الى شعوب الشرق الأدنى كله ، تلك الوصلة التي دعاها الامريكي (جيمس هنري برستد) منذ عام ١٩١٦ **بالهلال الخصيب** . وهو قوس دائري متفاوت العرض تكوّنه بقاع خصبة مروية ، يمتد في شمال شبه الجزيرة العربية بين خليج البصرة والبحر الاحمر ، ويضم طرفه الشرقي سهول العراق بينما يتألف طرفه الغربي من مجموعة جبال وسهول ووديان تمتد فوق سورية حتى الحجاز ، ويلتحم طرفا القوس في العقدة الجبلية الارمينية .

وميزة هذا القوس انه مروي بالامطار القادمة من البحر المتوسط ؛ وهي تخلق فيه شريطاً مخضلا من الغراس والزروع والاعشاب ، يفصل ما بين الصحارى المجدبة لشبه الجزيرة العربية وسيناء وبين هضاب ايران والاناضول القاحلة. وعصب هذا الشريط الحيوي مجرى انهار دجلة والفرات والعاصي والليطاني والاردن .

ولم يكن بمستغرب ان يتحدى هذا الفردوس النضر جشع الشعوب المحرومة المتاخمة له ، فتقتحمه غازية او تفد اليه متسللة . فكان ذلك ايضا سبباً في غزوات لانهاية لها .

وفي داخل الجزيرة العربية لم تكن الحياة الاجتماعية قبل الاسلام على قدر كبير من التلاقي والتمازج . فالعصبيات القبلية والعداوات الاقليمية كانت من خصائص الحياة البدوية ونصف الحضرية . وعلى الرغم من التقدم الملموس في مضمار التآلف والتحالف ، والاتجاه البيّن نحو تصفية الضغائن والاحقاد ، فان رواسب المنازعات الجاهلية كانت تشوب العلاقات العامة ، فتجعل من حياة العرب حينذاك خليطاً غريباً يجمع بين أنقى أشكال الحضارات الصحراوية وأحط مظاهر التفكك والانحلال .

* * *

مهمة ضخمة ، وأهداف صعبة بعيدة ، كانت مرتقبة إذن من البعث الاسلامي أولها وآخرها بناء السلام بين الشعوب المتنافسة على التجارات المربحة ، وبين أولئك الذين كانوا يصطرعون على مواطن الماء ومنابت الغذاء ، وبين القبائل العربية التي ألفت الغزو والمناجزة .

وبالجملة كان الاسلام في حقيقته الاولى دعوة سلام للعالم أجمع .

ولم يكن السلام في نظر الاسلام مجرد تحالفات ومعاهدات تعقد بين الارهاط أو الحكومات ، فذلك سلام موقوت مزلزل الاركان . ومن أراد القضاء على الحروب فيجب ان يجتثها من جذورها ، أي من غرائز الناس ومطامعهم واهوائهم . ولذا كانت رسالة الاسلام العربي تقويض المجتمع العالمي من قواعده وبنائه من جديد على أسس المشاركة والاخوة والمحبة والتضامن والعدل والمساواة ، دون تفريق في العرق والعنصر واللغة والدين .

ومن هنا كان ذلك الفيض الغدق من السنن والتشريعات التي تنظم الحويات الشخصية والعامة ، وتحدد الواجبات والحقوق ، وترسم مخططاً دقيقاً مكتملاً للاخلاق الفردية والعائلية والاجتماعية والمدنية .

ولسنا هنا في مقام التقصي لاركان الدين العربي ، وانما اردنا ان نسوق الامثال على نهج البحث التاريخي الذي يروز الحوادث ويصنفها ، ويقارنها بأشباهها وأغيارها ، ويرجعها الى نبعتها ويسير معها الى غايتها ، ويستخلص منها القيم الموجهة ويسجل تموجاتها واستحالاتها من خلال التنفيذ .

ومن قبيل النموذج ايضاً التركيز على بعض الأسناد المكينة التي صمدت في بنية الخلق العربي ، وعرفت عنه في سمع الارض وبصرها ، وكانت في نشأتها ردة فعل طبيعية لآفات العصور الغابرة وآلامها .

ونحن هنا نعد ولا نحصي ، فنذكر مثلاً **رعاية العربي لحرية الديانات ، ومقته الحجر على العقل ، وعدم تمييزه بين العناصر والاجناس والالوان ، ورفضه مبدأ** تقسيم الناس الى اسياد وربابنة وعبيد ، **وتحسسه العميق بالظلم ، ومقاومته الضمية** وتأليه **البشر ، وحرصه على** المساواة ، **وأريحيته في الاخذ من ماله ورده** على الفقير والمحتاج .

جميع ذلك اقنية سلوكية جرى فيها الطبع العربي عبر الاجيال وخلدتها مؤلفاتنا المنوعة على صور مواعظ ووقائع وشواهد . ولكن القليل منها ، بل الشاذ عنها ، هو الذي عني به مؤرخونا رحمهم الله ..

ان سيرة (القديس يوحنا الدمشقي) مثلاً ، ومقامه عند الخلفاء الامويين وسماحهم له بالرد على المذهب الرسمي للدولة في (المحاورة بين مسلم ومسيحي) ، لأدل على واقع المجتمع العربي — الذي صان الكنائس والبيع كما صان المساجد — من سير الخلفاء في قصورهم . ولو كان المجتمع في ذلك العهد على الصورة المتحللة التي يرسمها التاريخ لحياة البلاط ، لما كان هنالك فتح لاسبانيا في ذلك الحين من الدهر .

والمرتبات الكبيرة التي عينها الامويون بالذات للعناصر غير العربية ،

والوظائف التي وضعوها بين ايديهم ، لتدحض معظم الحوادث الافرادية التي دونها البعض عن سوء معاملة الامويين للموالي قبل ان يبدأ هؤلاء حملتهم الشعوبية المسعورة .

ورسالة امام اهل المدينة مالك بن أنس الى الخليفة هارون الرشيد ووزيره يحيى ، في الامر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والتي ترويها كتب الادب والاخلاق ، هي من وجهة نظر التاريخ المحض خير من التبسط في ذكر زوجات الخلفاء وبنيهم وندمائهم ..

واننا حين ندهش لاستمرار شيء اسمه **الوجود العربي** إثر غارات المغول والصليبيين ، لايزيل دهشتنا ، بل يضاعفها ، مانقع عليه في كتب التاريخ عن دسائس القصور في عهد المماليك ، ولكن دهشتنا تنجاب حين نتمعن في سيرة الامام ابن تيمية ونعايشه في سجونه ، ونستوعب كتبه وآراءه ، فنستخلص منها ان المجتمع العربي بجملته كان بخير . ورسائل هذا العربي العالم ، في العبودية والواسطة ورفع الملام عن الأئمة الأعلام ، وشرحه لحديث ابي ذر عن رسول الله فيما يروي عن ربه انه قال : ياعبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته محرماً عليكم فلا تظالموا (الى آخر الحديث) ، كل ذلك يصور لنا عصب الجماعة العربية في عصر المماليك ، الصورة التي تشرف وتطمئن .

ولنقل بصراحة وجرأة أن حكام العرب لم يكونوا في جميع مراحل التاريخ العربي في مستوى القيادة والأسوة .. وبالتالي فان نوعاً من الانفصام بين الشعب وحكامه يضفي على تاريخنا الشيء الكثير من اللبس وفقدان الانسجام .

ذلك ان الرسول العربي شاء ان يخلق أمة يكتب لها البقاء ولم يشأ ان يخلق طبقة حاكمة مميزة يكتب لها السلطان، فهو إذ لم يعين احداً من بعده اعتمد على ايمان الجمهرة ووعيها وقدرتها على اختيار قادتها بطريقة الشورى والتمسك بما عليه الجماعة.

وهكذا اكتفى الرسول العربي بان يقول للمواطنين : كيفما تكونوا يولى عليكم ؛ وأرفق ذلك بجملة ارشادات تصلح لأن تكون نبراســـاً في الحكم والادارة (أحسنوا إذا وليتم . كل راع مسؤول عن رعيته . أيما رجل استعمل رجلاً على عشرة وقد علم أن في العشرة من هو أفضل منه فقد غش الله والرسول وجماعة المسلمين . أيما والٍ ولي شيئاً من أمر أمتي فلم ينصح لهم ويجتهد لهم كنصيحته وجهده لنفسه كبه الله على وجهه يوم القيامة في النار . الخ ..)

ولكن الحكم الاسلامي ، بعد أن بارح الحجاز ، أصبح إرثاً ملكياً على غرار الروم في دمشق والفرس في بغداد . وطبيعي ان يحدث الانفصام بين الحاكم والمواطن حين تناءى الحكم عن الاسلوب الديمقراطي السوي .

وليس من شك في أن أثر الكثير من ملوك العرب كان سيئاً في رعيتهم ، وبالتالي في استقرار الحكم العربي واستمراره ؛ وذلك ان الرعية لا بد وان تتأسى براعيها .

رُوي في بعض الاخبار أن الوليد بن عبد الملك كان يحب العمران ، فكان الناس في عهده يتساءلون بينهم عن العمران ويتنافسون فيه ، وكان أخوه سليمان ذا رغبة في الاكل ، فكان حديث الناس في عهده عن الطعام ، وكان عمر بن عبد العزيز من أولي الصلاح والتقى ، فكان الناس على أيامه يتساءلون عن العبادة والقرآن....

ولا نرتاب أيضاً في أن اسلوب الحكم المركزي الذي سار عليه الملوك لضمان عروشهم قد حرك نقمة رعاياهم ومهد السبيل للحركات الاستقلالية ، التي دعمها من جهة ثانية اعتماد ملوك بني العباس على المتطوعة والمرتزقة من طغام الاجناس في حكم الامة العربية ، ودعمها من جهة ثالثة الوضع الجغرافي الخاص الذي يجعل من الاقطار العربية وحدات اقليمية تباعد بينها المفاوز والصحراوات ضمن الاطار الطبيعي الشامل .

فاذا كان للتجزئة العربية سياسياً من سر ، فهذا سرها ...

أما بقاء الوجود العربي في الحيز المحسوس سليماً معافى رغم التجزئة ، فهو يعود اولاً وأخيراً الى الوجود في حيز الروح والوجدان ، روح الشعب ووجدانه ، اللذين صنعهما القرآن حين صنع العرب من جديد والى الابد .

كيف نكتب تاريخنا

في ضوء ماتقدم لا يعز علينا أن نعيد كتابة تاريخنا على وجه معقول ومقبول.

يجب اولاً وقبل كل شيء ان نعطي الجماهير نصيبها من التاريخ .

ويجب ثانياً ان نستخدم الحوادث الهامة لنجردها من جزئيتها وننظمها في خطوط ومبادىء مستمرة . فما كل قاطع طريق بثائر ؛ وثوراتنا قد تكون اخلاقية تهدف الى تقويم انحراف الحكم ، او شعوبية تبتغي تقويض الحكم أو أنانية تطمح في الاستيلاء على الحكم .

ويجب ثالثاً ان لا نفصل بين ماهو سياسي وماهو غير سياسي ، فالتاريخ حياة ، والحياة كل .

ويجب أخيراً ان نغلف الحوادث العربية في إطارها الخارجي ، تاريخياً وجغرافياً ، بحيث تكتسب من المغزى بقدر ما تكتسب من الوضوح .

ولعلنا نستطيع أن نتبين قيمة التاريخ المقارن اذا وازنا بين التيارات والنظم العربية وبين أمثالها عند غير العرب . فالانجليز مثلاً عندما احتلوا امريكا في العصور الاخيرة سحقوا الحضارة الهندية السابقة لهم كما سحقوا أهلها . أما العرب فقد قدسوا حرمة الانسان،أي انسان ، في البلاد التي بسطوا سلطانهم عليها، وتفاعلوا مع كل حضارة أخذاً وعطاءاً ، في نطاق الجوهر الاسلامي . والعرب ملكوا الأرض لمن كان يفلحها ، ولم يغتصبوا مال الغير إثماً وعدوانا . والعرب عرفوا في الانسان طبيعة الأنسي ، فلم يخرجوا به الى آفاق الملائكة او يدبوا به مع

الحيوان . والمال في شرعنا فضل الله تعالى ، وهو رحمة وخير وحسنة ، وهوفوق كل شيء جزاء الأعمال . والمال ايضاً فتنـة وغواية ومنحدر انزلاق واداة سيطرة. والانسان السوي في نظر العربي هو الوسط في كل شيء . ومن هنا نستطيع أن ننطلق الى تحديد الشخصية العربية وذبذباتها على مسار التاريخ ، تحديداً يميزها عن الطغيان الجامح والانطواء المنهزم .



كيف تعرب الاسبان ..
وتفرنج المسلمون ؟

تأثير الحضارة الاندلسية على شبه جزيرة ايبريا .. وتأثير الاسبان على اصحاب الحضارة الاندلسية

بقلم : محمد جميل بيهم

حكم العرب والمسلمون في شبه جزيرة ايبريا طوال ثمانية قرون (٧١١م — ١٤٩٢ م) فصبغوها بصبغتهم لغة وأخلاقاً وعادات ، وأخذوا عن الأسبان مثلما أعطوا ، فأصبحت عروبة قرطبة تختلف عن عروبة بغداد التي تعاصرها . لقد صار للعروبة وقتئذ لونان : لون اندلسي قوطي ، ولون عراقي فارسي . أما العروبة نفسها والحضارة التي اقامتها هنا وهناك فانها وان اختلفتا في الظاهر إلا انهما حافظتا على الوحدة من حيث الجوهر .

التقارب بين بلاد الشام واسبانيا قبل الفتح

كانت البلاد التي تحيط بالبحر المتوسط ، عندالفتح العربي ، ذات حضارة تكاد تكون واحدة ، وهي حضارة اليونان والرومان ، على ان بلاد الشام وشبه جزيرة ايبريا لم تكونا تجتمعان تحت لواء هذه الحضارة فحسب ، بل كانت وحدة المصير في التاريخ ، ووحدة الدين تقاربان أيضاً بينها : فالفينيقيون اللبنانيون أقاموا المستعمرات في اسبانيا ، كما ان اليونان الذين حكموا سوريا أنشأوا كذلك فيها المستعمرات . ثم بسط القرطاجيون من ابناء لبنان حكمهم على اسبانيا ، وظلوا

فيها حتى أجلاهم عنها الرومان سنة ١٣٣ ق م . وبالرومان اجتمعت بلاد الشام بشبه جزيرة ايبريا مرة أخرى ، لأن هؤلاء والروم البيزنطيين كانوا يحكمون سوريا حتى الفتح العربي . زد على ذلك ان الشعوب البربرية الثلاثة التي خلفت الرومان على اسبانيا واتحدت بمملكة الفيزيقوط سنة ٤١٩ م تلك المملكة التي حكمت هناك حتى الفتح العربي ٧١١ م ، ان هذه الشعوب لم تكن غريبة عن حضارة البحر المتوسط.

والى هذا فقد اجتمعت اسبانيا ببلاد الشام وسائر الشرق الادنى في نطاق العقيدة ، فقد اخذت عن سوريا النصرانية واليهودية.فكانت وحدة المصير السياسي في كثير من الأزمان ووحدة الدين عاملين كبيرين للانسجام بينهما في التقاليد والاخلاق بالاضافة الى تشابه طبقة البلدين في المناخ.على ان كل هذا التشابه لا يبدو جلياً إلا إذا قابلنا بين اخلاق البلدين ، وبين مثيلاتها عند أمم اخرى كالأنكلو سكون والجرمن .

وكان من عوائق كل ذلك ان العرب وان اعتبرهم الاسبان اعداء حينما اجتازوا العدوة وعدوهم غرباء لما أقاموا الدولة الأموية بقرطبة (١٣٨—٤٢٢ ه) إلا ان وحشة الاسبان منهم لم تلبث ان انقلبت الى استئناس ، ثم الى تآلف،وذلك قبل نشوب الحروب الصليبية بالاندلس في عهد ملوك البربر .

تطور الحضارة الاندلسية .

كانت اسبانيا بعدالفتح تابعة لأمويي دمشق . ولما قام العباسيون في بغداد، ونكبوا الأمويين ، وطاردوهم هرب عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك الى مصر ، ثم الى شمالي أفريقيا . وقد بايعه في الاندلس اليمانية فانتقل اليها . ولما استقام له الأمر استقر في قرطبة وقطع الخطبة على العباسيين (١٣٨ — ١٧١ ه) ، وقد نشر العلم وعني بشؤون العمران بالاضافة الى عنايته بالجيش والأسطول ، وخلفه ابنه هشام (١٧١ — ١٨٠ ه) فثابر على الاهتمام بالشؤون العامة والثقافة

ونشر اللغة العربية الى ان قامت في جوانب الأندلس مقام اللسان اللاتيني . اما عهد ابنه الحكم الاول (١٨٠ — ٢٠٧ ﻫ) فكان عهد الحروب بينه وبين شارلمان ففترت العناية بالعلم والأدب ، غير انها لم تلبث ان استعادت نشاطها في ايام عبدالرحمن الثاني (٢٠٧—٢٣٨ ﻫ) ، وكان معاصراً للمأمون في بغداد ، ومنافساً له في رعاية الفلسفة . ثم قامت فتن داخلية وحروب متواصلة صرفت تباعاً محمد الأول والمنذر الأول ، وعبد الله الأول ، عن الشؤون الادبية والثقافية حتى اذا تسنم العرش بعدهم عبد الرحمن الناصر (٣٠٠ — ٣٥٠ ﻫ) عوض ما فات ، وكان عهده فاتحة العصر الذهبي الذي حفلت به الاندلس في خلافة ابنه الحكم الثاني (٣٥٠-٣٦٥ﻫ) اذ كان هذا العاهل عالماً عمرانياً فلم يدخر وسعاً في نشر الثقافة حتى اصبحت قرطبة، على رواية خوسيه رويث موراليس مدير العلاقات الثقافية في مدريد « مركز الثقافة في الغرب ، واضحت المدينة الاكثر علماً فيه دون استثناء روما . »

غير أن انصراف الحكم بكليتـــه الى الناحية الثقافية ، وأهماله الجانب السياسي والناحية الأخلاقية أفضيا بالتالي لأن يكون عهده بداية انحطاط الدولة الأموية . وصادف أن صارت الخلافة بعده لولده هشام (٣٦٥—٣٩٣—٤٠١ ﻫ) وكان صبياً فطمع الطامعون بها ، وثارت الثورات في عهده وعهد خلفائه ، فكانت نهايتهم الأليمة سنة ٤٢٢ﻫ ،وكانت بداية ملوك الطوائف وقد أشار اليهم شاعرهم ابن الخطيب بقوله :

حتى أذا سلك الخلافة انتثر   وذهب العين جميعاً والأثر
قام بــكل بقعة مليـــك   وصاح فوق كل غصن ديك

كان ملوك الطوائف يريدون ان يشدوا حاضرهم بماضي الخلفاء فتنافسوا في التشبه بهم ، ولا سيما في تعزيز العلم والأدب وأهليها ، وذلك على غرار منافسة أمويي الأندلس لمعاصريهم العباسيين ، فأعطت هذه المنافسة أكلها الطيبة في العهدين.

وبفضل الحرية التي منحها ملوك الطوائف الفلاسفة وعلماء الذين ارتفع مستوى الثقافة ، وانتشرت العلوم والآداب حتى لم يبق بالاندلس ولا أمي ، على قولدوني ، وحتى ان المخانيث ساهموا في الادب ووضعوا فيه المؤلفات ، ونشأ وقتئذ الشعر الشعبي ، وبرز في ميدانه ابن قزمان .

وكان من المفروض ان يغدو عهد سلاطين البربر في الاندلس (٤٧٩ — ٨٦٩ هـ) المرابطين ، والموحدين ، والمرينيين .. ان يغدو عهدهم عصر ذبول الحضارة لقرب هؤلاء من البداوة ، ولأن أيامهم كانت حافلة بالحروب. ولكن الحضارة الأندلسية ظلت في الواقع تزداد ازدهاراً ذلك لأنها كانت منذ بداية القرن الثاني عشر للميلاد ، قد أدركت من المناعة والقوة حداً جعلها لا تتأثر بالعوارض ، ولا تحتاج لرعاية أولياء العهد . هذا الى أن فريقاً من سلاطين هذه الدول لم يأل جهداً في مجاراة أسلافه من المواهل في تعزيز العلم وأهله . فاذا بالأفذاذ من علماء وفلاسفة وحكماء الحضارة الأندلسية يبرزون تباعاً كابن رشد ، وابن الطفيل ، وابن ميمون اليهودي ، والأدريسي وذلك خلال القرن الثاني عشر ، ثم مسلمة المجريطي ، وابن زهر ، وعازار كيـال الطليطلي ، وسواهم من الذين ارتفعت الحضارة الغربية على سواعدهم في القرون التالية واشتهر في تلك الأيام أصحاب الموشحات كالحفيد بن زهر ، وأبي بكر بن زهر وابن باجة ، وابن سهل ، والأعمى التطيلي .

وكان المسلمون ، خلال نضوج حضارتهم في الاندلس ، يجلون تباعاً عنها مهزومين الى ملجئهم الاخير عند سيف البحر : الى غرناطة عاصمة بني الاحمر (٦٢٩ — ٨٩٧ هـ) . وكان بين المهاجرين العلماء والادباء والصناع وغيرهم ، فامتلأت هذه البقعة الصغيرة بأصحاب المواهب ، ولاسيما بعد سقوط قرطبة (١٢٣٨ م) واشبيلية(١٢٤٨ م) فانتفضت غرناطة من جراء ذلك بنهضة جبارة

كانت بمثابة انتفاضة الاحتضار بالنسبة لحضارة الاندلس ، وحسب تلك الحقبة أن كان على رأس مشاهيرها لسان الدين بن الخطيب ، وابن خلدون ، وابن سعيد المغربي . وقد أصابت الموشحات خلال ذلك نصيباً من الازدهار ، وكان يحمل العلم فيها الى جانب ابن الخطيب ، أبو عبد الله بن زمرك ، واحمد بن علي اللخمي .

الاسبان يتعربون ويساهمون في بناء الحضارة

لا أدري ماهو نوع الجاذبية التي كانت للعرب ، أبان الفتوح ، والتي كانت أمضى من الحسام في اخضاع الشعوب ، وفي حملها على الانصهار بهم ؟ فاليونان والدول المتفرعة عنهم ، وكذلك الرومان ، بسطوا سلطانهم قبل العرب على كثير من الامصار التي دخلت في حوزة هؤلاء وأثروا عليها ، ولكنهم لم يستطيعوا سبيلاً للقضاء على قومياتها بينما أن العرب ما كانوا يحتلون مصراً من الامصار حتى تغشاه العروبة ، ثم تنفذ الى صميمه فيساهم ذلك البلد في بناء حضارة العرب بلغة العرب .

صحيح أن الاسلام يرجع اليه الفضل في هذه الجاذبية بما أمر من انصاف الضعفاء على الاطلاق وبما وضع من حقوق للذميين ، ولكن علينا أن لا ننسى ما كان للعرب أنفسهم من الاثر في هذا الشأن . فهم فضلا عن التزامهم عند الفتح أحكام الاسلام ، كانوا يتخلقون باخلاق فطرية ديموقراطية تزيل وحشة الشعوب المغلوبة، وتجعلهم قريبين من قلوبها . إن العربي الاصيل خلوق بفطرته لايعرف النظام الطبقي الذي كان عند الرومان والصين وغيرهما ، وهو لايزال حتى الآن يتسم بهذه الاخلاق فلا يرتفع الامير عن عبيده ، واذا ناداه أحد منهم ناداه « ياعمي » فتلك الاحكام ، وتلك الاخلاق حملت الاسبان ، كما حملت غيرهم في البلاد الاخرى ، على الاقبال على الاسلام ، وكانت حافزاً للذين احتفظوا باديانهم للتعرب، وللمساهمة في بناء المدنية العربية ، ولاسيما اليهود منهم .

لقد شاهد الاسبان في بلادهم انتفاضة عظيمة عمرانية وثقافية ترافق العهد

العربي الجديد ووجدوا انفسهم تجاه وحدة في المصالح مع الفاتحين فما وسعهم بعد ذلك الا الاعتراف بالامر الواقـــع ، وتهافتوا على الافادة والاستفادة من هذه الانتفاضة ، فتعلموا اللغة العربية وترجموا الى لغتهم آدابها وقصصها فتطورت وظهرت بمظهر ثري جديد ثم اقبلوا على مدارسها وجامعاتها ، وقلدوا أصحاب الدولة بالاسماء والازياء والتقاليد ، فاذا بهم بعد حين لا يتخلفون عن العرب ، ولا يختلفون في شيء . بل أن شهرة جامعات قرطبة ومستشفياتها كانت تحمـل بعض ملوك اوربا وأعيانها على قصدها . وكان بين هؤلاء Gerbert جربرت الافرنسي الذي تسنم من بعده ، كرسي البابوية باسم سلفسترو الثاني (٨٩٠ — ٩٩٩ م) .

واكثر من ذلك فان مجاوري الاندلس لم يلبثوا أن تأثروا أيضاً بالمروبة فقلدوا الاندلسيين بالفروسية وأخلاقها ، وتلحين الاغاني ونظم الشعر ، ونقلوا عنهم القصص والامثال والحكم . وعلى رواية جوانان وقانكافر في كتابها «العالم قاعد اللامع العربية» فان اساقفة نثر ما كولان ضربوا نقداً خط بالكوفي على أحد وجهيه الشهادتين ، وعلى الوجه الآخر رسم الحاكم واسمه . ويروي ايضاً إبن جبير أنه شاهد النصرانيات ، في مدينة بالرم ، عاصمة صقلية ، خارجات في زي المسلمات في عهد النورمان .

أثر اسبانيا في الحضارة الاندلسية وفي اخلاق المسلمين

اذا زرعت حفنة من القمح الايطالي المتاز بحجمه وجودته في غوطة دمشق أعطى في العام الاول قمحا لا يختلف عن البذار . ولكنك اذا كررت الزرع من نفس الانتاج فلا تلبث بعد سنين قليلة ان تحصد حبـا لا يختلف عن امثاله من حبوب الشام . وهكذا فان المحيط الاسباني الذي عاش فيه المسلمون أجيالا وأجيالا لم يلبث ان اعطى مثلما اخذ . ورغم القول المأثور : « الناس على دين ملوكهم » فأن التاريخ ارانا ان الدول الغالبة تتأثر بشعوبها المغلوبة فالمسلمون في شبه جزيرة

أيبريا تأثروا في لغتهم العامة ، وفي ازيائهم وعاداتهم ، وفي أخلاقهم وحتى في ملامحهم فاللغة العامة أصبحت بعد حين غير لغة بغداد وسواها لأنها استعارت كلمات أسبانية وتعابير وعربتها بينما ان لغة بغداد العامية ، وحتى الفصحى امتلأتا بالألفاظ والمعاني الفارسية والتركية . وقد أتيح لي ان اشاهد بنفسي الأزدواج بين لغة الاندلس العربية وبين لغة الاسبان معاصرتها : ففي رحلة الى الامريكتين دعيت في مكسيكو الى تناول الطعام في دار وجيه لبناني مثقف ، ولما تطرق الحديث الى مخلفات اللغة العربية في اللغة الاسبانية نهض مضيفي وجاء بقاموس اسباني قرأت في مقدمته ان ١٨ في المئة من مفرداته هي عربية . وكان هذا المعجم كلما ذكر واحدة منها يدرجها بالأحرف العربية الى جانب الاسبانية ثم يفسرها بيد ا ني سرعان ما لاحظت ان الكلمات التي اشار اليها المعجم بانها عربية هي أعجمية بالنسبة لنا، وادركت انها كلمات اسبانية الاصل استعارها المسلمون هناك واصبحت عندهم عربية، دون ان يعرفوا اصلها.

وأما تأثير أسبانيا على اخلاق المسلمين فقد استبان جليا في عهد ملوك الطوائف وما يليه ، اي في أعقاب الخلافة الاموية . ففي تلك العصور قامت مقاييس واعتبارات لا تتفق مع مقاييسهم القومية ، ولا مع مفاهيمهم الدينية . وأظهرها ما كان يتعلق بالمرأة فقد أخذت المرأة فيما أخذ الرجل من لهو وترف ، وجاذبية انواع المرح والزهو . فانطلقت في حريتها الى مثل ما انطلق اليه من تهتك ، وقالت ما لم يكن يقوله غيرها ، من تنزل وتخالع ، بل قالت مايقوله الان صاحبات الادب المكشوف . انظر الى الاميرة الولادة بنت المستكفي ، وهي من سلالة الامويين فقد كانت تنقش بالذهب على الطراز الأيمن من عصابتها :

أنا والله أصلح للمعالي ... وأمشي مشيتي وأتيه تيها

وتنقش على الطراز الايسر :

أمكن عاشقي من صحن خدي ... وأعطي قبلتي من يشتهيها

وعلى غرار ولادة كثيرات من حرائر الاندلس أطلقن لأنفسهن زمام الحرية الواسعة على ان هذه الحرية التي أدركتها نساء الأندلس ان دلت على شيء فانما تدل اولا على استعداد المجتمع لها ، ولولا ذلك لما تجرأت امرأة على تجاوز المألوف، وتدل ثانيا على الانقلاب الاخلاقي الذي حدث هناك نتيجة لتبدل المقاييس بتأثير المحيط .

واما تبدل الملامح العربية فهذا طبيعي وللأندلسيين أسوة بغيرهم من العرب الذين سكنوا البلاد الاخرى وقد أشار محمد رضا الشبيبي الى ذلك بقوله : « فمن ينزل من العرب فرغانة لايستطيع تمييزه عن أهلها في السحنة واللون والهيئة. ومثلهم من نزلوا في غير فرغانة » من بلاد الترك .

تفرنج المسلمين باسبانيا وضياع ملكهم

حدث كل ذلك إبان ما كان العرب في الاندلس يتبوأون عرش الزعامة ، ولما تخلوا عن هذا المرتقى الى الاسبان صار الاندماج العربي بالظاهر للاسبانية والعادات ، طبعا مألوفا . وكان أول من سن طريق الغلو في التشبه بهم محمد بن سعيد بن مردنيش أمير شرقي الاندلس في اواخر القرن الرابع عشر أشار اليه ابن الخطيب في كتابه (الاحاطة باخبار غرناطة) وقال : « كان يتزيى بزي النصارى من الملابس والسلاح واللجم والسروج ، وكلف بلسانهم » .

وتعرض لهذا الموضوع عبد الله عفيفي في الجزء الثالث من كتابه (المرأة العربية) وذكر ان ابن هود ملك الاندلس كان يسير في أشتات بلاده حاسر الرأس وعلى هـذا الطريق كان بنو الأحمر ينهجون . وأشار ايضا الى ان علماء الاندلس كانوا يرخون ذوائبهم ، ولم يكن يسمح لغيرهم ان يفعل ذلك سيراً على سنة الفرنج في رجال الأدب والفنون، كما أشار الى ان النساء الاندلسيات لبسن المناطق الاسبانيولية .واعتمرن بالقبعات،وخرج الفتيات حواسر الرؤوس كواشف الصدور.

زد على ذلك ان مسلمي الاندلس ما ان غلبوا على أمرهم حتى ابتدأوا من القرن الخامس عشر يتعلمون اللغة الاسبانيـة ويستسيغون أدبها الجديد ، ولا سيما المسرحيات . ولما نزحوا الى شمالي افريقيا وغيرها نقلوا معهم كتبهم ومسرحهم .

وهكذا فمثلما عرب المسلمون الاسبان في بداية الأمر فان المحيط ساعد على صبغ حضارة المسلمين بصبغة اوروبية ، ثم استكملت في التالي الأحوال السياسية تبدل المسلمين حتى تفرنجوا . وما ان تفرنجوا حتى طردوا من الفردوس المفقود .



المجمع العلمي العربي

بقلم : جعفر الحسني

جلت الدولة العثمانية سنة ١٩١٨ عن الاقطار العربية التي كانت خاضعة لنير سلطانها ، وفساد ادارتها ، مخلفة في تلك الاقطار أوزارها وآثار تآمرها على القومية العربية ، وقد حاولت خلال حكمها نزع اقدس خصائصها القومية ، ومقوماتها الشخصية ، والقضاء على اللغة العربية وتتريك أهلها . وأصاب الترك بعض النجاح ، وتمادوا في غيهم عندما وجدوا ميدان العلم خالياً من فرسانه ، واللغة العربية في حالة الاحتضار ، فامعنوا فيها تهديماً ليجهزوا عليها ولكي لايقوم للعرب من بعدها كيان .

لاقت سورية منذ انفصالها عن تركية ، واعلان استقلالها . معضلات ادارية وثقافية واقتصادية عسيرة الحل وكان أهم هذه المشاكل مشكلة تعريب التعليم ، ونقل قوانين الحكومة وانظمتها وسجلاتها الى العربية ثم تقويم

لغة الدواوين الرسمية ، الادارية منها والعسكرية فقد كانت العجمة تطغى عليها جميعا ، مما حمل أول حكومة عربية سورية على معالجة هذا الموضوع في اهتمام كبير فألفت لهذا الغرض شعبة للترجمة والتأليف في خريف سنة ١٩١٨ ، ثم استبدلت بها ديوان المعارف ، واسندت رئاسته الى الاستاذ المرحوم محمد كرد علي ، وضمت اليه خيرة أساتذة اللغة العربية وآدابها .

وانقسم ديوان المعارف بعد ذلك الى فرعين ، ينظر الأول منهما في امور التعليم عامة ، ويعنى الثاني بشؤون اللغة ، ودور الكتب والمتاحف . وقد استقل الفرع الثاني عن هذا الديوان في شهر حزيران عام ١٩١٩ وأطلق عليه اسم (المجمع العلمي العربي) ، والحق نظرياً بادىء ذي بدء بالجامعة السورية ثم انفصل عن الجامعة في سنة ١٩٢٦ ،واستقل بأموره المالية والادارية، وتمتع بشخصية معنوية على مثل ماتكون عليه معظم مجامع العالم .

عهد برئاسة هذا المجمع ، منذ تأسيسه الى المرحوم محمد كرد علي ، وسمي لعضويته من العلماء المقيمين في دمشق الاساتذة : امين سويد وانيس سلوم ورشيد بقدونس وسعيد الكرمي وسليم عنحوري وطاهر الجزائري وعبد القادر المبارك وعبد القادر المغربي وعزالدين علم الدين وعيسى اسكندر المعلوف وفارس الخوري ومتري قندلفت ومرشد خاطر . وانتخب المجمع من الاعضاء المراسلين اضعاف هذا العدد وكانوا من علماء الأقطار العربية ، وعلماء المشرقيات في البلاد الاجنبية ، فافادوا بمادتهم العلمية ، وبأفكارهم النيرة .

وحددت أغراض المجمع العلمي بالأمور التالية :

١ — **المحافظة على سلامة اللغة العربية** ، والحرص على وفائها بمطالب العلوم والفنون الحديثة ، وجعلها لغة حية نامية .

٢ — **وضع المصطلحات العلمية والعمل على توحيدها في البلاد العربية .**

٣ — **احياء تراث السلف في العلوم والآداب والفنون .**

٤ — **تنشيط التأليف والتعريب والبحث والتحقيق .**

واتخذ المجمع منذ تأسيسه المدرسة العادلية الكبرى مقراً له ، بعد ان رممها وجدد بعض اجزائها وخص المتحف بأكثر قاعاتها .

ان المدرسة العادلية هي بقية مئات من المدارس كانت عامرة في القرون الوسطى ، يشع منها نور العلم في هذا البلد ، ولهذه المدرسة تاريخ مجيد في نشر الثقافة على أنواعها ، وقد درس فيها زمرة من أعاظم الرجال من فقهاء ومحدثين ومفسرين ونحويين ولغويين ومؤرخين وأدباء .

ووضع فيها المقدسي تاريخ الروضتين في أخبار الدولتين ، وفيها ألف ابن خلكان تاريخ وفيات الاعيان ، وتصدر منبرها خطيب دمشق الجلال القزويني . وعلى بابها كان يقف ابن مالك النحوي ، ويدعو الناس لحضور درسه ، مناديا هل من متعلم وهل من مستفيد . وفيها نزل ابن خلدون فيلسوف العرب ومؤرخها . وأراد الله ان لا يخلي هذه المدرسة من علم ينشر وأدب يذكر ، فاختارها للمجمع مقراً لكي يعود فيها سوق العلم والأدب الى الرواج بعد كساد دام سنين طوالا .

وما كاد يذاع خبر انشاء المجمع العلمي العربي ، وتظهر باكورة اعماله ، حتى انهالت عليه رسائل التهنئة والتنشيط من علماء المشرقيات في مختلف الأمم ، وأعلنت الأندية العلمية سرورها بالمولود العربي الجديد الذي كان أول مجمع من نوعه في الاقطار العربية . وأعلنت بعض المجامع العلمية بتأليفه في اجتماعاتها الرسمية وابتهج له أعضاؤها ، واعتبروه في ذلك الزمن أحدث مولود بين المجامع العلمية أو اللغوية ، وأعلنوا رغبتهم في التعاون معه وفي تبادل العلاقات العلمية بينهم وبينه ، وباركوا جميعاً جهود المجمع متمنين له التوفيق في احياء تراث العرب ، والنهوض باللغة العربية ، وربط الثقافة العربية القديمة بثقافة المدنية الحديثة .

ولم يكن علماء الاقطار العربية أقل حماسة من غيرهم فقد ابتهجوا لهذا الحدث ، واكبروا هذه الخطوة الجريئة المباركة .

باشر المجمع ، على قلة موارده ، وفي نشوة هذا الترحيب والتشجيع ، نشاطه العلمي واللغوي ، مدركا خطورة مهامه ، وثقل تبعاته تجاه البلاد العربية التي عقدت عليه آمالاً جساما في خدمة العلوم العربية وانعاشها .

وأصدر المجمع مجلته الشهرية (مجلة المجمع العلمي العربي) فجاءت فريدة في بابها في الاقطار العربية . اقتصرت أبحاثها على المواضيع اللغوية ، والأدبية ، والتاريخية ، وعلى نقد الكتب الحديثة والتعريف بها ، وكتب فيها نخبة من علماء اللغة والمصطلحات والأدباء والباحثين في تراثنا من عرب ومستشرقين . وما هذه المجلة الا صورة للمجمع العلمي وأثر من آثار نهضتنا الثقافية الحديثة .

تعرض المجمع في أول عهد الانتداب الى أزمات قاسية ، وحملات مغرضة ، كادت تعصف به وتقضي على نشاطه . وكان بعض المتزلفين للسلطات الحاكمة ، يتحينون الفرص ، كتنظيم ميزانية الدولة ، فيقترحون الغاء المجمع أو تقليص نفقاته ، ولكن ارادة العناصر القومية المؤمنة برسالة المجمع كانت تقف على الشعوبيين كيدهم وتدعم المجمع في قوة وايمان الى ان رست أركانه وثبت الى ماشاء الله كيانه . وقد تهيب الفرنسيون أمام الرأي العام العربي والغربي مغبة الاقدام على مثل هذه الاساءة الى العلم ، وهكذا أخمدت الدسائس الخفية وتلاشت الاصوات الضعيفة ،

وما كان هذا الصراع بين الخير والشر الا ليزيد المجمع قوة وعزماً حتى بلغ أشده ، واحتل مكانة علمية مرموقة ، وأصبح قدوة لمجامع أنشأتها بعض البلاد العربية على غراره .

ولم يقصر المجمع نشاطه على فئة من الشعب دون غيرها ، بل وزعه بين الخاصة والعامة ، ناشراً في الفريقين الثقافة على أنواعها ، وذلك في محاضرات دورية ، كان يلقيها اعضاؤه وغيرهم من الأدباء ، والاطباء ، والحقوقيين ، والمهندسين ، والمؤرخين ، والاداريين وغيرهم ، وكان الاقبال على هذه المحاضرات عظيماً .

وأولى المجمع المكتبة الظاهرية عنايته ، بعد أن ضمها اليه ، وكانت قبل ذلك تابعة لمديرية أوقاف دمشق ، وليس فيها الا نحو أربعة آلاف كتاب مخطوط ومطبوع وكانت محصورة في قبة ضريح الملك الظاهر ، أما بقية بناء الظاهرية فكان فيها مدرسة ابتدائية، تشوش على المطالع ، والباحث ، ولذلك كانت تمضي الايام من دون ان يدخل المكتبة الا ناسخ لنسخ بعض المخطوطات ، أو زائر لمشاهدة زخارف جدرانها الأثرية . وعمل المجمع بعد جهد كبير على نقل المدرسة الابتدائية الى مكان آخر فاستقلت المكتبة بكامل البناء . وجعلت دار كتب عامة ، مجهزة بأفضل الأثاث ، ومزودة بأمّ الكتب والمجلات الحديثة والاجنبية . وأوفد المجمع الى معهد تنظيم المكتبات في فرنسة طالباً للتخصص بهذا العلم ، فعاد حاملاً شهادة هذا الاختصاص . وتسلم ادارة المكتبة الظاهرية ، فأدخل عليها ما أمكن تحقيقه من التحسينات على أسلوب علمي عملي حديث ، وأصبحت المكتبة بعد ذلك دار مراجعة ومطالعة يؤمها الباحثون والقراء لينهلوا من معينها . وتملك المكتبة على تواضع مظهرها ثروة طائلة من الكتب وتعد من أغنى دور الكتب بقديم المخطوطات ونفيسها. وقد ارتفع عدد الكتب المخطوطة فيها الى (٩٣٠٠) كتاب ، والكتب المطبوعة الى (٩٠٠٠٠) كتاب ومجلة ونشرة باللغة العربية والاجنبية . وقد بلغ المعدل الشهري لروادها نحو (٣٢٠٠) قارىء . ولم تتخلف دار الكتب عن النهضة الثقافية الحديثة التي شملت البلاد ، بل جارتها في سيرها وفي تطورها المستمرين فارتفع مستواها العلمي ، وازداد الاقبال عليها ، وأحرزت ثقة المواطنين ، فأهداها الكثيرون منهم خزائن كتبهم ، حتى ضاقت بعدد كتبها وعدد زائريها . وأسس المجمع في مدينة حلب غرفة قراءة ، زودها بالكتب والمجلات فكانت نواة لدار الكتب الوطنية التي أسسها سنة ١٩٣٧ ـ ١٩٣٨ معالي الامير مصطفى الشهابي محافظ حلب في ذلك الزمن ورئيس المجمع في أيامنا هذه .

وقد آلى المجمع على نفسه منذ تأسيسه أن يأخذ بأسباب النهضة الحديثة وأن يستدرك ما فات في عصر الانحطاط ، فسمت همته الى انشاء

المتاحف ودور الكتب والى اقامة مهرجانات علمية ومعارض فنية تستهوي الجمهور ، فيقبل عليها مستطلعاً ويغادرها مزوداً بفوائد تلقفها في ساعات مما لايتيسر له الحصول عليه في اشهر. وربما كان التبيان افعل في الاذهان من سلطان البيان. وهذا مما حمل المجمع على انشاء متحف في دمشق وآخر في حلب، عرض فيهما من تراث السلف الآثار التي جمعها من الدوائر الرسمية ، او جلبها من المناطق الاثرية ، أو استهداها كرام المواطنين ، أو ابتاعها من الاسواق التجارية . وأوفدت الحكومة محافظ متحف دمشق الى فرنسة حيث تخصص بعلم الآثار الشرقية القديمة ، وعهدت اليه بعد عودته بادارة متحف دمشق ، ولما بلغ المتحف رشده وضاق المكان بمعروضاته انفصل في عام ١٩٢٨ عن المجمع العلمي العربي ، وانتقل بعد ذلك الى بنائه الجديد ، حاملاً ثروة تاريخية وفنية يعتز بها الوطن. **وكان انشاء المتحف في دمشق من اظهر اعمال المجمع.**

وكان أثراً بارزاً من آثاره ، حضنه سنوات طويلة ، ووفر له اسباب الحياة والازدهار.

ونظم المجمع في صيف عام ١٩٢٨ اول معرض تام في سورية للصناعات الشرقية ، عرض فيه الطنافس النفيسة ، والنحاس المنقوش ، والاخشاب المحفورة والاواني الزجاجية ، والاسلحة العربية ، ونفائس المخطوطات ، والصور ، وانواع المنسوجات ، بغيـة تعريف الجمهور بهذه الصناعات الرائعة التي اشتهرت بها المدن السورية وغيرها من المدن العربية ، وبغية الحث على بعثها. واصاب المعرض نجاحاً فوق ما كان يرجى له ، واقبل عليه الجمهور من المدن السورية والاقطار المجاورة ، ليتمتع بروائع المعروضات الفنية ويطلع على نهضة البلاد الصناعية .

يؤمن المجمع العلمي العربي بان العناية باللغة العربية وهي بعد من مهامه الرئيسية والنهوض بها ونشر آدابها ، هي خير سبيل لم شعث الاقطار العربية التي شتتها الاستعمار ومزق وحدتها . ويؤمن بان هذه اللغة هي امضى سلاح يغمد على العدو مآربه ، ويتخطى تحت سمعه وبصره الحواجز والحدود التي فرضها ، وينفذ الى اعماق النفوس حاملاً الى أبناء امتنا الدعوة الى وحدتهم والى عزتهم ، ويؤمن ايضاً بانه لابد لهذه اللغة الخالدة من ان تبقى كما كانت في ماضيهـا المجيد ، قطب الرحى ، تلتف من حولها دنيا العرب ، وتتحطم على صخرتهـا كل محاولة للفرقة والجفاء ، وبانها ستبقى دائماً وابداً رسول العروبة الامين وحصنها المنيع .

لم يغفل المجمع عن اهتبال كل فرصة ليحقق اهدافه البعيدة في خدمة هذه اللغة ، فكرم من شاركوه من ابناء العروبة في اغراضه ، ورحب بالوافدين عليه من اعضائه ، وأشاد باعمال الراحلين منهم ، ونشط الأدباء والشعراء من الشباب الناشىء ، ونظم مهرجانات لذكرى الخالدين من السلف ممن شيدوا للغة امتنا وآدابها مجداً تالداً .

ومن جملة اعمال المجمع في زمن مضى انه **احتفل بثلاثة من اعضائه المراسلين** كل واحد منهم من علم اعلام الشعر والأدب وهم : **أمير الشعراء احمد شوقي ، وشاعر النيل حافظ ابراهيم ، وشاعر القطرين خليل مطران** . فقد تجلت في هذا اللقاء أصالة العروبة في نفوس أبناء سورية ، وتقديرهم العظيم لكل من خدم لغة القرآن الكريم ، وعمل على اعلاء شأنها وسلامة كيانها . وأصاب هذا التكريم مرماه ، ولاقى في نفوس المحتفى بهم صداه ، فاشاد به أمير الشعراء بقصيدته العصماء التي قال فيها :

لولا دمشق لما كانت طليطلة ... ولا زهت ببني العباس بغدان

وأعرب حافظ ابراهيم عن تأثره وامتنانه بقوله :

شكرت جميل صنعكمو بدمعي ... ودمع العين مقياس الشعور
لأول مرة قد ذاق جفني ... على ما ذاقه دمع السرور

وخاطب خليل مطران مجمعنا بقوله :

جزيت عنا الخير يا مجمعاً ... رجاله علية أهل الأدب

وحيى دمشق قائلاً :

ان تستعد من عزمها ما مضى ... وهي له أهل فهل من عجب

وكرم المجمع الشاعر المصري المعروف محمد الهراوي لما جاء الى دمشق حاملاً تحية شعراء مصر وأدبائها وتحية النيل الى بردى ، نظمها بسحر بيانه فقال :

هذي دمشق فحيّها بسلام ... أزكى التحية يا عروس الشام
إني اتيت اليك يدفعني الهوى ... شوقاً ، ويجذبني اليك غرامي
وقدمت أحمل ود مصر وحبها ... وتشوق الفسطاط والاهرام

* * *

أدمشق يا أخت الكنانة في الهوى ... صلة الهوى في حرمة وذمام
أختان في دين ، وفي نسب ، وفي ... أدب ، وفي أمل ، وفي آلام
فاذا تباعدنا ، فقد دنتا معاً ... والقرب بالارواح لا الأجسام

وأقام المجمع في إحدى السنين حفلة مبتكرة في نوعها دعاها (حفلة تنشيط) كرم فيها

اربعة طلاب تفوقوا على اقرانهم في الأدب والشعر ، تنشيطاً لهم للمضي في هـذا الطريق ، وهم السادة : زكي المحاسني ، وجميل سلطان ، وانور العطار ، وعبد الكريم الكرمي ، وكانوا جميعا عند حسن ظن المجمع بهم ، فلكل منهم اليوم منزلته في دولة الشعر والادب .

ولم تكن الغاية من الحفلات المختلفة التي كان المجمع يقيمها للوافـدين على دمشق تكريم العاملين بل كانت الغاية تأليف القلوب بين ادباء الشعوب العربية ، وفي ذلك مافيه من خدمـة لأغراض القومية العربية .

ولئن كرم المجمع الاحياء من أعضائه ، فهو لم ينس واجبه نحو الراحلين منهم ، فقد أقام حفلات تأبين للمرحومين : الشيخ طاهر الجزائري ، واحمد كمال باشا ، ومحمد رشيد رضا ، وحافظ ابراهيم ، وأحمد شوقي . وكانت كل حفلة منها سوقاً ادبياً ، تنافس فيه ادباء العرب وشعراؤهم ، وحلقوا في اجواء النثر والقريض ، معربين باسم المجمع واسم السوريين كافة عما خامر نفوسهم من الاسى على فقد هؤلاء الاعلام الراحلين .

ولم يصرفه تكريم المعاصرين عن احياء ذكرى الخالدين من علماء السلف وكتابهم وشعرائهم الذين خلدتهم آثارهم ، وخلفوا لأمتهم مجداً تتباهى به على الامم طرا ، **فاقام في عام ١٩٣٦ مهرجاناً رائعاً** بمناسبة **مرور الف سنة على وفاة شاعر العرب الكبير أبي الطيب المتنبي** . وأقام في سنة ١٩٤٤ مهرجانا آخر بمناسبة **مرور الف عام على مولد الشاعر والفيلسوف أبي العلاء المعري** ، دام كل من المهرجانين اسبوعا كاملا اشترك فيه جمهور من ادباء العرب وشعرائهم وافاضل مستشرقي بلاد الغرب ، وتناولت أبحاثهم مختلف نواحي نشاط هذين العالمين الخالدين الفنية ، والفلسفية ، والاجتماعية ، والسياسية ، والتاريخية ، والدينية . وجمعت أبحاثهم القيمة ، ونشرت في مجلدات ليعم نفعها ، وليطلع الخلف على عظمة السلف ، وليذكروا مجد امتهم الغابرة ومفاخرها العابرة .

ولما رأى المجمع تراخي الصلة بين أدبنا القديم وادبنا الجديد ، ورأى ضرورة الربط بينهما لجأ الى إحياء ما أهمل من نفائس تراث السلف ، فنقب عنها في خزائن دور الكتب العامة والخاصة ونسخ طائفة منها ، وحقق بعضها ، ونشر عشرات منها. **وقد بلغ مجموع ما نشره من هذه النفائس (٥٦) كتاباً في مختلف المواضيع** فمنها في الادب نشوار المحاضرة ، والمستجاد من فعلات الأجواد لابي علي المحسن التنوخي ، ومنها كتاب الأشربة لابن قتيبة ، والتبصر بالتجارة للجاحظ ، والمنتقى من أخبار الأصمعي للامام الربعي ، وأخبار البحتري للصولي وأعتاب الكتاب

لابن الأبار ، واخلاق الوزيرين لابي حيان التوحيدي ، والبيزرة لبازيار العزيز بالله الفاطمي . ورسالة الملائكة لابي العلاء المعري ، ومنها في اللغة الموفي في النحو الكوفي لصدر الدين الكنغراوي ، واسرار العربية للانباري ، وتكملة إصلاح ماتغلط به العامة للجواليقي ، وبحر العوام في ما اصاب فيه العوام لابن الحنبلي الحلبي ، وكتاب الابدال ، وكتاب المثنى ، وكتاب الاتباع لابي الطيب اللغوي ، وكتاب النوادر لابي مسحل عبد الوهاب بن حريش . ومن دواوين الشعر : ديوان الوليد بن يزيد ، وديوان ابن عنين ، وديوان علي بن الجهم ، وديوان ابن حيوس ، وديوان ابن الخياط وديوان الوأواء الدمشقي ، وخريدة القصر وجريدة العصر للعماد الاصفهاني الكاتب ، وديوان ابن ابي حصينة . وفي التاريخ والسير والرحلات : تاريخ حكماء الاسلام للبيهقي ، والدارس في تاريخ المدارس للنعيمي ، وتاريخ دمشق لابن عساكر ، وفضائل الشام لابي الحسن علي الربعي ، وامراء دمشق للصفدي ، وتراجم الاعيان من ابناء الزمان للبوريني ، وطرفة الاصحاب في معرفة الانساب للملك الاشرف ابن رسول ، وتاريخ داريا لعبد الجبار الخولاني ، ورحلة ابن فضلان وحلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر لعبد الرزاق البيطار ، والثقافة الاسلامية في الهند لعبد الحي الحسني الندوي . وفي الفلسفة : الرسالة الجامعة المنسوبة للمجريطي ، وكتاب النفس لابن باجة الاندلسي الخ .

ومهما يستخف بعض المعاصرين على هذا التراث الكريم ، فسيظل ذلك التراث من أهم مقومات قوميتنا العربية ، كما سيظل أهم مرجع لكل كاتب ولكل اديب .

الخلاصة :

هذه لمحة خاطفة عن أعمال المجمع في الماضي وفي الحاضر . ومن الواضح ان تلك الأعمال كانت متنوعة يوم لم يكن في الدولة السورية أندية أدبية ، ولاردهات للمحاضرات ، ولامتاحف ولاوزارة للثقافة والارشاد .

اما اليوم فقد قصر المجمع عمله على ما تقوم به المجامع اللغوية والعلمية في العالم وهو فيا يختص بنا وضع المصطلحات العلمية العربية او تحقيقها ، وتصحيح الأغلاط الشائعة . ومدارسة تراثنا اللغوي والعلمي والأدبي القديم ، ونشر المفيد من مخطوطاته ، وتشجيع الادباء بالمكافآت ، والاتصال بالمجامع والمؤسسات العربية والاجنبية في كل ما يخدم لغتنا وثقافتنا ، وفي كل ما يصل ماضينا بحاضرنا .

ومن الواضح ان هذه الأعمال لاتوجه الى جماهير الشعب ، بل الى طبقة مخصوصة منه ،

وهذا هو الجواب عن تساؤل بعض الأفراد عن الاسباب التي جعلت المجمع يكف عن القاء المحاضرات ، وعن اقامة الحفلات العامة . فالمجمع بعد انتشار الثقافة ومؤسساتها قد اقتصر على مهمته الأساسية وهي خدمة لغتنا وتراثنا القديم ، ولذلك قل اتصاله بالجماهير ، واقتصر على العلماء واللغويين والاساتذة والمدرسين وكبار الادباء والصحفيين وأشباههم ممن يهتمون بتراثنا اهتمامهم بشؤون لغتنا ويجعلها صالحة للتعليم العالي وللتعبير عن حاجات المدنية الحاضرة . فهؤلاء جميعاً لهم صلة بالمجمع وبمجلته وبمنشوراته . وهم يقدرون الفوائد التي يفيدونها منها .



الصداقة والصديق..

لأبي حيان التوحيدي

بقلم: ظافر القاسمي

— الحلقة الأولى والثانية —

— ١ —

أبو حيان التوحيدي (علي بن محمد) أحد جبابرة الفكر وأعلام العلم وعمالقة الأدب، الذين تركوا أثراً بعيد المدى عميق الجذور، في حياة العرب العقلية وفي الثقافة الانسانية، سواء في العصر الذي عاش فيه أم في العصور التي أعقبته.

عاش حياته الطويلة، التي جاوزت الثمانين، في فاقة أليمة، وحاجة مستديمة، لم يبلغ الكفاف أكثر أيامه، ولم يبلغ ما يسد الرمق في ظعنه ومقامه، مع ما رزق من عقل نافذ وعلم واسع، ولسان فصيح، وحسن في الأداء نادر، لم يغن عنه مدحه وذمه، ولا تزلفه وهجاؤه، ولا جفوته وقربه، لأصحاب الجاه والسلطان، ومنهم من كان يرعى العلماء والأدباء ويغدق عليهم أنواع العطايا، وأخلاف الرزق.

صمت المؤرخون عن ترجمته ، فلم يشيروا اليه في كتبهم ، ولا أشادوا بشيء من حسناته ، ولم ينقدوا شيئاً من سيئاته ثلاثة قرون متواليات ، **الى أن جاء ياقوت فكشف النقاب عن شخصيته الفريدة فقال :**

كان جاحظيا ، يسلك في تصانيفه مسلك الجاحظ ، ويشتهي أن ينتظم في سلكه ، فهو شيخ الصوفية ، وفيلسوف الادباء ، وأديب الفلاسفة ، ومحقق أهل الكلام ، ومتكلم المحققين وامام البلغاء . فرد الدنيا الذي لا نظير له ذكاء وفطنة ، وفصاحة ومكنة ، كثير التحصيل للعلوم في كل فن ، حفظـــة ، واسع الرواية والدراية . لم أر واحدا من أهل العلم ذكره في كتاب ، ولا أدمجه في خطاب ، وهذا من العجب العجاب » .

اختلف الناس فيه ، **فعده ابن الجوزي أحد زنادقة الاسلام الثلاثة : ابن الراوندي** ، والمعري ، **والتوحيدي** . وذهب الى أنه كان أشدهم ، صرحا، وأما هو فجمجم .

وعده السبكي في طبقات الشافعية .

وذهب آخرون الى أنه من أهل الباطن أي الصوفية [1] .

وأيا ما كان مذهبه ، فان اختلاف الناس فيه دليل على خطره ، ولم يكن الصمت عن ترجمته ثلاثة قرون الا امتدادا لأذى لسانه ، وأثراً من آثار تغلب سوء أخلاقه على علمه وبيانه . شهد بذلك على نفسه فقال :

« اني تصفحت الناس فوجدتهم أحد رجلين : رجل ان نطق نطق عن غيظ ودمنة ، وان سكت سكت عن ضغن واحنة ، ورجل ان بذل كدر بامتنانه بذله ، وان منع حسن باقباله بخله » .

ولعل كتابه « **الصداقة والصديق** » الذي نشره على الناس قبل ثمانين عاما،

(١) محمد كرد علي — امراء البيان — ج ٢ — ص ٥٠٠

باقعة عصره ، صاحب الجوائب أحمد فارس الشدياق ، من أمتع الكتب التي خلفها وحفظها الزمان ، فلقد ضم بين دفتيه بحثاً فريداً في لغة العرب ، لم يعرف مثله على القرون ، عمقاً في الدرس ، وغوصاً على المعاني ، واختياراً للألفاظ ، وانتقاءً لأجود الأقوال.

ألف التوحيدي كتابه هذا في حال نفسية لم تزايله طول حياته ، فكانت سببا لحاجته وفاقته ، يتكفف أيدي الامراء ، ويقف على أبواب الحكام ، فلا يرى رداً لسؤال ، ولا جوابا لخطاب .

لقد عجب التوحيدي نفسه من اقباله على التأليف في « موضوع الصداقة والصديق » وهو الذي وصف حياته فقال : **ولقد اضطررت بعد الشهرة والمعرفة في أوقات كثيرة الى أكل الخضر في الصحراء ، والى التكفف الفاضح عند الخاصة والعامة ، والى بيع الدين والمروءة ، والى تعاطي الرياء بالسمعة والنفاق ، والى ما لايحسن بالحر أن يرسمه بالقلم ، ويطرح في قلب صاحبه الالم».**

رجل هذه نظرته الى الناس في النطق والصمت والبذل والمنع ، وهذا عيشه بينهم ، يضع كتابا ضخما برأسه في « الصداقة والصديق » ، ومن حقه أن يعجب ، ومن حق الناس أن يعجبوا له ، وأن يعجبوا به ، فما عرف في تاريخ الآداب كثيرون ، استطاعوا أن يخرجوا على اهوائهم ، وان ينتظموا في غير العقد الذي خلقوا فيه ، وأن يحملوا أقلامهم على التغني بغير ما طبعوا عليه . ان رجلا حرم نعمة الالف والوفاء ، ولم يرزق ريحان الحنان ، ولم يعرف اخاء الاصدقاء ، يؤلف كتابا جامعا في « الصداقة والصديق » خليق ان يكون موضع العجب والاعجاب ، وجدير بأن يحتل الذروة بين المبدعين .

لم يخف هذا على التوحيدي نفسه ، بل أضاف اليه أن عمله ليس « عجيباً » فحسب ، وانما وصفه بأنه بديع أيضا فقال :

« ومن العجب والبديع ، أنا كتبنا هذه الحروف ، على ما في النفس

من الحرق والأسف والحسرة والغيظ والكمد والومد ».[1]

ان كل واحد من هذه البواعث خليق بأن يخرج المرء عن طبيعته ، وأن يجعله مختل الميزان ، طائش الأحكام ، ليس له رأي صائب ، ولا فكر جميع ، هذا اذا شاء أن يكتب في موضوع من المواضيع العادية ، التي لا تنافر بينها وبين الحرق والأسف والغيظ وما اليها ، فما بالك اذا كانت النفس والهدف على طرفي نقيض ، وما بين اللواعج والمرتجى كما بين المبغض والبغيض ؟

وليت التوحيدي وقف عند هذا الحد ، وانما استرسل في وصف حاله ، كأنه يتحدى المفاهيم العامة ، ويدل بقوته على تطويع اللفظ والمعنى الى قدرته ، وينتقم لحظه الذاهب من المال ، بحظه المقبل من المقال ، ويعلن بكثير من الصراحة غير المألوفة ، موجهاً خطابه الى من وجهت اليه الرسالة :[2]

«... انك تبسط من العذر مالايجود به سواك ، وذاك لعلمك بحالي ، واطلاعك على دخلتي ، واستمراري على هذا الانفاض[3] والعوز ، اللذين قد نقضا قوتي ، ونكثا مرتي ،[4] وأفسدا حيلتي ، وقرناني بالأسى ، وحبباني عن الأسى ،[5] لأني فقدت كل مؤنس وصاحب ، ومرفق ومشفق ، والله لربما صليت في الجامع ، فلا أرى الى جنبي من يصلي معي ! فان اتفق فبقال أو عصار أو نداف أو قصاب .... فقد أمسيت غريب الحال ، غريب اللفظ ، غريب النحلة ، غريب الخلق ، مستأنسا بالوحشة ، قانعا بالوحدة ، معتادا للصمت ، ملازما للحيرة ، محتملا للأذى ، يائسا من جميع من ترى .....»

---

(١) ص ٥ — طبعة الجوائب والومد : الحر مع سكون الريح (اللسان) . ومن المجاز : الغضب (الأساس

(٢) ص ٥ (٣) المجاعة والحاجة (٤) المرة : (بالكسر) قوة الخلق وشدته .

(٥) الاسى : (بالضم) الصبر .

وفي يقيني أننا لو قرأنا مثل هذا الوصف لمؤرخ معاصر للتوحيدي يصفه فيه ، وعرفنا بعده أنه ألف كتابا في « الصداقة والصديق » ، لكان لنا ان نرفض احدى الروايتين ، اما وصف المؤرخ للتوحيدى ، واما نسبة الكتاب اليه ، واما الجمع بينهما ، فأمر يكاد يكون بالمستحيل أشبه .

وموضع العجب أن التوحيدي نفسه هو صاحب الكتاب وابو عذرته ، وهو الذي وصف نفسه بقلمه ، بهذه اللوحة القاتمة ، التي يشع السواد من جميع أطرافها ، فلا تكاد ترى فيها اثراً لنور ، ولا بارقة من امل ، ظلمات بعضها فوق بعض ، وحياة وما هي بالحياة !

ليت شعري كيف تسنى لمن احاطه العوز ، وقرن بالأسى ، وفقد كل مؤنس وصاحب ، حتى لا يرى في الجامع من يصلي معه ، غريب الحال واللفظ والنحلة ، مستأنسا بالوحشة .... كيف تسنى لانسان هذه حاله ان يؤلف هذا الكتاب الجامع في الصداقة والصديق ؟

بهذا قدم التوحيدي كتابه لقرائه ، الذي أربى فيه على المألوف ، وعز على الشبيه والنظير ، وارتفع عن الانداد والاتراب ، وكان فرداً لا يدرى أصبره أكبر أم علمه ؟ وعقله أوسع أم لغته ؟ وعزلته أعظم أم فنه ؟

ان هذا العقل الجبار ، الذي ترك للناس هذا الاثر في (الصداقة والصديق) مع ماحاق به من أرزاء ، تنحني له الأجيال ، وتتصاغر أمامه الرجال ، ويبدو جبلا لا يطاول ، وبحراً لا يساحل !

— ٢ —

ماهي المواضيع التي عالجها التوحيدي في كتابه ؟

جرت عادة المؤلفين في العصور القديمة والحديثة أن يقدموا موضوع كتابهم في الصفحات الاولى منه . أما التوحيدي فقد اكتفى بعنوان الكتاب ،

ومضى فيه على الطريقة المألوفة في عصره ، دون تبويب ، ولا تنسيق ، الى ان كاد يتعصف ، وهنالك قال : (١)

« قد اتت هذه الرسالة على حديث الصداقة والصديق وما يتصل بالوفاق والخلاف والهجر والصلة والعتب والرضا والمذق والاخلاص والرثاء والنفاق والحيلة والخداع والاستقامة والالتواء والاستكانة والاحتجاج والاعتذار .. »

ولو انك ذهبت تحصي هذه الالفاظ ومعانيها ، لوجدت أن مايندرج منها تحت معنى الصداقة ستة ، وان مايندرج على نقيضها اثنا عشر . فالصداقة والوفاق والصلة والرضا والاخلاص والاستقامة ، بمقابل الخلاف والهجر والعتب والمذق والرثاء والنفاق والحيلة والخداع والالتواء والاستكانة والاحتجاج والاعتذار . فاذا كان اللفظ تعبيراً عن فكرة تدور في الرأس ، أو عن لواعج تضطرم بها النفس، فلا شك في أن التوحيدي قد كتب رسالته هذه ، وهو أميل الى نفي الصداقة والاصدقاء ، وأقرب الى التنفير من الناس ، لأنه اقتصد في التعبير عن الصداقة وما يناظرها ، وأسرف في التعبير عن العداوة وما يشابهها ، ولا عجب بعد ان عرفت ماعرفت عن كرهه للمجتمع ، وبعده عنه ، واجتواء الناس له ، ونفرتهم منه ، حتى يصلي في الجامع فلا يصلي أحد الى جانبه ... ان يكون أبو حيان ، عن الصداقة الحقة بعيداً ، وبالايمان بوجودها كافراً ، ولهذا فانه يبدأ كتابه بعدالمقدمة بهذا الحكم القاطع الجاف :

« وقبل كل شيء ينبغي أن نثق بانه لاصديق ولا من يتشبه بالصديق »(٢) .

ولا يقف مؤلفنا عند قولته هذه ، بل أخذ يدعمها ، ويدلل عليها باقوال بلغاء المتشائمين ، من الكتاب والشعراء والحكماء ، فيروى عن جميل بن مرة أنه قال : (٣)

---

(١) ص ٧٩ (٢) ص ٦ (٣) ص٦ـ٧

لقد صحبت الناس اربعين سنة ، فما رأيتهم غفروا لي ذنبا ، ولا ستروا لي عيبا ، ولا حفظوا لي غيبا ، ولا أقالوا بي عثرة (١) ، ولا رحموا لي عبرة ، ولا قبلوا مني معذرة ..

وينقل عن المسجدي انه كان يقول كثيرا : (٢)

الصداقة مرفوضة ، والحفاظ معدوم ، والوفاء اسم لاحقيقة له ، والرعاية موقوفة على البذل ، والكرم فقد مات ، والله يحيي الموتى .

وترى أقوالا اخرى مماثلة للثوري وابن كعب والصابي وغيرهم .

لماذا أخذ التوحيدي بهذه البداية القبيحة ، الـــتي تفل العزم ، وتبرد الهمم ، وتعطى صورة منكرة شوهاء عن الدنيا وأهليهـا ، وهو الذي أراد أن يعالج الصداقة والصديق ؟

أتراه اراد ان يدلل على مبلغ قدرته على حسن السبك ، وبلاغة التعبير ، واتساع الاحاطة ، في موضوع لم يكن منه في حياته الخاصة ، في ورد ولا صدر؟

أم انه كان في الواقع صادقا كل الصدق ، حين التمس العذر لنفسه عن هذه الفاتحة القاتمة ، فقال : (٣)

استرسال الكلام في هذا النمط شفاء للصدر ، وتخفيف من البرحاء ، وانجياب للحرقـة ، واطراد (٤) للغيظ ، وبرد للغليل ، وتعليل للنفس . ولا بأس بايراد كل ماالامه ودخل في حوزته ، وان كان آخره لا يدرك، وغايته لاتملك!

واذا كان أبوحيان يريد ان يتخفف حقا من هذه الآلام التي برحت بـه طول حياته ، فلماذا جرى في أكثر كتابه على غير هذا الكلام ، واشادبالصداقة والصديق ، وبحث عن اسبابها الفطرية والاجتماعية ، ـــ على ما نحو ماسنرى في

---

(١) كذافي الاصل. ولعل (بي) زائدة (٢) ص ٧ (٣) ص٧ـ٨
(٤) لعلها طرد

بحث مستقل — وحشد في كتابه اكثر ماقيل الى زمانه من رائع الشعر والنثر في وصف الصداقة والصديق ، وتحليل بواعثها وعواملها ؟

ام ان أبا حيان كان كثير الحنين الى ماافتقد طول حياته ، من عطف الاصدقاء ، وبر الأحباء ، فكان كتابه هذا صورة لما اشتهى ولم يحقق ، وتعلة عما رجا ولم يدرك ؟

ام انه كان مؤمنا في دخيلة نفسه بالصداقة والصديق ، وما كانت هذه المقدمات الا براعة كاتب ، وبلاغة اديب ، وروعة فنان ، اراد ان يغتصب انتباه قرائه ، وأن ينتزع اعجابهم ؟

ام انه كان انسانا من الناس ، نعم مرة بالصداقة فمجدها ، وتلظى بالغدر مرة أو مرات فكفر بها ؟

ام ان مجموع هذه العوامل ، هي التي أدت الى تأليف الكتاب ، ونظمه على هذا النحو الفريد ؟

ومهما يكن من امر ، فان أباحيان قد وضع كتابه هذا ، وهو متمكن من موضوعه ، محيط بشرائده وفرائده ، لم يغادر منردما الاوقد أتى على مافيه .

فاذا ماأخذ التوحيدي في خوض موضوعه ، على الاسلوب الذي رسمه لنفسه ، بدأه بما ينسجم مع تشاؤمه ، ولم يحد عن الخطة التي انتهجها لاغتصاب انتباه قارئه ، وانتزاع اعجابه ، فقال (١) :

«فأما الذي قال في أصدقائه وجلسائه الخير ،وأثنى عليهم الجميل ، ووصف جده بهم ، ودل على محبته لهم ، فغريب !

ان هذا «الغريب» قد ملأ كتاب أبي حيان ، وطغى عليه ، وفي سبيل الدعوة له وتمجيده نظم درر كتابه ، فكانت عقدا فريدا في جيد الآداب العربية، تتزين به على الازمان .

---

(١) ص ٨

ولعل هذا « القريب » قد أضحى « نسيبا » بعد ان فرغ التوحيدي من كتابه ، فذلل فيه الصعاب ، وكشف سجوف الظلام ، وأزاح وساوس الاوهام فقرب المتباعد ، ووحد المتنافر ، وأدنى العدو فاذا هو ولي حميم ، ورد المنحرف الى الصراط المستقيم .

واذا كنا قد لاحظنا في مطلع هذا الفصل ان التوحيدي قد أسرف في التعبير عن المداوة فحشر لها اثني عشر لفظاً ، واقتصد في التعبير عن الصداقة فلم يمنحها الا ستة ألفاظ ، فلا كذلك الكتاب ، فان معظمه في الصداقة ، واقله في المداوة .

فما الذي دعا التوحيدي الى سلوك هذا المنهج ؟

الذي نرجحه ولا نجزم به — فما درى الحقيقة الا التوحيدي وحده ، ولعله هو نفسه ايضاً جاهل لها — انه قد استجاب الى الفطرة ، فلم يكن في وسعه ان يشذ عن الدعوة الى السلامة ، والاخذ بأسباب الخير ، والاشادة بالمحبة . أو أنه كان منساقا الى ارضاء رغبات الناس ، وترجمة أفكارهم ، والمضي في تيارهم ، بدافع باطني من اللاشعور . فما عرف أن الناس ، في أى مجتمع ، يرتاحون الى نشر البغضاء ، وتحسين الشحناء ، واقامة العلاقات فيما بينهم على اسس من المداوة . أو أنه أحب ان يكفر عن كرهه للناس ، وكرههم له ، فنسج من قلمه وقرطاسه دعاء يحط عنه ماوقر في نفسه ، ويستل السخائم التي في صدره !

وبعد ، فان التوحيدي لم يكن ، في مجمل كتابه ، داعية فرقة وخلاف ، بل كان داعية مودة وائتلاف. ولعل كتابه هذا من خير ما أنتجت قرائح أسلافنا من العرب في الدعوة الى حياة اجتماعية صالحة ، المحبة لحمتها ، والصداقة سداها.

المجتمع العربي

للدكتور أحمد شوكت الشطي

المجتمع - المجتمع كلمة تعني جموعاً من النــاس انصهرت آمالهم النبيلة وامانيهم السامية واعمالهم الفردية والجماعية في رحى الهدف المشترك والمثل العليا وكانت لغتهم في اغلب الاحيان واحدة (١).

المجتمع العربي - تميز المجتمع العربي عن غيره من المجتمعات في سابق الزمان بانه مجتمع اتصف اناسه بمزايا انسانية اتى على ذكرها الحارث بن كلدة الثقفي في معرض حديثه مع كسرى انوشروان حين طلب منه ان يعرفه بصفات العرب.

قال كسرى : فما الذي تحمد من اخلاقها - اخلاق العرب - ويعجبك من مذاهبها وسجاياها ؟ اجاب الحارث: ايها الملك انفس سخية وقلوب جرية لغة فصيحة وانساب صحيحة ، واحساب شريفة ، لايرام عزهم ، ولايضام جارهم ، ولايستباح حريمهم ولا يذل كريمهم ، مطعموا الطعام في الجدب، يمرق من افواههم

(١) يشذ عن ذلك عدد قليل من الشعوب بينهم الشعب السويسري .

الـكلام اعذب من هواء الربيع . فاستوى كسرى جالسا وخاطب الحارث بقوله : لله درك من عربي ، لقد اعطيت علماً ، وفطنة وفهما وكذا العاقل من احكمته التجارب .

نقلنا هذا الحديث لنبين مايتحلى به العربي من صفات انسانية اعدته للمكرمات .

انبت هذا المجتمع اناساً ركزوا دعائم العروبة فمكنوا العرب من الانطلاق في ميادين التقدم العلمي والنزعات الانسانية الكريمة انطلاقا لم يشهد التاريخ مثيلاً له ولحصيلته العالمية .

كان العرب اسبق النـــاس الى السير بالقوميـــات باتجاه انساني

لمـا يصل اليه تقدم العـــالم الحديث فقد جعلوا القومية وعياً يشمل الافراد والجماعات التي يرتبط بعضها ببعض بوحدة الارض واللغة والمثل العليا والاهداف ، وبتشابه العادات ، وتقارب الميول والغايات دون ان يكون الناس فيها من اصل واحد او لون واحد .

جاء في كتب السيرة ان رجلاً من الاعراب انكر على سلمان الفارسي وصهيب الرومي ، وبلال الحبشي ، ان يكونوا عرباً ، فرده الرسول في المسجد قائلا : يأيها النـــاس : ان الرب واحد وليست العربية باحدكم من أب ولا أم ، وانما هي اللسان ، فن تكلم بالعربية فهو عربي وهكذا : اطلق الرسول الكريم تعبير العربي من نطاقه الضيق الاناني واعني به من كان في اصله ابن الجزيرة العربية ، الى معنى واسع انساني فجعل هذا التعبير دالاً على عالم كبير : تأثر بالذوق العربي وباخلاق العرب واخلص لمبادىء العروبة بقوله وعمله واعتبر اللغة العربية لغتـــه الاصيلة ، ولقد جاء في اقوال الجاحظ مايؤيد ذلك الاتجاه منها ما ذكره :

ان الاستواء في التربية واللغة والشمائل والهمة والأنفة والحمية وفي الاخلاق والسجية يقوم مقام الولادة والارحام الماسة » وهكذا فان الجـاحظ ربط الفكرة القومية بعوامل عديدة منها عامل اللغة كما كان الرسول الكريم من قبله وكما قال بذلك علماء الاجتماع والقوميات في العصور الحديثـــة ومن بينهم هردر (١) وفيخته (٢) وموريس (٣) وماكس نورد (٤) وكثيرممن عالجوا هذا الموضوع .

هذا واننا نرى ان هذا الرأي السديد ، الذي بشر العرب به وتقدوه منذ أمـــد بعيد ،

---

(١) Herder

(٢) Fichté

(٣) E. Moris

(٤) Max Nord

وحري بنا ان نتمسك به وندعمه لانه يسد ابواباً يسعى المستعمرون النفوذ من خلالها ليقولوا اننا لسنا امة واحدة بل مجموعة من الأمم ، محاولين بذلك بث التفرقة بيننا والحيلولة دون الفتنا .

لقد اقر العالم اليوم هذه الفكرة الانسانية ولكنه لم يستطع تنفيذها في كل مكان ولا ادل على ذلك مما نسمعه بين حين وآخر عن مآسي التمييز العنصري في العرق والالوان في بعض الدول والبلدان .

العرب وجهودهم العلمي : كان العرب عبر التاريخ متفرقين مزقتهم روح قبلية ، اعمى بصيرة اكثر زعمائها فكرة انانية فشا الجهل في معظم افرادها ، فساء تعاملها ، وبعدعن العقل اتجاهها وتوجيهها ولكن مالبث ان نبغ فيالعرب رجال اصفياء وحدوا العرب ونفخوا فيهم روحاً جديدة تحكم العقل وتعلي شأن العلم .

لقد اعتمد الرسول العربي في رسالته على العقل والعلم فانشأ جماعة تعلي شأنهما وجيلاً عربياً قوياً في جسمه وعقله متعطشاً للعلم المقرون بالعمل ، جيلاً تحلى بالعزة وعلو النفس والاباء والجرأة والصراحة ، جيلاً فتح القلوب واثار البصائر والعقول ، استطاع هذا الجيل بما ولد فيه من ظمأ للعلم ارواء غليله منه فجمع في اقل من قرن علوم سبعة من العلماء الاولين ثم زاد عليهم ونقلها الى الناس اجمعين ، وقد اشار الى ذلك الاستاذ العلامة قسطنطين زريق رئيس الجامعة السورية الاسبق في المحاضرة التي القاها بالانكليزية في مؤتمر البولتكنوا بقوله : والحقيقة الناصعة هي ان الحكم العربي والتصرف العربي والعلوم العربية والخلق العربي ، جميع هذه المظاهر كانت مرتبطة ارتباطاً وثيقاً برسالة الرسول العربي ، وكانت جميع هذه المظاهر تقدمية ، خلاقة منسجمة مع سير الروح العربية نحو مثل من الحياة أسمى وأشرف ، وقد كانت هذه المثل ، بعد موت الرسول قوة حية تولدت منها حيوية الحضارة وقوة الابداع في الامبراطورية العربية على أشدها .

ولقد استطاع العرب بعد ذلك مطاردة جيوش الاوهام والاساطير فحرروا الانسان من تبعية الانسان الا بما يقبله العقل ويقره العلم ، انهم رأوا في العلم ما يحفظ الكيان ، فشجعوا على طلبه من المهد الى اللحد وهيئوا الوسائل لنشوء أمة فتية فكانوا بذلك واضعي الحجر الاساسي لمجتمع عربي وقومية عربية استوطنت اجمل مقاطعات العالم المتمدن في ذلك الحين،وهكذا اضرموا ثورات في ثورة مفسحين بها مجالا كبيرا للعقل والعقلاء والفكر والمفكرين والبصيرة والمتبصرين وأفقاً غير محدود للعلم والعلماء .

يقول ، في صدد العقل واستنارة العرب في علومهم بوحيه ادلاربات (١) مخاطباً ابن اخ له درس في جامعات فرنسة ومتفاخراً عليه : **انني والعقـل رائدي تعلمت الشيء الكثير والعلم الغزير من اساتذتي العرب بينـما انت بهوت عينيك المظاهر فقيدت رأسك بعنان ، لقد اعطى الله الناس العقل ليميزوا به الحق من الباطل فكان له الاثر الكبير في العلم العربي .**

استطاع العرب في سنوات معدودات ان يصبحوا اسياد العلم في العالم فقالوا بآراء اخذ علماء اليوم يقولون بما يحاكيها واخذت الامم تفاخر بعضها بعضاً باولوية القول بها ، فهاهي علوم الوراثة وتحسين الولد واصلاح النسل التي يظن انها علوم حديثة كان للعرب فيهـا باع طويل كما كانت لهم تجارب تقترب من تجارب مندل (٢) ، لقد عرفوا التهجين فكانت منه إبلهم العربية ، واني لارجو ممن يشك في قولي ان يرجع الى بحث التنـاج المركب في كتاب الحيوان للجاحظ ليقتنع بما اقول .

كان علمـاء العرب اول من عرف الدوران الصغرى والعروق الشعرية ، ولقد اكتشف ابن نفيس الدمشقي الدورة الدموية الصغرى ونقلها عنه هارفي الانكليزي وعزاها لنفسه ، وعمل سرفيتوس الايطالي ما عمله زميله الانكليزي في سرقة آراء ابن نفيس وانتحالها لنفسه ، حتى ان مايرهوف (٣) العالم المعاصر قال في هذا الصدد ان ما اذهلني هو مشابهة لا بل مماثلة بعض الجمل الاساسية في اقوال سرفيتوس لاقوال ابن نفيس كأنها ترجمة حرفية ، ويدعم هذا الرأي الدوميالي (٤) العالم المعاصر وكذلك ليون بينه (٥) عميد كلية الطب في باريز وزميله في بحث هذا الموضوع الاستاذ هربين (٦) .

اما خبرة العرب في الكيمياء فكانت واسعة جدا حملت باكون الفيلسوف الانكليزي أن ينعت جابراً العربي المشتغل بالكيمياء بأنه معلم العالم ، اما في الفيزياء فكان الكندي وكان ابن الهيثم من البصرة : قال بالسد العالي ولكن الجرأة خانته حين مباشرته العمل .

---

(١) Edlard Bath أديب انجليزي من أدباء القرن الثـاني عشر تثقف على أيدي علماء العرب في الاندلس والشام .

(٢) Mendel

(٣) Mayerhoff

(٤) Aldo Mielli

(٥) Léon Binet

(٦) Herpine

اما في الطب فقد كان اطباء العرب سريريين مجربين اعتمدوا على الفحوص المخبرية ويحلولي في هذه المناسبة ان اذكر قول احد الشعراء في ثابت بن قرة وفي فحصه البول :

مثلت له قارورتي فرأى بهـــا ما اكتن بين جوانحي وشغافي
يبدو له الداء الخفي كما بـــدا للعين رقراق الغدير الصـــافي

واما في الامراض فقد قالوا بسرايتها ، بينما كان يعتقد الغرب انها من عمل الشيطان ولقد حذر من عدوى السل حتى ادباء العرب بينما ظل الغرب يعتقد بأنه مرض بنيوي حتى القرن التاسع عشر ، يقول الشاعر العربي قبل اربعة عشر قرنا :

هو السل او داء الهيام اصابني فاياك عني لايكن بــك مابي

وعرف العرب التطعيم ضد الجدري ، تعلموه من الصين عملا بالحديث الشريف « اطلب العلم ولو بالصين » وكان الغناء من وسائل العرب في المداواة . ويبدو ان التراتيم ترتد في نشأتها الى محاولة تسكين آلام المؤرقين النفسية باقوالها الرائعة يؤدنها صوت جميل .

وكان لهم في ميدان علم النفس خبرة واسعة ويجوز اعتبار بعض آراء ابن القيم وابن حزم وفرويد في الحب والبغض متماثلة ، كما ان في تفسير الاحلام لابن سيرين ما يحاكي آراء فرويد الحديثة . اما في الجراحة فكان العرب اول من عرف الخياطة باوتار العود — الكاتكوت في يومنا — وكان مؤلف مروان بن زهر كتاب التدريس في مدرسة باريز الطبيـة وكان العرب ايضا اول من عالج حصى المثانة باخراجها او تفتيتها كما عرفوا التخدير فجعلوا الاسفنج سواغه ، وكان الجراح ابو القاسم الزهراوي اول من اشار باستئصال الرضفة في كسرها وذلك قبل ان يقرر هذا الامر علماء اليوم بتسعة قرون . اما امجادهم الفكرية في ميادين الرياضيات والفلك ففيها مايبعث على حفز الهمم للاتيان بمثلها وما يصح الائتمام بها والمفاخرة باصحابها .

يقول كاجوري ان العقل ليدهش عندما يرى ماعمله العرب في الجبر ، وقد طبق العرب الهندسة على المنطق ، ولولا العرب لما كان علم المثلثات وقد خطوا بعلم الفلك خطى تقدمية ،ويرى بعضهم ان هنالك تشابها بين نظرية اينشتاين في الجاذبية وآراء الفارابي فيهـا ، وقد تنبأ الفارابي بالتراحم على الفضاء والسموات وذلك بقوله :

محيط السموات اولى بنـا فلم ذا التراحم في المركز

هذا وكأني ببعض القراء يتساءل عن سبب اتياني بشهادات علماء الغرب في علم العرب وفي قدرتهم الكامنة وطاقاتهم الهائلة ، والجواب عن ذلك هو ان شهاداتهم تبعد عني مجال اتهامي بالمبالغة في القول ، والواقع ان المدة التي قضاها العرب في التقاط العلوم وبلوغهم ذروته في زمانهم هي من القصر الشديد ماحير المفكرين الباحثين .على ان اسبابهـا ترتد في نظري الى ذكاء العربي

وما جبل عليه من حب للاستطلاع وما شجع عليه بآيات القرآن الكريم والاحاديث الشريفة من طلب للعلم مهما عز المنال .

ومما لاشك فيه ان عددا كبيرا من قراء هذا المقال يحدس في سره : أما كفانا البحث عن الامجاد الماضية وما لنا والزمن الغابر ، وعلينا بالمستقبل والحاضر !

وجوابي على ذلك هو ان المستعمرين سعوا باساليب علمية الى إضعاف ايماننا بطاقاتنا الكامنة الهائلة لذلك كان لابد لنا من خلق الايمان في جيلنا ، ومن الثابت ان الامة التي تبغى مجدا عليها ان تخلق في الافراد روح الايمان بقابليتهم وقدرتهم على الابداع وان تنمي فيهم الشعور بالعزة القومية وذلك بالاهتمام بماضيها وربطه بحاضرها ومستقبلها وما غايتي من كلماتي هذه الا تمتين ايمان العرب بطاقاتهم .

وكأني ببعض الناس يقول : كلام محير ، ان بيننا وبين العالم هوة عميقة ، انه يبحث في الفضاء وما في النجوم وعوالمها ، وفي الشمس وطاقاتها ، بينما يحوطنا النقص من كل جانب ، الى هؤلاء انقل كلمات المعاصر هوكينغ التي ذكرها في كتابه (مبادىء السياسة العالمية) عند بحثه عن مستقبل الحضارة العربية ، لقد قال : ان الشغف العلمي الذي امتاز به العرب هو الجوع الباحث عن العلم وعما وراء الطبيعة التي تنتسب اليها كل الفلسفات ، هو الحضارة بعينها التي يتغذى منها هذا الجوع ويهضمها ويمثلها ، هو الصاوية المثمر بين مختلف الاتجاهات مع سعة العقل العربي وعشقه للحرية والمثل العليا وتحرره من التعصب والتزمت ، ثم يتابع قوله : ومما هو جدير بالذكر ان الشغف العلمي قوي في البلاد العربية اكثر مما هو في الغرب وامريكا نفسها ، انه واجب ديني في نظرهم ، واخيرا يختم كلامه بقوله : وسوف نرى عندما تزول اللفحة المحرقة التي اصابت العرب وخدرت نفوسهم ، ان بقية العناصر كالثروة والشجاعة الفكرية والحرية الفكرية والشروع في العمل ، والبناء السليم الاجتماعي ستعود اليهم ، والدليل على قولي هو ماكان من انطلاقة العرب في ثورتهم الاولى وما تركوه للاجيال من تراث علمي شامل وآثار خالدة وهذا ما ازمعوا ان يفعلوه في عصرنا الحاضر .

مجهود العرب العلمي : لقد صدق هوكينغ في اقواله والواقع ان العرب استطاعوا في مدة قليلة من الزمن ان ينقلوا اليهم علوم الاولين والآخرين فحفظوها ولم يكتفوا بذلك بل زادوا عليها ولم يحتكروها بل نشروها في العالم المعروف آنذاك سواء في المناطق التي استقر فيها الصليبيون في الشرق اوفي صقلية او في كثير من جامعات المدن الاندلسية التي كان روادها

من كل عرق ولون ، اعاجم واعارب بينهم عدد كبير من رجال الدين وعلى رأسهم البابا سيلفستر الثاني المعروف بجربرت (١) .

عمل العرب الانساني : لقد كانت حركة العرب العلمية مما شية في سيرها لحركة انسانية لامثيل لها فعلموا الغرب نبل الفروسية ومعاني الرحمة والاحسان والعفو عند المقدرة والرأفة بالضعيف واحترام الامومة وتقديس الطفولة والاخذ بيد المستجير والانتصار للمظلوم كما قضوا على الخرافات القاتلة التي كانت تؤمن بها اكثر الشعوب فحرروا الانسان من الخضوع لها وانقذوا المجتمع الذي حلوا به من سخافتها وويلاتها ويطيب لي في هذا الصدد ان اقدم دليلا على ذلك مافعله عمرو بن العاص في إبطال العادة التي كانت متأصلة في مصر والتي تحتم القذف بعذراء في ريع العمر الى النيل لتموت فيه غرقاً فيدوم بذلك على زعمهم ، وفاؤه ولا ينقطع او يقل ماؤه .

ذكر عبد الرحمن بن عبد الله بن الحكم انه لما فتح العرب مصر اتى اهلها الى عمرو بن العاص حين دخل شهر بونه (٢) فقالوا ايها الامير ان لنيلنا هذا سنة لايجري الا بها وهو انه اذا كان اثنا عشر من هذا الشهر عمدنا الى جارية بكر وزيناها بافضل الزينة والقيناها فيه فقال عمرو بن العاص : هذا محال فاقاموا شهرين والنيل لايزيد لاقليلا ولا كثيرا فراجع اهل مصر عمرو بن العاص صاخبين ، مطالبين بزف فتاة عذراء الى النيل فلما رأى عمرو اصرارهم كتب الى عمر بن الخطاب يخبره بما فعل ويستشيره بما يجب عليه ان يفعل فكتب عمر بن الخطاب اليه مستصوبا رأيه وطالبه بان يلقي برقعة كتبها الى النيل يقول فيها :

من عبد الله عمر امير المؤمنين الى نيل مصر : اما بعد فان كان الله الواحد القهار يجريك فنسأل الله ان يجريك . وهكذا افتدى عمر بن الخطاب عروس النيل السنوية العذراء بورقة القيت في النيل وابطل تلك الخرافة الوحشية القتالة .

وهنا يحق للباحث في نظري ان يتساءل لم تأخر المجتمع العربي ولم اصبح حاله كما هو معلوم اليوم وما هي طرق النهوض به ، والجواب عن ذلك هو ان شيطان التفرقة المدمرة فرقرنه بين العرب منذ فجر نهضتهم فتفرقوا شيعا واحزابا ، تحمل كل فئة نحو منافستها حقدا دفينا وبغضا عميقا فاضاعوا الكثير من طاقاتهم في محاولة القضاء بعضهم على بعض ومع ذلك استطاع كل من مجتمعاتهم ان يسمو ويعلو ، اذ كانت الانطلاقة التي بعثها رجال العرب الاول من القوة والعظمة

---

(١) Sylvester II Gerbert

(٢) أحد الاشهر القبطية

والروعة مالم تستطع التفرقة ان توقفها اوتعرقل سيرها مدة من الزمن ثم خفت قوة تلك الانطلاقة فنام العرب في سبات عميق وامد الغرب مسببات سباتهم بما يديه ، ودواعي تفرقتهم بما يؤجج نارها ويذكي لهيبها فحل الجهل محل العلم واحتلت الخلفة مكان الالفة حتى ظن الناس ان العرب عادوا امة خلت واصبحت في خبر كان .

والواقع ان ماتعرضت له البلاد العربية والعرب إبان سيطرة المستعمرين والمستغلين عليهم وعليها كانت كافية لتحويل العرب عن امانيهم ولغتهم ، وجعلها لغة لايتحدث عنها سوى التاريخ كما يتحدث عن لغة الآشوريين وغيرهم فيحققون بذلك هدفهم القديم الا وهو التخلص من اى امكانية تعيد للعرب سيرتهم الرائعة البديعة ووثبتهم الماضية الرائعة .

ولكنهم كانوا ومازالوا عالمين ان العروبة لاتمحى من الوجود ، فالقرآن حاميها وما يدعو اليه من تفتيح العقول والتشجيع على كسب العلوم وضم الشمل ونبذ التفرقة حارسها ، وتأبى المعجزة الا ان تثبت صلاحها لكل زمان ومكان فهاهو الكتاب الحكيم المعجز ، المخلد بين الجنان واللسان ، يهيب بعرب الجزائر فيقاتلون من اجل العودة الى الحظيرة العربية والعروبة ، ولاشك انهم منتقلون من نصر الى نصر حتى يحقق الله امانيهم وامالي العرب فيهم .

لقد استيقظ الفكر العربي فوثب في شتى الميادين وثبات ، سوف تعوض عما فات ، وتبشر بمستقبل زاهر آت ، واذا استطاع العرب في وثبتهم الاولى الظفر بعلوم الاولين والآخرين في مئة عام فهم قادرون حتى توفرت لهم جميع شروط النهوض ان يسبقوا الزمن وينقلوا اليهم العلوم الحديثة في اقل من مئة عام ، تاركين في حضارتهم كما فعلوا في غابرهم ، فالتاريخ يعيد نفسه والادلة على ذلك كثيرة والشواهد العديدة متوفرة .

وانه ليطيب لي ان اختم كلامي مبيناً انه ليس حديثاً اوحته الآمال ولا مداعبة الخيال ، انه حديث مستند الى آراء معاصرين غربيين عرفوا العرب وسجاياهم ، درسوا قوام بقائهم وامكانية وثبتهم ، جربوا القضاء عليهم ففشلوا وعاد املهم مركزا في تفريق كلمتهم لان في هذه التفرقة إمكان تأخير وثبتهم العلمية ونهضتهم العالمية .

يقول في هذا الصدد البرشامدور : عاش العربي في فجر التاريخ ، في تلك الارض القاحلة تلهب الشمس ذرات رمالها ، عاش في تلك الصحراء يحتمل التعب والجوع والعطش والعزلة فاتخذ النجوم دليلا له والعلوم مرشداً وسبيلا ، ان هذا العربي الذكي الشجاع قد ترك لنا حيث حل آثار علمه وفنه ، آثار مجده وفخاره ، ان هذا العربي الذي نام نوماً عميقاً مئات السنين قد استيقظ واخذ ينادي العالم : ها انا ذا لم امت ، اني أعود الى الحياة ، لا لأكون آلة طيعة او كتلا من البشر تسيرها العواصم الكبرى ووسائلها الجهنمية ، بل لاحيا حياة مستقلة مناضلة ، ثم يقول : من يدرى ! ؟ قد يعود اليوم الذي تصبح فيه بلاد الفرنج مهددة بالعرب ، فيهبطون من السماء

لتزو العالم مرة ثانية في الوقت المناسب والزمن الموقوت ، ثم يقول : لست ادعي النبوءة ، ولكن الامارات الدالة على هذه الاحتمالات كثيرة لاتقوى الذرة ولا الصواريخ على وقف تيارها.

ويجدر بي ان اعلق على قول الاديب المذكور بان اعمال المستعمرين كانت محاولات لقتل الروح العربية ولكنهم غير بالغي اهدافهم والنصر للعرب شاء المستعمرون ام ابوا ... انهم بذلك تنبأوا وحقاً ما تنبؤوا به وبذلك آمنا وحقاً ما آمنا به .

أخي القارئ : لقد جمعت في كلماتي هذه اقوال معاصرين واقوال مغابرين لأوجد الايمان في جيلنا الحاضر ، اجل : ان في سيرة اجدادنا العظماء مايوحي الثقة الى الجيل الجديد بقدرته على المساهمة ببناء امة عظيمة ، قوية تدعم بعلمها وعملها ، بمكانتها ومكانتها بقوتها وثباتها السلام في هذا العالم وان وثبتها الحاضرة سوف تكون مذهلة كما كانت وثبتها الغابرة .

لقد اجمع الباحثون فينا ،وما اكثرهم ، ولكنني اخص بالذكر منهم دهاقنة التاريخ والسياسة والاستشراق من طراز غوستاف لوبون وولز وترند وليبنستانلي بول ودوزي على ان العرب لواستطاعوا ان يجدوا الاسلوب الصالح الموحد لكيانهم لكانت جامعة باريس ولندن واكسفورد، لابل جامعات الدنيا جميعها في خدمة العرب والعروبة ، ولكن روح التفرقة التي سيطرت على العرب في عصرهم الذهبي ومنذ فجر نهضتهم الحديثة تحز في نفوسهم على تفرقهم شر ممزق وانني لأؤيد اقوال هؤلاء الاعلام وارجو من الله ان يكون في جمعنا المبارك بدء البناء لرتق الخرق الهائل الذي رآه فينا هؤلاء الافذاذ من رجال الفكر والبحث ، وفق الله زعماء العرب الى السير بهم في الطريق التي تصبو الى سلوكها شعوبهم ، تلك الطريق المؤدية الى مباشرة النهوض نهوضاً يستمد وحيه من امكانيات العرب ، وقد صدق من قال فينا ليس على وجه الارض امة لها من الامكانيات مالللامة العربية متى تصافت قلوب ابنائها واتفقت غاياتهم وعلينا ان نعمل لمثل هذااليوم وان نعتبر بمآسي الماضيين البعيد والقريب تلك المآسي المفجعة التي اطاحت بالعروبة في الاندلس وفي فلسطين وغيرهما من البلاد التي انتشر فيها لواء العروبة وكان سبب الاطاحة بها تفرق الكلمة وتشتت الشمل ، تلك المآسي التي جعلت كثيراً من المؤلفين يشمتون بنا نحن العرب فيقولون عنا: ان امة تسقط صرعى التفرقة في مجتمعها لايثير مصرعها الرثاء ولا العطف عليها ، فعلى كل مواطن ملكا كان او رئيساً ، زعيما كان او ولياً ، معلماً مثقفاً كان او أمياً ان يتذكر هذا القول الذي يصدع القلب ويحز النفس وان يعمل جهد طاقته الى ما فيه ضم الشمل وجمع الكلمة وتوحيد الجهود والاهداف وان يؤمن ايماناً عميقاً بان يوم الوحدة العربية الكبرى آت لاريب فيه ، ترنو اليه بصائرنا وجوارحنا ، لانه شاغل لبنا وافئدتنا ، لانه السبيل الى انقاذنا وسائر بلادالعرب بما فيها فلسطين قلب العروبة الحزين .

عندما يمرض الأطباء

للدكتور صبري القباني

كنت كتلة من نشاط .. وكنت اتوهم ان ما يمور في عروقي من اوقيانوس ، لا ينضب له معين . فأطلقت نفسي من كل عقال ، واندفعت استهلك كل ما أملك من احتياطي .. ومرت علي شهور عديدة كنت أعمل خلالها في الحقل السياسي ، وأزود الصحف اليومية والاسبوعية بالمقالات ، والقي المحاضرات على طلابي في جامعة دمشق ، والاحاديث من الاذاعة ، وأؤلف كتباً كنت أراها ضرورية لتعليم الناس أبجدية العناية الطبية ..

وفي ذات يوم .. وقعت فريسة المرض ، طريح الفراش ، فلم استطع مزاولة عملي ، وتناوب الزملاء عيادتي ، وأقروا أن خللاً اصاب المحرك الذي لم أرحمه . وفرضت علي الراحة شهرين كاملين .

واتخذت زوجي لنفسها صفة الدرع ، كان الهاتف لا يكف عن الرنين ، اصدقاء يستفسرون ، مرضى اعتادوا استشارتي كلما ألم بهم مرض ..وزوجي تجيب عن التمنيات بتمنيات، وتقدم الاعذار وتضابح [1] بكرة وعشيا .

(١) ضابح : جادل .. كافح .

ولكن سيدة من مريضاتي أبت أن تصدق أن الطبيب الذي كان ملء السمع والبصر والخاطر ، يصبح لاحول له ولا قوة طريح الفراش تحت رحمة الاطباء ، لايستطيع مد يد العون الى انسان .. والحت على سماع صوتي في الهاتف. وجاءني صوتها مرحاً طروباً وهي تقول : نحن في حاجة اليك يا حكيم . عرفناك ، زوجي وأنا منذ القديم . ورأى اطفالي النور بين يديك فكيف تتركنا الآن من غير اخطار ولا استئذان .

وغلبني الضحك ، قلت : ماحيلتي ياسيدتي ، لقد انشب المرض في صدري الانياب ، ومنعني من ان اكون قادراً على اسعاف مرضاي واصدقائي . قالت : **وهل يمرض الطبيب ؟** أنا لا أزال غير مصدقة ، لاتغضب ولكني لا استطيع استشارة غيرك..والمريض بحاجة الى الثقة بطبيبه قبل حاجته الى علاجاته وعقاقيره.

ولم تلبث ان أقبلت علي في داري يصحبها زوجها ، ورنين الضحكات ممطر مثل الازهار التي حملتها « للطبيب المريض » ضحكات اشاعت الحبور والانس في الغرفة الكئيبة ذات القوارير ورائحة الادوية المرموقة الكريهة .

كانت لاتزال على دهشتها ، قالت : أنا استغرب ان يتعرض للمرض طبيب اعلم باصول الوقاية ، وادرى بطرق العلاج من اولئك الذين يزجي اليهم النصح والارشاد . قلت : يمر الطبيب أحياناً بمرحلة يتكلم خلالها بوحي من عقله ، ويتصرف بوحي من طبيعته وعاطفته وغريزته ، فهو يجزم بالعلم ويحزم ، ويأخذ مريضه بالشدة والنظام ، فاذا استراح من صداره الابيض ، ونزع السماعة عن أذنيه عاد انساناً كباقي الناس ، يشتهي ما يشتهون ويقع فيما يقعون ، ويحتاج احياناً الى لون من النظام والشدة يؤخذ بها كما يؤخذون .

والطبيب بشر مثلكم يخطىء بحق نفسه ويزل ، قد يشبع من الاكلة الفاخرة ولكنه عن المائدة لاينهض ، وينهى الناس عن التدخين بينما لاتفارق اللفافة شفتيه،

ويسهر ويقسر نفسه على تناسي الاسفار التي غطس بين سطورها سنين طويلة هي الزهرة من العمر ، والصفوة من الحياة .

وحدثتها عن واجب الطبيب في ان يهب الى اغاثة الملهوف حتى في موهن من الليل ، وصقيع من الطقس ، فينتزع نفسه من الفراش الدافيء ، ويقذف بها في المطر والبرد والريح ، هذا كله ، شـــاءت الوقاية ام أبت ، مجانب لأصول الصحة ، مضعف من مقاومة الجسم ومناعته الطبية .

* * *

لمــاذا يمرض الطبيب ؟

اثبتت الاحصاءات العالمية ان متوسط عمر الطبيب ادنى من متوسط اعمار اصحاب المهن الحرة الاخرى كافة ، مثل المحامي والمهندس والمدرس ، وأنه اكثر الناس تعرضاً للاصابة بالاحتشاءات القلبية (الجلطة الدموية وانسداد شرايين القلب) لأنه بشر يتألم لما يؤلم الناس، ويحيا بخطر **مرضاه واوجاعهم واضطرابهم ،** وتظل اعصابه الودية في توفز دائم .. ومع ذلك فمن اولى واجباته ان يحتفظ بهدوء اعصابه وتفاؤله الذي ينقله ، حتماً ، الى مريضه ومن يحيط به من أهل واقرباء . والطبيب معرض للعدوى بحكم عمله اليومي واحتكاكه بالمرضى، وانتقال الجراثيم اليه . وقد تنفع الوقاية ، ولكن مهما يحط الطبيب نفسه بالمعقمات فهو في حرب دائمة مع عوامل الامراض ومسبباتها ، ناهيك بأن الطبيب مستنفر طوال الاربع والعشرين ســـاعة . انه جندي مجهول في معركة لا تكلل هامات المنتصرين فيها أكاليل ، ولا يوضع لها نصب ، الا حمرة الصحة والعافية تورد خد المريض ... وانها لأكليل رائع حبيب لقلب الطبيب ، اثير لديه ، منعش لروحه ، رافع من معنوياته ، مثل كل نصر .

ولا يخلو مرض الطبيب من بعض الطرافة، انه يضيع في «بيداء التشخيص» وتتداعى الى ذاكرته الاسفار الثقال التي غاص فيها عمره اكثره، والاعراض التي مر بها مرضاه، تلك التي تشبه من قريب او بعيد مايشعر به ... ويروح فكره يقفز من هذا المرض الى ذاك، ومن هذه العلة الى تلك، مجاهداً لتكوين فكرة محدودة معقولة عن مرضه، ولابد لهذه الحشود من المعـــارف من ان تتصادم وتتزاحم وتتراكب بعضها فوق بعض، واذا الصداع البسيط يستطيل ويتطاول حتى يصبح التهاباً في السحايا الدماغية، أو من يدري، فقد يكون مقدمة لأنتان حموي عويص، أو نذيراً بتمركز أورام سرطانيـــة في الدماغ. واذا طبيبنا المريض — ومن العلم ماقتل — يشبه من يفتش عن القلم، الذي يقبض عليه، تحت الموائد وفي كل زاوية من زوايا البيت، وجيوبه، ويذهل عن يده.

وقد يلجأ الى الكتب المفصلة، والموسوعات يستفتيها ويستنطقها، واذا هو يزداد ضياعاً، ويمعن في الضلال ويغدو فريسة للايحاء السلبي، فتمر امام عينيه الحوادث الفجعة والنهايات المروعة. وبدهي ان الكتب لاتصف الا العلاج العادي المتداول، ولكنها لاتذكر ان خير علاج هو الثقة وابعاد الوهم لدعم المقاومة ... المقاومة الطبيعية التي خلقها الله لنا لنحمي نوعنا، والتي لولاها لانقرضت البشرية منذ بدايتها.

هذ البدهيات التي يعرفها حتى طـــلاب الطب تهرب من فكرة الطبيب المريض كأنما بسحر ساحر. وقد يكون السبب في ان المراقبة الداخلية صعبة شائكة انت بها الخصم والحكم، الطبيب والمريض، ومن هنـا دأب الاطباء على الاستعانة بزملائهم فيما يصيبهم — وذويهم — من امراض.

ولكن معالجة الطبيب المريض ليست هينة : انك تستدعي لعيادة مريض

بالتيفوئيد مثلا ، فتذهب وانت واثق من انك ستشخص وتصف الدواء فتلقى اذنا صاغية ، وطاعة مطلقة في تنفيذ وصاياك في الحمية والراحة . أهل المريض انفسهم يكونون عوناً لك في تطبيق تعليماتك .

واما اذا كان مريضك طبيباً فانت في طامـــة كبرى . انه يماريك في التشخيص ، ويماحكك في العلة ، ويجادل في الدواء ، ويخالف في المقدار ، لماذا لايكون كذا عوضاً عن كذا ؟ اذا لم تزد الكمية الا يخشى من حدوث نزف ، تثقب ، التهاب البريتوان .. الخ ..

واغلب الظن ان الطبيب يغلب عليه الوهم وان تظاهر بعدم المبالاة ، يخطر له انه سيغيب عن الوعي فلا يصحو من بعد ابدا . وتمر بذاكرته حادثة يتيمة من الحوادث التي تقع كل جيل مرة واحدة فتجعله يمتنع عن قبول التخدير ، الم يمت فلاناً سنة الفـوتسعمائة وكذا... على اثر التخدير ؟ قدا كون انا الضحية الثانية...

وهذه الخشية قديمة ، على ما يبدو ، فقد روي عن الطبيب العربي الاشهر ، الرازي ، انه لما نزل الماء على عينيه (أي اصيب « بالساد » فعمي)قيل له ليتك تقدح (يعني : ليتك تجري عملية قدح العين وازالة الجسم الزجاجي) ، رفض ، وعلل رفضه بقوله :**لقد ابصرت من الدنيا حتى مللت.** مع الاشارة الى انه كان فقيراً معدماً ، وفقدانه البصر سيقعده عن طلب الرزق ، ونحن نخال ان الخوف لا الملل من الدنيا هو الذي زجره .

مرض الطبيب خير للانسانية

المريض ، اي مريض ، أميل الى ان يكون مرهف الحس دقيق الملاحظة لايفوته طيف الابتسامة العابر على وجه عائد ، وتؤثر فيه الكلمة الرقيقة،والهمسة المشجعة ، وينصرف ذهنه الى امور قد تبدو للصحيح المعافى غير جديرة بالاهتمام

او التفكير ، وهو في حاجة الى الحنان والعطف والمواساة يستعين بها على تحمل المرض ومقاومة العلة .

فاذ مرض الطبيب عانى هذه اللواعج ، مثل بقية الناس ، ولكنه يخرج منها وقد ظفر بمادة جديدة وعلم جديد لا يستطيع اي كتاب طب ان يعلمه اياهما . « وليس راءٍ كمن سمعا » . ان معاناته التجريدية تهبه رأفـــة بالناس وتواشجاً مع جراحاتهم لايمكن ان يظفر بهما اذا ظل بعيداً عن هذه المعاناة .

والمهم في هذا الشأن ان يظل الطبيب محافظاً على حرارة تجاربه الاولى ، الا تفقده ممارسة المهنة دفء عواطفه ايام كان خريـــج كلية الطب، الفتى الذي فتح عيادة على استحياء . وبكلمة ان يظل للانسانية في قلبه حرمة وتعاطف وتواجد رغم تكرار رؤى المرض والوجع في حياته اليومية .

لا ازال اذكر حادثة وقعت لي وانا طبيب داخلي في مستشفى جامعة دمشق لا ازال اذكرها في حب وتشوق الى ذلك الفتى المريض روحاً وعاطفة الذي كنته .

ذلك اليوم لم يكن قد مضى على مباشرتي العمل أكثر من اسبوع . وجاءني الممرض مع الصباح ، يبلغني ، في لهجة عادية ، ان نزيل السرير رقم كذا قد توفي . لم يكن الممرض مضطرباً ، وكأنه كان يقول لي : طلعت الشمس ، واما أنا فقد هرعت الى المهجع عجلان ، مضطرباً ، وأذا « النزيل » مسجى بملاءة بيضاء قد اخفته عن اعين بقية المرضى . وحسرت الملاءة عن وجهه ووقفت خاشعاً ، غريق لجـــج من الفكر مزبدة مرعدة : هذا الراس الذي مخرته آلاف من سفن الفكر والعواطف هذا الفم الذي صلى ، وقبل وبكى .. هذا ... الى ان انتبهت على ضوضاء الخادم الذي كان يمسح ارض القاعة . ونظرت فيما حولي واذا المرضى قد علقت بي انظارهم وانسحبت خجلاً ، ومضيت الى حيث فتحت اضبارته وانكببت عليها ادرسها . لقد كان يشكو اليرقان الخبيث . رجعت الى الادوية التي اعطيت ، وعاودتني افكار ،

ملحة فظيعة هذه المرة : لو اننا حقناه بكذا ، لو استبدلنا هذا الدوء بهذا ... اما كان في وسعنا ان ننقذه ؟! اما كان يجدر بي ان اعرضه على الاستاذ ترابو واستشيره في العلاجات والحقن . وبقيت في هذا الخضم من الفكر والشكوك اياما حتى تبين لي ان المعالجة لم يكن عليها غبار ، فاستطعت ، عندئذ وحسب ، ان اخفف من غلوائي واحور الى بعض الهدوء والرضا .

هذه الحادثة لم تبرح ذاكرتي على الرغم من مضي ثلاثين سنة عليها. ولا ازال كلما غلبتني العادة وتسربت الى موضع الرقة والرأفة والحنان من قلبي استذكرها لعل دفء ذلك الفتى يعود الى قلب هذا الكهل .

سعادة الانسانية مدينة الى الاطباء

تاريخ الطب حافل بالشهداء الابرار الذين رفعوا اسم هذه الصنعة الى السماكين فالطبيب اندرو قدم نفسه ضحية للحمى الصفراء ليضيف الى ميراث الانسانية كشفا جديدا . لقد كان الاطباء آنئذ في شك من امر طريق العدوى بهذا المرض واراد ان يثبت لهم ان البعوضة اللعينة (الاستيغوما) هي الناقلة ، فعرض نفسه للسع بعوضة من بعوض الاختبار ، وهو يقول « ان مهمة الطبيب هي انقاذ الانسانية بصورة عملية اما الحديث عن البطولة والتشدق بها فهو من لغو الكلام وفضوله » لقد سار الى مصيره طائعاً مختاراً لينقذ آلاف البشر الذين كانوا يتساقطون موتى دون ان يستطيع الطبيب انقاذهم .

ولقد كان الدكتور رونيه لاينئغ مصابا بالسل الرئوي، ايام كان هذا الداء بلوى الانسانية التي لاشفاء منها ، وكان من الضروري ان يلوذ بالراحة والهدوء في مكان مشمس ، صافي الهواء ، حتى تتقوى مناعته وقدرة جسمه الطبيعية على مكافحة الجرثوم . ولكنه اختار لنفسه سبيل الشهادة . وعكف على دراسة الداء

في نفسه ، في جسده ، آثر ان يتتبع سير هذه العملية الفظيعة التي يقوم بها الجرثوم في نهش رئتيه يوماً فيوماً وتغيير اصوات الصدر ساعة فساعة ، وهو يكتب ويكتب ويصف مايلقاه في دقة تشريحية لامثيل لها ، لم تترك زيادة لمستزيد. ان كتاب لاينتع في مجلديه ، يعد فتحاً طبياً رائعاً في زمنه ، وقد قال هو عنه :

« انا اعلم اني غامرت بحياتي ، ولكن المؤلف الذي اعتزم نشره سيكون عاجلاً أو آجلا اهم من حياة انسان فرد مثلي » ولا يزال واحد من اهم مستشفيات باريس ، حتى الآن ، يحمل اسم الشهيد المخلّد .

وقصة الدكتور لازار لا تكاد تختلف عن قصة الدكتور — اندرو — : لقد سافر لازار مع بعثة « ريد » الى جزر الهند الغربية لتقصي اسباب الملاريا ومعرفة الطرق التي يسلكها الداء اذ ينتقل من مريض الى آخر . وجمع ريد رئيس البعثة رجاله وقال لهم : لو انتا عرضنا انفسنا للسع بعوض قد سبق له ان تغذى من دماء مصابين بالملاريا لاثبتنا مانفترضه من انتقال الداء عن طريق هذه الحشرة فقال الدكتور لازار مساعده : انا اتبرع لاستقبال لسع البعوض . وكانت له زوج وطفلان ، ودواء الملاريا لايزال في ضمير الغيب ، اضف الى ذلك قلة مناعة الاوروبي اذا هو قورن بسكان المناطق المرزغية . وقدم الدكتور لازار جسده للبعوض الفتاك فنفث سمه فيه ، واصيب الطبيب بالحمى وعكف زملاؤه ، اعضاء البعثة ، على زميلهم المصاب يسجلون تطور الداء والادوار التي يمر بها ، حتى قضى لازار شهيداً بعد بضعة ايام .

وهكذا أرى ان المرض — طوعاً أو كرها — في حياة الطبيب امر ضروري لرفاه الانسانية وسعادتها .

كان باستور العظيم يقول لتلامذته : سلوا انفسكم ، ماذا صنعتم لبلدكم الذي

درجتم على ثراه الطيب . فاذا جاء شتاء الشيخوخة فلعلكم ان تترشفوا الهناء في الاحساس الثمر اللذيذ بانكم اسهمتم ، مع المسهمين ، وعملتم مع العاملين بطريقة ما لتقدم الانسانية « في سبيل خيرها وسعادتها » .

اللهم اجعل حتى في مرضنا نحن الاطباء اسباب صحة وعافية للمرضى والمأووفين .



أكبر مكتبة في الغرب الاسلامي

للدكتور : خالد الصوفي

كان عبد الرحمن الناصر أول من تلقب بالخلافة من حكام بني أمية في الاندلس . فقد امتنع أسلافه عن ذلك لأسباب عديدة يذكرها المؤرخون العرب في كتبهم ويختلفون فيها . ولم يقدم عبد الرحمن الناصر نفسه على تلك الخطوة الا بعدمضي سبعة عشر عاماً على توليه امارة الاندلس ، وبعد أن رأى ان الظروف كلها أصبحت تسمح بذلك .

فقد قضى تلك الفترة الاولى من حكمه ببسط سلطانه على كل مناطق اسبانيا : يحارب الاعداء في الشمال وفي الجنوب ويقضي على الثورات الداخلية أنى ظهرت حتى تيسر له السيطرة التامة على انحاء مملكته الشاسعة ووصلت جيوشه الى حيث لم تصل جيوش أسلافه من قبل .

ثم تطلع فرأى ما وصلت اليه الخلافة العباسية من الضعف في ذلك الحين ورأى قوة الدعوة الفاطمية وانتحالها لقب الخلافة بدورها فدفعه ذلك كله الى اتخاذ لقب الخلافة . وفي

سنة ٣١٧ هـ اصدر وثيقة تلقب فيها بامير المؤمنين وورد في نصها « بأنه أحق واجدر من غيره بهذا اللقب طالما ان الله قد رفع سلطانه وسهل على يديه علو أمر دولته »

ومنذ ذلك التاريخ ودولة الاندلس في عهد الناصر في ازدهار وصعود حتى توفي في سنة ٣٥٠ هـ بعد حكم طويل دام خمسين عاماً تاركا لابنه الحكم الثاني مملكة موطدة الاركان ، عزيزة الجانب ، مزدهرة المرافق ، كبيرة الموارد ، تضيق بيوت أموالها عن استيعاب ماتحتويه.

في هذه الظروف التي تولى فيها الخليفة الحكم الثاني عرش الاندلس كان يستطيع القيام باعباء الملك خير قيام ومن جميع النواحي العسكرية والاقتصادية والثقافية ... فلم يتقاعس عن متابعة خطة والده في غزو الدول الاسبانية الشمالية ومتابعة الجهاد ضد الاعداء وفرض سلطانه في انحاء كثيرة من شمال افريقيا كان ينافسه فيها الفاطميون واخمد بضعة ثورات أطلت برؤوسها في مناطق مختلفة من الاندلس ، فلم يستطع اعداء العرب في اسبانيا ان ينتقصوا من سيادة دولتهم هناك أيام الحكم وتمكن من المحافظة على جميع المكاسب العسكرية التي حققها ابوه الناصر .

كذلك عم الرخاء بين السكان وعاشوا في رغد وهناء في ظل حكومة غنية وخليفة مثقف عادل يهتم بشؤون شعبه ويحرص على مصلحته .

حتى اذا تعرضنا للكلام على شخصية هـذا الخليفة الثقافية رأينا أنفسنا مضطرين للوقوف أمام هـذه الناحية من نواحي شخصيته باعجاب وتقدير عظيمين لأن الخليفة الحكم أثر تأثيراً واسعاً في ثقـافة الاندلس فرفع مستواها وأوصلها الى أرقى المستويات في ذلك الزمن .

كان حاكما غنياً من اغنى حكام العالم آنذاك ، يتمتع بسلطة واسعة جدا على شعبه مما كان يمكنـه أن يستمتع في حياته كما يشاء وان يلبي كل رغباته ونزواته .

كان يستطيع ان يقضي معظم اوقاته في الشراب وبين النساء مهملا القراءة والتأليف والثقافة طالما ان لديه كل ما يشاء كما كان يفعل معظم ملوك وحكام ذلك العصر ...

لكنه أبى ذلك وفضل قضاء اوقاته في تثقيف نفسه ومطالعة الكتب على مختلف انواعها فملأ اوقات فراغه كلها ينهل مما كان يكتبه ويدونه زعماء الفكر في عصره ، وقبل عصره ، حتى أصبح فريدا في ثقافته وحجة في كلامه لا في الاندلس فقط بل في انحاء العالم الاسلامي .

كانت الاندلس كما يذكر ابن صاعد الاندلسي في الزمان القديم خالية من العلم ، لم يشتهر عند اهلها احد بالاعتناء به الا انه يوجد فيها بعض العلوم الغامضة اجمع الناس على انها ترجع الى أيام الرومان عندما كانت الاندلس تابعة لامبراطوريتهم ،ولم تزل على ذلك عاطلة عن الحكمة الى ان فتحها المسلمون في شهر رمضان سنة ٩٢ هـ فظلت على ذلك لايعنى اهلها بشيء من العلوم الا بعلوم الشريعة وعلم اللغة الى ان توطدت السلطة لبني امية بعد الفتن الطويلة التي مرت بها البلاد ، فتحرك الناس الى طلب العلوم

وتنبهوا لضرورة الاهتمام بها . **ويظهر ان الانكباب على العلوم بدأ بشكل ظاهر في وسط المائة الثالثة للهجرة وذلك ايام الامير الاموي الخامس محمد بن عبد الرحمن بن الحكم بن هشام بن عبدالرحمن الداخل** ولم يزل يزداد حتى عهد عبد الرحمن الناصر الذي اعطى الحركة العلمية طابعاً رسمياً .

فقد عرف هذا الخليفة الاموي بميله الى الكتب ووصلت شهرته هذه حتى امبراطور بيزنطا الذي اراد أن يستميل اليه سلطان الأندلس فرأى ان احسن وسيلة لذلك هي اهداؤه كتابا جديداً هو كتاب « **ديوسقوريدس** » فأرسل اليه نسخة منه مكتوبة بخط بديع بماء الذهب ومزينة بصور بديعة تمثل الاعشاب المذكورة في النص .

ولما لم يكن عبد الرحمن الناصر يتقن اليونانية كما لم يعثر بسهولة على من يستطيع أن يترجم له ذلك الكتاب ترجمة دقيقة فقد طلب الى الامبراطور البيزنطي ان يرسل اليه عالماً يترجم له الكتاب فوجه اليه الراهب « نقولا » من القسطنطينية ليضع نفسه في خدمة الخليفة الاندلسي .

هذا وقد ساهم في ترجمة الكتاب المذكور مع الراهب نقولا الطبيب ابو عبدالله الصقلي الذي كان يعرف اليونانية والذي استطاع بعنايته وجهده أن يعرف اسماء كل الأعشاب المذكورة في كتاب ديوسقوريدس عدا بضعة منها لا تتعدى العشرة .

في ذلك الوقت كان ولدا الناصر الحكم الثاني ومحمد قد بدءا دراستهما على اساتذة معروفين اندلسيين. ومن خارج الاندلس نعرف مثلا ان الحكم الثاني قد سمع من قاسم بن اصبغ واحمد بن دحيم ومحمد بن عبد السلام الخشني وزكريا بن خطاب خاصة وكثيرين غيرهم فاستفاد من هؤلاء علما جماً ، ما لبث أن فاقهم حين احتوت يداه على أمهات الكتب في العالم آنذاك بما كان يبذله في استجلابها من المال الكثير .

وقد بلغ حماس الأخوين الحكم ومحمد للعلم انهما لم يكتفيا بما كان في مكتبة أبيهما من الكتب بل أخذ كل منهما يعمل على تكوين مكتبة تفوق مكتبة الآخر حتى اذا مرت فترة توفي محمد وورث اخوه الحكم مكتبته كما ورث مكتبة ابيه الناصر فتكونت لديه مكتبة كانت تعتبر آنذاك من أعظم مكاتب الدنيا ان لم نقل اعظمها اطلاقاً .

اذن فشغف الحكم بالعلوم بدأ منذ صغره وقبل وفاة ابيه حتى اذا آلت اليه الخلافة اخذ يقرب اليه رجال العلم والفكر ويؤثرهم على غيرهم من الناس ويهبهم مبالغ كبيرة من الاموال تشجيعاً لهم على تآليفهم .

وكان يستجلب من بغداد ومصر و غيرهما من ديار المشرق عيون التآليف الجليلة والمصنفات الغريبة في العلوم القديمة والحديثة حتى اجتمع لديه منها مايضاهي كل ماجمعه ملوك بني العباس في الازمان الطويلة وما ذلك الا « لفرط محبته في العلم وبعد همته في اكتساب الفضائل وسمو نفسه الى التشبه باهل الحكمة من الملوك » .

يجمع المورخون على ان الحكم الثاني المستنصر بالله كان محباً للعلوم مكرما لاهلها جماعا للكتب بانواعها ، وقد ذكر الفيلسوف المؤرخ ابو محمد ابن حزم مايأتي :

« اخبرني تليد الخصي ، وكان على خزانة العلوم والكتب بدار بني مروان ، ان عدد الفهارس التي فيها تسمية الكتب اربع واربعون فهرسة وفي كل فهرسة عشرون ورقة (في بعض التواريخ خمسون ورقة) ليس فيها الا ذكر اسماء الدواوين لاغير ، **واقام للعلم والعلماء سوقا نافقة جلبت اليها بضائعه من كل قطر** » .

وذكر المؤرخ والعالم الاجتماعي ابن خلدون صاحب كتاب (العبر) « ان اباعلي القالي صاحب كتاب « الامالي » من بغداد وفد على الحكم الثاني في الاندلس فاكرم مثواه وحسنت منزلته عنده واورث اهل الاندلس علمه واختص بالحكم المستنصر ، واستفاد علمه . »

كان الحكم يبعث كما قلنا في شراء الكتب الى الاقطار رجالا من التجار ويرسل اليهم الاموال لشرائها حتى جلب منها الى الاندلس مالم يعهدوه ، وبعث يطلب كتاب الاغاني من مصنفه ابي الفرج الاصفهاني مرفقاً رسالته بألف دينار من الذهب العين فلم يتأخر المؤلف عن ارسال نسخه منه اليه قبل أن يخرجه الى العراق .

وكذلك فعل مع القاضي ابي بكر الابهري المالكي في شرحه لمختصر ابن عبد الحكم .

واعفى العالم ابن الصفار من مرافقته في سنة ٣٥٢ هـ وكلفه بأن يبقى في قرطبة يؤلف له كتاباً في اشعار خلفاء بني امية في المشرق وفي اسبانيا .

هكذا نرى اذن ان الحكم الثاني لم يكن يتورع عن بذل الاموال الطائلة في سبيل الحصول على كتاب ثمين مهما بعدت المسافات التي تفصله عن مكان وجوده ، كما لم يكن يتورع عن مضاعفة المبلغ ورفعه الى ارقام خيالية كي يتمكن من مطاولة ذلك الكتاب قبل أن يطلع عليه اهل البلد الذي يقطن فيه المؤلف .

كذلك كان يعفي من الجهاد بعض العلماء الذين يعتقد انهم يتمكنون من الانتاج المفيد في حال بقائهم فارتفع المستوى العلمي في الاندلس وزاد عدد المجلدات التي كانت توجد في مكتبة الحكم وحدها على اربعمائة الف (٤٠٠٠٠٠) مجلد .

وعندما رأى الحكم ان خزائن قصره قد ضاقت عن استيعاب الكتب التي ترد اليه من مختلف انحاء العالم أمر بنقلها الى مكان آخر يتسع لها ولما يمكن أن يرد منها في السنوات التالية ، فصرف العمال في نقلها ستة أشهر كاملة .

وكان الجميع يعرفون أن احسن وسيلة للتقرب من الخليفة الحكم هي اهداءوه كتابا جديدا أو غير معروف لديه ، لذلك نرى العلماء والادباء يتسابقون الى ذلك فلا يقصر هو بدوره في إجزال مكافأتهم .

فنرى أن العالم ابن مفرج من قرية قرية الى قرطبة أهداه بضعة من مؤلفاته فكسب بذلك ود الخليفة وصداقته الحميمة واهداه محمد بن حارث الخشني ايضاً بعض الكتب منها « تاريخ قضاة قرطبة » . واهداه مطرف بن عيسى الغساني من اهل غرناطة كتابا قيما عنوانه « المعارف في اخبار كورة البيرة Elvira » وهو كتاب حسن ممتع جدا .

وقدم اليه ابن فرج الجياني الكتاب المعروف « بكتاب الحدائق » عارض فيه « كتاب الزهرة » لابي بكر محمد بن داوود بن علي . حتى ان راهبا مسيحيا اهداه تقويما يتضمن تواريخ الاعياد المسيحية في اسبانيا وهو تقويم نادر من نوعه كان له حظ الوصول الى ايدينا فاطلع عليه رجال الفكر المعاصرون وعنوا بطبعه .

كما يذكر المستشرق الفرنسي ليفي بروفنسال انه عثر بين المخطوطات العربية الموجودة في جامع القيروان في فاس على مخطوط هام جداً هو عبارة عن نسخة لمختصر ابي مصعب احمد بن ابي بكر الزهري كتبت في أيام الخليفة الحكم الثاني ومن اجل مكتبته بصورة خاصة . ونجد في آخر صفحة من النسخة المذكورة الخط التالي :

« وكتب حسين بن يوسف عبد الامام الحكم المستنصر بالله امير المؤمنين اطال الله بقاه وادام خلافته في شعبان من سنة ٣٥٩ » .

وكان يساعد الحكم في تنظيم مكتبته وإغنائها عدد كبير من رجال الفكر والعلماء المرموقين في ذلك العصر يعمل كل منهم في ناحية معينة .

فكان يشرف على خزائن الكتب الخصي الأمين « تليد » ويعمل في مقابلة الكتب وتدقيقها النحوي الكبير محمد يحيى بن عبد السلام الازدي المعروف « بالرباحي » . وقد ولد في جيان وسكن قرطبة ، وتتلمذ على يديه كثير من رجال العاصمة البارزين وبينهم المغيرة ابن الخليفة الحكم .

كذلك كان محمد الحسين الفهري الاديب اللغوي القرطبي المعروف ومحمد بن معمر الجياني مكلفين بالاهتمام بكتب الادب واللغات بصورة خاصة .

وقد كان لدى الحكم أيضا شبكة واسعة من الموظفين للعناية بالكتب فهناك الصناع الحاذقون في النسخ والضبط والاجادة في التجليد ....

ونستطيع أن نعد بين الوراقين البارزين في خدمة الحكم : ابو الفضل بن هارون الصقلي الذي نسخ وجلد له كتباً كثيرة، وظفر البغدادي،وعباس بن عامر ، ويوسف البلوطي وغيرهم....

ونعد بين الكاتبات اللواتي كن يعملن في خدمة الحكم « لبنى » التي كانت تعمل كاتبة لديه « وفاطمة » بنت زكريا بن عبد الله احد كتاب الخليفة الحكم .

وكان بين الاجانب الذين اعتمد عليهم الحكم في شراء الكتب وارسالها اليه ابن شعبان المصري ، وابن يعقوب الكندي ، من بغداد ومحمد بن فرحان ، والكثيرون غيرهم ...

ولم يكن الحكم يقتني هذه الكتب لمجرد لذة الاقتناء فقط ، بل كان يقرءوها كلها بتمعن ويعلق عليها ويكتب كثيراً من آرائه على هوامشها حتى اصبح يعتبر من اكبر علماء عصره آنذاك ، وحتى اعتبرت تعليقاته على الكتب من المعلومات القيمة جدا التي افاد منها العلماء فيما بعد واعتمدوا عليها اعتمادا تاما .

يقول صاحب نفح الطيب في هذا الصدد :

« كان الحكم ذا غرام بالكتب ، قد آثر ذلك على لذات الملوك ، فاستوسع علمه ، ودق نظره ، وجمت استفادته ، وكان في المعرفة بالرجال والاخبار والانساب أحوذيا نسيج وحده ، وكان ثقة فيما ينقله ، ويهـــ [illegible] ابن الابار وبأصنافه ، وقال : عجباً لابن الفرضي وابن بشكوال كيف لم يذكراه وقلما يوجد كتاب من خزائنه الا وله فيه قراءة أو نظر في أي من كان ، ويكتب فيه نسب المؤلف وبلده ووفاته ويأتي من بعد ذلك بغرائب لاتكاد توجد الا عنده لعنايته بهذا الشأن . »

هذا وقد اطلق البعض على الحكم الثاني لقب « دودة الكتب » لطول الوقت الذي كان يقضيه في مكتبه وبين كتبه ولكثرة شغفه بالقراءة والمطالعة .

وقد سرت عدوى الاهتمام بالعلوم واقتناء الكتب وتكوين المكتبات من الخليفة الى اثرياء قرطبة فأخذوا يقتدون بـــه ويؤلفون المكتبات الخاصة الكبرى ، فكثر المهتمون بالنسخ حتى انه ذكر ان في الحي الشرقي فقط من قرطبة كان يوجد حوالي مائة وسبعون امرأة يشتغلن طوال اليوم في كتابة نسخ من القرآن بالخط الكوفي .

وهكذا تمتعت قرطبة عاصمة بني امية في اسبانيا بصيت علمي رائع اكثر من اية عاصمة عربية واسلامية اخرى ، وقد حافظت قرطبة على هذه السمعة حتى بعد سقوط الخلافة الاموية

في قرطبة وظهور ملوك الطوائف ، واستعادت كثيراً من مجدهـا تحت حـكم المرابطين في القرن الثاني عشر حتى ان ابن رشد كتب الملاحظة التالية :

« عندما يموت عالم في اشبيليه ويريدون بيع كتبه يأخذونها الى قرطبة حيث تنتشر في مختلف انحاء المدينة وعندما يموت موسيقي في قرطبة ويريدون بيع آلاته الموسيقية يأخذونها الى اشبليه حيث يبيعونها هناك . »

هذه المكتبة الفريدة من نوعها والتي جمعها الخليفة الحكم الثاني في قصره لم يصلنـا من محتوياتها الا النذر اليسير الذي استطاع أن يفلت من ايدي الظروف القاسية التي مرت بهـا تلك المكتبة ، والتي عثر عليها بعض العلماء صدفة كما ألمحنا الى ذلك سابقا.

أما الظروف القاسية التي مرت على تلك المكتبة والتي نتحدث عنها فقد كانت على مراحل متعددة؛

اول ضربة وجهت الى تلك المكتبة كانت على يـد الحاجب المنصور محمد بن ابي عامر ، حاجب الخليفة هشام الثاني الاندلسي ابن الخليفة الحكم الثاني ، والذي كان الحاكم الحقيقي الفردي للأندلس اكثر من ربع قرن .

فقد كانت مكتبة الحكم الثاني تحتوى كثيراً من الكتب التي لم تكن الاوساط المحافظة في قرطبة راضية عن وجودها فيهـا ، فاصحاب العقليـة الرجعية ، ومعظم المتقدمين في السن ، وعوام قرطبة ، لم يكونوا يحبـذون تداول الكتب التي تتناول العلوم القديمة والتي تتحدث عن المنطق والفلسفة وعلم الفلك وغيرهـا من علوم الأقدمين واخذوا يوجهون اللوم الى المنصور ابن ابي عامر لمحافظته عليهـا ويضمرون الشك في ايمانه الصحيح ... لذلك أراد المنصور أن يقوم بعمل كانت الغاية منه سياسية أكثر منهـا علمية وهي القضاء على ماتبقى من معارضة له في قرطبة وكسب اولئك الناس الى صفه .

من اجل ذلك جمع في قصره كبار رجال العـلم المشتغلين بالدين والفقه ... وامرهم بأن يبحثوا في انحاء المكتبة الخليفية الكبيرة عن الكتب التي تشكل قراءتها في نظرهم خطرا على عقلية الشعب والتي يجب منع تداولها وان يميزوها عن غيرهـا . فلما تم ذلك ولم يبق من كتب المكتبة سوى التي تبحث في الطب والحساب واللغة والنحو والاشعار والاخبار والفقه والحديث وغيرها من العلوم المباحة في نظرهم ، أمر المنصور باحراق وافساد الكتب التي كان يعتبر قارئها متهماً لدى اهل الاندلس بالخروج عن الملة ومظنوناً به الالحاد في الشريعة..

فاحرق بعضها وطرح بعضها في آبار القصر وهيل عليها التراب والحجارة وغيرت بكل الطرق الممكنة فكان من نتائج ذلك اتلاف ثروة فكرية ضخمة ربما خففت من اشتعال جذوة الفكر التي كانت تتقد بقوة في المغرب الاسلامي ، كما أدت الى تقاعس الناس عن طلب العلوم والحكمة وخلت نفوسهم فعمدوا الى اخفاء ما كان لديهم من تلك العلوم المتنوعة .

الضربة الثانية التي وجهت الى المكتبة اتت على يد الفتى الصقلي « واضح » من موالي المنصور ابي عامر الذي كان يدير امور قرطبة اثناء حصار سليمان بن الحكم المستعين والبرابرة لها في خلافة هشام بن الحكم المؤيد ...

فقد تدهورت حالة قرطبة الاقتصادية في تلك الفترة اذ وضع البرابرة المحاصرون المدينة ايديهم على المواسم المكدسة خارج المدينة واضطر عدد كبير من الفلاحين أن يلجأوا الى العاصمة للتفتيش عن القوت ففرغ بيت المال ولم يعد المسؤولون يستطيعون دفع رواتب الجنود . تجاه ذلك عمد واضح الى بيع عدد كبير من الكتب الموجودة في القصر ليؤمن بذلك بعض النفقات الضرورية ، لكن ذلك لم يفده امام الحصار الطويل وسقطت قرطبة في ايدي البرابرة وزعيمهم سليمان بن الحكم .

هنا تاتي الضربة الثالثة والقاضية لمكتبة الحكم فان المحاصرين عندما دخلوا المدينة ووضعوا ايديهم عليها ، احرقوا مكتبة قصر الخلافة انتقاماً من اهل المدينة وحكامها السابقين فلم ينج من المكتبة العظيمة الا الشيء البسيط الذى انتقل بعد ذلك الى حوزة افراد متفرقين في مختلف انحاء البلاد .

وهكذا ساعدت عوادي الزمن على القضاء على تلك المكتبة الرائعة التي جمعها الخليفة العالم الحكم الثاني الأندلسي والتي قضى معظم أيام حياته فيها يقرأ ويطالع ويعلق ويكتب .

ولاشك ان من تلك الكتب التي انتقلت الى حوزة الأفراد كما قلت قد استطاع ان يصل الى ايامنا هذه وربما استطاع الباحث المنقب في زوايا المكتبات الخاصة أو العامة في البلاد العربية الاسلامية وخاصة في شمالي افريقيا ، ان يعثر في أية فترة من الزمن على احدى تلك الكتب الثمينة فيقدم بذلك الى الفكر والبشرية خدمة كبرى ويمكن الانسانية من الاطلاع على حقبة غامضة من تاريخها ...

١٩٨٤

جورج أورويل والانسان الآلة

عرض وتحليل :

أورخان ميسر

ان المعضلة الرئيسية التي يقف عندها اليوم مفكرو الزمن المعاصر في حيرة وذهول ويحاولون ، رغم وقفتهم هذه ، ايجاد حلول ايجابية لها من شأنها ان تساعد في ازالتها ازالة ، ان لم تكن مطلقة ففي اوسع حدودها النسبية هي **معضلة الكشف عن انسانية الانسان**، ليس بالنسبة للنخبة الفكرية بين الناس بل بالنسبة للمجموع البشري كله ، على اختلاف بيئاته ومناطقه وقومياته ومستوياته الذهنية والنفسية . وقد يبدو اصطلاح الكشف عن انسانية الانسان شيئاً غريباً في اعتبار بعض الافراد الذين يجعلون من الفكر ملهاة فيها استمتاع عابر وتفريغ آلي لشحنات نفسية تولدت نتيجة لاصطدام الرغبات الفردية بكرونولوجيا الحياة الواقعية التي تمر بنا او نمر بها عبر سيرنا الملحاح في كرتنا الصغيرة هذه ،من بداية غامضة نحو نهاية اشد غموضاً وابهاماً . إلا ان هذا الاصطلاح في اعتبار المفهوم الوجودي الحديث ، اى المفهوم القائم على أدق وأوسع حصيلة علمية استطاع ان يجمعها انسان هذا اليوم ، له مدلوله الواضح كما ان له ايضاً مده الأفقي والغوري من حيث الاعتبار الأنتولوجي والانتروبولوجي معاً.

لقد تطور هذا الكائن الحي الذي سمي انساناً تطوراً جذرياً ذا ابعاد

عديدة في خلال ملايين السنين التي حفلت بها حياته على الارض منذ ان استطاع الحركة بعد الجمود ثم منذ ان انتقل من حركته الدعموصية على الضحاضح الى حركته الاخيرة الجبارة في محاولة احتضان اجزاء من الكون في حدود قزمية مجموعتنا الشمسية . وفي المراحل التي طواها ماين انتصابه على قدميه وبين مد ذراعيه لعناق ماحوله من كواكب ونجوم مر بمراتب مختلفة متباينة عجيبة كان في بعضها غابياً ، في ذهنه طيف فريسة ، وعلى شفتيه ويديه قطرات دم .. وكان في بعضها الآخر حضارياً في ظاهره ، كهفياً في نزوعه وسلوكه . غير انه في هذا البعض الثاني استطاع ان يدرك شيئاً له اهميته وقيمته الكبيرتان : استطاع ان يدرك انه يتطور واستطاع ان يكتشف جوانب من اسرار تطوره ثم استطاع بالتالي ان يعرف انه ليس لتطوره هذا من تخوم يقف عندها كما استطاع ان يعرف ايضاً انه يخطو نحو صيرورة كونية شمولية من حيث التعايش والتواجد والتناغم مع كل ماهو مثيل له من جهة ومع كل حركة تنبض في ارضه من جهة اخرى . وجعله ادراكه هذا يلمس مافي خلاياه من بقايا ماضيه الغابي والكهفي ، هذه البقايا التي لم يصقلها بعد كل ما اكتشف واخترع ورأى والتي لم يستطع ان ينتزعها من قواقع لاوعيه رغم كل تنبه لاخطارها ، الديناميه منها والكامنة . واراد ان يتخذ موقفاً معيناً من صيرورته على ضوء ما ادرك واكتشف ولمس فكانت بداية هذا الموقف رفضه العملي لكل رواسب ماضيه غير الحضاري وتمسكه بفكرة كونه انساناً خلق لأن يرقى دون توقف في رقيه ، رغم ما يلقى في سبيل ذلك من عقبات وعراقيل ترميها خلاياه بين قدميه بين خطوة واخرى . وكما كان ذلك بداية هذا الموقف فقد كان من التزاماته البحث عن التكامل الذي يتمثل في الانسان بصورة عامة ويظهر في بعض الافراد سلوكا فكرياً وعملياً بصورة خاصة ، اي كان البحث عن انسانية الانسان .

واتخذ هذا البحث طريقين او اسلوبين مختلفين من حيث الاتجاه يلتقيان في النهاية في نقطة واحدة هي العمل وفق المقتضيات التي تفرضها مبادىء البحث عن انسانية الانسان . وكثف الاسلوب الواحد الجهد حول ابراز معاني الانسان المتكامل ابرازاً واضحاً متخذاً من العلوم اليقينية والفلسفة الحديثة مرتكزات لهذا الابراز بينما اقتصر الاسلوب الثاني على ايضاح وتفسير المساوىء والاخطاء التي تؤخر تقدم الانسان في تطوره كما تريده له الحياة .

وليس الكتاب الاخير للفيلسوف العملاق كارل ياسبرز ، وعنوانه « مستقبل النوع الانساني » الا محاولة ناجحة في جملة المحاولات التي ترمي الى الكشف عن انسانية الانسان ، كما ان مايقوله ويفعله المفكر الكبير برتراند راسل ليس الا ظاهرة عملية لنزوع انسان العصر الى الحياة التي تؤمن له تطوره وارتقاءه كاملين لابتر فيهما .

وجورج اورويل الذي ذاعت شهرته على نطاق عالمي واسع بعد نشر قصته الطويلة

« ١٩٨٤ » كاتب كبير حاول في قصته هذه ان يعالج موضوعا له خطورته الكبيرة في الزمن الذي نحيـا فيه الان وهو موضوع **طغيان السيطرة الفودية او الحكم المطلق عن طريق مذهبيات مفتعلة تفرض على الناس فرضاً سيكلوجياً فتجعل منهم آلات بشرية تتحرك وتعمل بتوجيه خاص يوحى به اليهم وحياً آلياً ، وتضعهم في جو ارهابي قاس عنيف يسلبهم حتى شعورهم بخصائصهم الفودية والانسانية** . وهذا الكتاب ليس بجديد من حيث تاريخ نشره اذ انه طبع ونشر للمرة الاولى في عام ١٩٥٠ ونقل الى عدة لغات اوروبية وآسيوية في العام ذاته ثم اعيد طبعه واعيد نقله مرات كثيرة حتى اصبح الموضوع الذي طرحه اورويل بشكل مثير حديث الاوساط الفكرية الرئيسي في البلدان التي تتمتع بحرية الرأي والتعبير . الا ان الجديد في هذا الكتاب في عام ١٩٦٢ يتجلى في امرين اولهما عشرات الالوف من الرسائل التي اخذت ترد الى الصحف والمجلات في الولايات المتحدة وبريطانيا وايطاليا والمانيا وفرنسا طالبة مناقشة موضوع قصة اورويل على مدى اوسع وطالبة ايضاً جعله « قضية » يتبناها رواد حرية الفكر في العالم كأحدى المبادىء الاساسية التي يعملون لها ، وثانيهما هو اتفاق عدد من النقاد العالميين على ان هذا الكتاب اتجاه جديد في القصة يقوم على حقائق لايمكن ان ينكرها المنطق ويجعل من هذه الحقائق منطلقاً لأهداف سامية يرمي اليها الفكر الانساني المعاصر المتحرر .

وليس ماحدث لهذا الكتاب بالامر الغريب لأن عناصر البحث على المستوى الواقعي والمثالي متوفرة لدى صاحبه اورويل . فلقد نشأ اشتراكي النزعة بعد تجربته المريرة في معهد « ايتون » الارستقراطي وتجمع لديه رصيد غير قليل من المعرفة بعد عمل طويل في بورما وباريس وانكلترا وبعد مساهمة فعالة في الثورة الاسبانية وفي الحرس الاهلي الذي انشىء لمقاومة اي هجوم متوقع الحصول من قبل جيوش النازية خلال الحرب العالمية الثانية . يضاف الى كل ذلك شيء آخر هو ان ولادة اورويل في الهند وانطباعاته الاولى فيها وجولاته في البلدان المجاورة لهـا واهتمامه بالمذاهب الفكرية التي تطغى على الذهن الآسيوي وتهيمن بصورة خاصة على شعوب المناطق التي تؤمن بالبوذية ، لقد كان لهذا الشيء الآخر أثره في توجيه اورويل نحو النتيجة التي انتهى اليها وهي ان العالم يعاني أزمة انسانية قد تؤدي به الى مرحلة يفقد بها خصائصه المميزة كأرقى كائن حي . وقد تجلت هذه النتيجة الفلسفية التي انتهى اليها اورويل بعد كل ذلك في قصته « ١٩٨٤ » حيث عرض في قالب فني رائع **مايمكن ان يصير اليه الانسان في فترة تاريخية**

حددها لعام ١٩٨٤ اذا ما استمر خاضعاً للتوجيه الآلي الذي يفرضه الحكم المذهبي الجماعي المطلق .

وعالم عام ١٩٨٤ كما صوره اورويل عالم عجيب يسود في اعماقه صراع غبي عنيف استمراري البيرويكاد في الوقت ذاته ان يتحنط في القوالب التي يصنعها له عدد صغير من القادة الحزبيين الذين يؤلهون ذواتهم وينظرون الى الملايين من الناس نظرة شوفينية فيها كل دفق الغريزة البدائية وفيها كل نهم الغاب والحياة الوحشية . والناس في عالم ١٩٨٤ افراد شلت قوائم الفكرية وجردوا من جميع القيم التي توصل اليها الانسان منذ النهضة التي كانت على شواطىء البحر الابيض المتوسط ومنذ بداية الحضارات العريقة التي اعطت لنا تراثاً مجيداً كما جردوا ايضاً من المفاهيم الزمنية للماضي والمستقبل واصبحوا يتحركون كما تتحرك الاجهزة المختلفة التي نستعملها في حياتنا اليومية بادارة مفاتيح معينة او بالضغط على ازرار خاصة او بالجمع بين اسلاك عديدة جمعاً يؤدي عملا خاصاً . والحب ، هذه العاطفة الجميلة التي يعتز الانسان بوصوله الى اعلى المراتب فيها ، جريمة كبرى في عالم ١٩٨٤ يعاقب عليها من يقترفها عقاباً شديداً ، ذلك لأن الحب ليس من خصائص الآلة التي يجب ان يكون على صورتها انسان هذا العالم . وقد وضع تحريم الحب وفق قوانين وتشاريع سنتها الدولة التي يشرف عليها عدد قليل من القادة الغـابيين . وقد وجد هؤلاء القادة منظمة دعيت بمنظمة او رابطة « مقاومة الجنس » . لاحب في هذا العالم ولا روابط جنسية ، انما هناك عملية « تفريخ » يعمدالبها المواطن لكي يضمن استمرار نوعه ولكي يضمن بالتالي الاستمتاع الوحشي للقادة الذين يسيطرون على جميع طاقاته ومقدراته في حقله الفردي وفي حقله الجماعي . فهناك ، مثلا ، رجل اسمه ونستون سميث عضو في « الحزب » يتولى مهمة استنساخ واعادة استنساخ تاريخ « الحزب » في وزارة « الحقيقة » وهي وزارة عملها قلب الحقائق بصورة تنسجم مع الهدف الذي يرمي اليه القادة الفرديون المطلقون . ويجتمع سميث بجوليا وهي عضو ثوري في رابطة « مقاومة الجنس » فيقع كلاهما في حب عاطفي عنيف . غير ان العالم العجيب ، العالم الآلي الذي يعيشان فيه ، لايسمح بانشاء اي رابطة عاطفية مهما بلغت من البدائية او السمو ، فتكون النهاية الى الغرفة رقم ١٠١ حيث التعذيب والقسوة في اشد صورهما عنفاً ووحشية وحيث امكانات تجريد الانسان من كل مايمكن ان يفخر به في عصره الحضاري من عزة وتراث .

ويستمر اورويل في عرض صور كثيرة متعددة الألوان والخطوط للعالم الذي يمكن ان يخططه الحكم المطلق المعتمد على الطغيان الفردي والسيطرة على ارادات الناس سيطرة آلية قسرية ،فينتقل من مشهد مثير الى مشهد مثير آخر، فلايستطيع القاريء الا أن يستجيب ذهنياً ونفسياً الى اللمحات الرائعة التي يتضمنها والى اللفتات الفكرية التي ينثرها بسخاء وفي رشاقة بارعة قوية . ينقلنا اورويل في قصته « ١٩٨٤ » الى اجواء نحس بها وكأنها ليست من ذاتنا ومن تراثنا الحضاري ، على اختلاف نوعية هذا التراث ، وليست مما ألفناه في تاريخنا الحافل بحوادث مأساوية لا حدود لها ... نحس بها وكأننا في مصانع جعلت لانتاج اوائل وادوات مما نستعملها في حياتنا اليومية ، وكأننا جزء مما ينتج ويوزع في الاسواق .

لم تكن قصة « ١٩٨٤ » هي المرة الاولى التي يطرح فيها اورويل معضلة «الآلية» التي ستسيطر على الانسان اذا ما استمر الحكم المطلق في خداع الشعوب . لقد سبق له ان كتب مقالات عديدة في الموضوع ذاته ، الا انه في قصته هذه استطاع ان يكثف كل ما كتب كما استطاع ايضاً ان يجعل القارىء ذاته يثير في ذهنه وهو في خلواته اسئلة عديدة يقول بعضها : **ما مصيرنا ؟** ويقول بعضها الآخر في ارتباك وذهول : **كيف نستطيع الاحتفاظ بحيويتنا وكرامتنا لنتمكن من اداء رسالتنا الانثروبولوجية كارقى كائن حي ؟ ...**

ان اورويل لا يعطي اجوبة مباشرة لمثل هذين السؤالين الخطيرين او لغيرهما مما يثار في ذهن القارىء المثقف وهو يغوص في اعماق مأساة استطاع ان يعرضها هذا الكاتب أصدق عرض . انه يجعل القارىء ذاته يستنتج الاجوبة ويفكر فيها ويصل الى الحلول التي يمكن لها ان تجنب النوع الانساني التعرض لمأساة الحكم المطلق ولمأساة الانهيار الذهني . وتبدو هذه الحلول التي يصل اليها القارىء بتوجيه من الحقائق المتخيلة التي تتقاطر امام عينيه وهو ينتقل من صفحة الى اخرى في « ١٩٨٤ » حلولاً جذرية لابد من ان يعمد اليها ويتبناها ويكافح في سبيل تحقيقها تحقيقاً كاملاً ولو ضحى في سبيل مثل هذه الغاية ببعض الجهد والدم. وتتلخص هذه الحلول في ان يقف كل فرد يحس بما في نفسه من مثل عليا تسير به نحو التطور الخلاق — ان يقف في وجه كل محاولة للطغيان الفردي وكل محاولة لفرض ارادات غريزية لها طاقة السير بالانسان القهقرى وتجميده في حدود حياته البدائية ضمن أطر جديدة تبدو في ظاهرها ذات الوان زاهية وتنسيق رائع بينما هي في حقيقتها قضبان حديدية قاسية واسلاك شائكة ملوثة بالسم والجرائم .

ومن أروع الصور التي يقدمها اورويل ليجعل القارىء ينتهي الى استنتاجات ايجابية بعد

ان يستعرض في تسلسله المنطقي ما خبره أو عرفه من حقائق عن الحكم « النهبي » المطلق صورة يوردها عن الشعارات الرئيسية التي تبشر لها الدولة وتدعو اليها وتجعلها مكتوبة بالنور على جدار بناية كبرى في عاصمة « ١٩٨٤ » . وفي جملة هذه الشعارات شعار يقول :

الحرب سلام

الحرية عبودية

الجهل قوة

وكأن اورويل في عرضه لمثل هذه الصورة اراد ان يؤكد في وضوح كيف ان **المفاهيم الصحيحة يمكن ان تزيف وكيف ان الحقائق يمكن ان تزور ضمن منطق معكوس تقتضيه مصلحة اولئك الذين لايهمهم الا الاستمتاع بالتحكم والطغيان .**

واذا عدنا الى الفترة الواقعة مابين عام ١٩٣٣ وعام ١٩٤٥ وتذكرنا ما كان يجري في المانيا النازية من قلب للحقائق وتزوير للتاريخ ادركنا الحقيقة التي يرمي اليها اورويل في قصته هذه . فلقد شوه الزعماء النازيون حتى الحقائق العلمية اليقينية فجعلوا من البيولوجيا والانثولوجيا وغيرهما من العلوم التي تتعلق بالانسان ونشأته وسائل لاشباع العقول بالاوهام ولجعل الشباب الالماني الناشيء يؤمن بخرافة العرق البشري المتفوق .

ومن الصور القوية الأخرى التي يقدمها اورويل بذات الدقة والروعة اللتين قدم بهما صوره السابقة تعاريف لبعض الالفاظ والاصطلاحات التي يتاجر بها عالم « ١٩٨٤ » في سبيل تشويه انسانية الانسان .تعاريف يمكن وضعها في مثل الصيغ الآتية :

– **البلوريتاري** : هو الفرد الذي يجب ان يظل متخلفاً وان يبقى في جهل مطلق وان يستمر في التزود بأكاذيب تقدمها له وزارة « الحقيقة » للاحتفاظ به انساناً يتحرك ويعمل ولكن دون ان يعي .

– **المباحث** : فئة اختيرت لكونها مفتقرة الى الذكاء ولكونها متميزة بقوة العضلات ثم لكونها صالحة للتضحية العمياء في سبيل « الزعيم » الذي لا تعرف عنه شيئاً .

– **عضو الحزب (ذكر)** : هو الفرد الذي لاوجه له ولا عقل في جمجمته انما هو كائن آلي من لحم ودم ، يحقن بالاكاذيب ويزرق بالحقد والكراهية نحو الآخرين .

ـ **عضو الحـزب (انثى)** : لا بد لها ان تكون في عداد رابطة « مقاومة الجنس » منذ ولادتها وان تنذر كل جهدها وحيويتها لخنق كل العواطف الانسانية وان تنجب اولاداً لا علاقة لهم بزوجها .

ان اورويل في قصته « ١٩٨٤ » يتعرض لأخطر معضلة تقف امام الانسان المعاصر وقفة جاثوم رهيب ، الا انه لايكتفي بالتعرض المجرد لهذه المعضلة انما يقدم في الوقت ذاته ايضاً حلولاً حتمية تقول إنه على الانسان ان يعي انسانيته وعياً كاملاً شمولياً من خلال حريته ومبادىء تقديسه لهذه الحرية التي لا يمكنْ بدونها ان يستمر التطور الحياتي الصاعد في عمله الابداعي الخلاق .



من مختارات المعرفة:

أوقات الفراغ

تحقيق علمي اجتماعي
جديد . عن مجلة
«آر» ARTS الفرنسية..

ترجمة السيدة مهاة الخوري

ننشر فيا يلي نتيجة التحقيق العلمي الواسع الذي قام به (جوفر دومازيدير) مدة خمسة أعوام كاملة . ومما لاشك فيه أنه أهم تحقيق جرى حتى الآن حول فكرة الفراغ ومفهومه في العالم المتحضر . ويقصد بالفراغ هنا (أوقات) الفراغ التي يتمتع بها المرء بعد أن ينتهي من عمله اليومي العادي . ولذلك جعل موضوع هذا البحث « نحو حضارة الفراغات » .

وصاحب التحقيق عالم منصرف الى هذه القضايا متخصص فيها. فهو مشرف على (مؤسسة الشعب والثقافة) ، ومكلف رسمياً بالقيام بالتحريات العلمية في موضوع الفراغ . ومسؤول عن منظمة علمية متخصصة ايضاً في شؤون الفراغ . ولقد قام مع جماعة من الباحثين بدراسة عن الفراغ من ناحية تطور التكتل في المدينة ! واذا أضفنا الى كل ذلك انه يعد اطروحة للصوربون عن

الفراغ ومستقبل ثقافة الجماهير في الحضارة الصناعية ، أدركنا ان الرجل خير من يكتب في هذا الموضوع ، وان التحقيق الذي ننشره له هنا ، يشكل نقطة الارتكاز لهذه الظاهرة الاجتماعية الجديدة التي من شأنها أن تحملنا على اعادة النظر في آرائنا المتعلقة بالثقافة والعادات وانماط الحياة .

وقد جعل القسم الأول منه على شكل عشرة اسئلة نوردها فيما يلي ، ـ أما القسم الثاني فننشره في عدد قادم ـ :

(١) ـ كم ساعة ازداد عدد ساعات الفراغ خلال قرن من الزمن ؟

منذ قرن واحد تقريباً ، أي عندما كان كارل ماركس ينشر على الناس نظرياته عن العمل والراحة ، لم تكن ساعات العمل اليومي محددة بموجب **القانون** ، ولم تحدد باثنتي عشرة ساعة الا بعد ذلك . فيمكن اذن الاخذ بقول (فيرمان) وهو عضو في اكاديمية العلوم السياسية والاخلاقية من أن متوسط ساعات العمل كان في تلك الحقبة ، ثلاث عشرة ساعة في اليوم .

أما عدد أيام العمل الاسبوعي فلم يتغير خلال هذا القرن وبقي كما كان أي ستة أيام . وكذلك لم يتغير عدد ايام العطل والاعياد ، لأن النقص في الاعياد الدينية قد قابله ازدياد في الاعياد المدنية .

واذا اخذنا كل هذا بعين الاعتبار ، ثم اجرينا حساباً بسيطاً ، لوجدنا أن ساعات العمل الاسبوعي كانت قبل قرن واحد خمساً وسبعين ، وأصبحت الآن خمساً وأربعين . أي بنقص يعادل ثلاثين ساعة من ساعات العمل ، أو بزيادة تعادل ثلاثين ساعة اسبوعية من ساعات الفراغ والراحة كسبها العامل خلال هذه الفترة من الزمن . ناهيك عن أن القوانين الحديثة قد منحت العامل عطلة سنوية مأجورة تبلغ ثلاثة اسابيع .

وخلاصة القول أنه في خلال قرن واحد أو ماينيف عنه قليلا زاد نصيب العامل الصناعي من أوقات الفراغ نحو ثلاثين ساعة في الاسبوع أو مايربو على الف وخمسماية ساعة في السنة .

(٢)- بكم ساعة من الفراغ يتمتع العامل حاليا ، أي في ١٩٦٢ ؟

وبعد أن رأينا ازدياد ساعات الفراغ ، أصبح خليقا بنا أن نعرف ماذا بلغت هذه الساعات بعد ازديادها . وقد درس العلماء هذا الامر دراسة وافية نوجزها فيما يلي :

أولا — يقول العالم ستوكزل استنادا الى دراسات معهد (الرأي العام الفرنسي) ان أوقات الفراغ لعامل مقيم في المدينة هي ساعتان في المساء ، وفترة قصيرة تسبق وقعة الظهر ، وأخرى تلي وقعة المساء ، بحيث يصبح مجموع ساعات الفراغ ثلاث ساعات في اليوم .

ثانيا — يقدر العالم فورستيه أن ساعات الفراغ اليومية هي ثلاث أيضا ، وذلك بالنسبة للعاملين الراشدين ، واعتبارا من عام ١٩٥٠

ثالثا — قام العالم «شومبار دي لو» بتحقيق واسع على مائة وعشرين عائلة عمالية في المنطقة الباريسية فتبين له أن المعدل الوسطي للفراغ اليومي انما يتراوح بين ساعة ونصف وساعتين اثنتين . الا أن هذا العالم لم يدخل في حسابه الاوقات التي يقضيها العامل في اشغال مختلفة في بيته كاجراء بعض التصليحات الكهربائية أو الميكانيكية . وهي غير مأجورة طبعا ، واقرب الى الهواية والتسلية منها الى الشغل الجدي . وهذه الفعاليات يجب أن تدخل في نطاق الفراغ وفي حساب ساعاته : لأنها للهو والهواية كما قلنا ولا تفرضها ضرورات اقتصادية ولا التزامات عائلية . فاذا أدخلناها في الحساب ، وجب ان يضاف الى المعدل الذي ذكره

شوباردي لو ساعة ونصف أو ساعتان يوميا ، فيصبح مجموع ساعات الفراغ متراوحا بين ثلاث وأربع ساعات .

أما ادخال هذه الفعاليات المنزلية غير المأجورة في حساب الفراغ أوعدم ادخالها فيه فقد جرى بشأنه تحقيق واسع في مدينة آنيسي التي يبلغ عدد سكانها اربعين الفا وتبين منه ان ٦٠٪ من عمال المدينة يعتبرون هذه الفعاليات نوعا من الفراغ ، وان ٢٥٪ منهم يحسبونها عملا عاديا لا فراغا . اما الباقون وهم ١٥٪ من العمال فقد أجابوا بانها تشمل الفراغ والعمل معا .

فاذا اخذنا بمجمل الآراء والتقديرات التي اوردناها في الفقرات السابقة لوجدنا **ان المعدل الوسطي للفراغ اليومي للعامل الصناعي هو ساعتان ونصف الساعة في اليوم أي اثنتا عشرة ساعة ونصف الساعة في الاسبوع - باعتبار أن أيام العمل الاسبوعي خمسة فقط .**

٣ - هل يمكن اعتبار الفراغ نمطا من انماط العيش ؟

منذ أقل من خمسين عاما لم يكن الفراغ معتبرا كقيمة في حد ذاته . وعلى سبيل الايضاح والمثال نذكر ان العالم (ماكس ويبر) قام بدراسات حول الموضوع فانتهى به الأمر الى القول بأن العمل هو الذي يبرر الربح ، وان كل نشاط أو فعالية لايكون منها فائدة للمجتمع لايمكن أن تسمى عملا وانما هي فعالية قاصرة ضئيلة .

ولا يختلف عن هذا ، رأي ريكاردو ، ولا رأي ماركس. لذلك كانت زيادة ساعات الفراغ أمراً مضعفاً لنظرية كل منها عن « القيم » .

وحتى عام ١٨٨٣ عندما كتب بول لافارج رسالته الشهيرة في (حق الانسان بالبطالة) كان مفهوم الفراغ أشبه مايكون بمفهوم البطالة أوالكسل .

اما في ايامنا هذه ، **فالفراغ** ، يشكل نواة جديدة لمفهوم السعادة الحديث . وان من لا يستفيد أو لا يعرف كيف يستفيد من أوقات فراغه هو رجل غير مكتمل ، أو متأخر ، بل هو رجل منحرف بعض الشيء . ونستطيع أن نقول مع الاميركية مارتا ولفنشتاين : **أننا ، اهل هذا الجيل، نشهد مولد مفهوم جديد للتسلية والفراغ .**

(٤) ـ هل اصبح الفراغ حاجة ؟

أجل !! فحتى عندما يحول ضيق الوقت أو نقص المال أو قلة الوسائل دون ان يتمتع المرء بساعات فراغ ، تبقى حاجته الى هذا الفراغ والى التمتع به موجودة وحقيقية ، بل ان هذه الحاجة تصبح أمس وأشد يوما بعد يوم .

وفي عام ١٩٥٥ وجد ان ١٥ ٪ من المستخدمين في المدن يهتمون بشراء تجهيزات لقضاء اوقات فراغهم ـ كشراء بطاقات السفر ، واستئجار منازل ريفية لتمضية العطلة الصيفية فيها ، وشراء اجهزة تلفزيونية ، وغير ذلك ـ ، وقد وجد ايضا ان نسبة هؤلاء تعادل نسبة الذين يهتمون بشؤون الحياة الجدية العادية كشراء منزل أو شقة أو تجهيز البيت بالاثاث ، اي ان الناس بدأوا يهتمون بأوقات فراغهم مثل اهتمامهم بمعاشهم العادي وحياتهم الجدية . فقد اصبح الفراغ بالنسبة اليهم حاجة هامة ، تزيد أهميتها ومساسها كلما ازدادت الحضارة وازداد التصنيع . وقد اجريت تجارب وتحقيقات ودراسات على مجموعة من الاشخاص تتراوح اعمارهم بين ١٧ و ٣٠ عاما : فاعطت النتائج التالية :

٤٢ ٪ يرغبون صراحة في الحصول على اجازات اضافية .

٣٥ ٪ يقولون انهم « يأملون » ان تزاد اوقات اللهو والتسلية .

٣٩٪ أبدوا رغبة خاصة في الحصول على وسيلة من وسائل التنقل كالسيارة أو الدراجة أو غيرهما لاستعمالها في ايام العطل .

أي ان اكثر الناس من الجيل الحالي مهتمون بأوقات الفراغ ، ووسائل قضائها والسعي لزيادتها . وحتى في الحالات التي تضيق فيها ميزانية العائلة عن سد الحاجات الضرورية وسد حاجات الفراغ واللهو ، في آن واحد ، نرى كثيرا من الناس يقترون على انفسهم في الملبس والمسكن وحتى في الغذاء ، لكي يحصلوا على وسائل النزهة واللهو والمتعة كشراء سيارة اوتلفزيون وغيرهما . وهذا الموقف الجديد خلق مشاكل جديدة في المجتمع ، وبصورة خاصة منذ عام ١٩٥٠ اذ أنه حين تنمو حاجات الانسان اكثر مما تنمو الوسائل التي تتحقق بها هذه الحاجات ، يتولد في الانسان شعور بالفقر مع أن موارده المالية قد ازدادت بصورة مطلقة .

(٥) - هل هنالك نوع من (الاختلاف الطبقي) في قضية الفراغ ؟

نعم !! فوجود أوقات الفراغ وطريقة استعمالها يختلفان من طبقة اجتماعية الى اخرى ، وبصورة عامة فان النقص في وسائل اللهو أو في الموارد المالية وكذلك الظروف المتعلقة بمزاولة بعض المهن ، كل هذا يؤثر تأثيرا شديدا في التطور الكمي والكيفي لقضية اوقات الفراغ واستعمالها .

وقد دلت احصاءات جرت في على فرنسا أن الفرد الواحد من كبار الموظفين أو من اصحاب المهن الحرة ينفق وسطيا (١٥٥٦٠٠) فرنك كل سنة للعطل والاعياد وساعات الفراغ . بينما لاينفق الفردمن الطبقةالعمالية الا (١٧٤٠٠) فرنك فقط في المدة نفسها وللغاية ذاتها .

(٦) ـ الفراغ عند القرويين والعمال الريفيين في فرنسة

تزداد اوقات الفراغ عند هؤلاء يوما بعد يوم ، وقد حدد قانون ١٩٤٨ ساعات العمل السنوية بـ ٢٤٠٠ ساعة فقط . وما زاد عن ذلك اعتبر عملا اضافيا. أي ان الجيل الجديد من سكان القرى وعمال الحقول يتمتع بأوقات فراغ لا بأس بها . وقد ظهرت بوادر لتنظيم الاستفادة منها . فأنشئت بيوت الشباب الريفية ، وبيوت الصداقة والمنظمات الرياضية والثقافية والفنية . وغيرها .

(٧)ـ ماهي اوقات الفراغ في نظر علماء القرن السابق امثال ـ ماركس وليتره ـ

ان جميع اصحاب العقائد الاجتماعية من علماء القرن التاسع عشر قد توقعوا ان يأتي يوم يحتل فيه « الفراغ » مكاناً هاماً في شؤون المجتمع . ولكنهم لم يتوقعوا ان يكون لقضية الفراغ كل هذه الصعوبة والتعقيد والغموض أحياناً . واكثرهم عرف الفراغ تعريفاً نظرياً مبهماً فقال ماركس انه مجال التطور الانساني، وقال برودون « انه الوقت المخصص للنشاط الحر » . أما (انجلز) فقد كان اكثر وضوحاً واكثر واقعية اذ اوصى « بتخفيض ساعات العمل » بحيث يتبقى لكل فرد وقت كاف يمكنه من الاشتراك في شؤون مجتمعه العامة . أما (ليتره) فتحديده للفراغ هو انه « الوقت الذي يبقى للمرء بعد ان ينتهي عمله » وقد أخذ عنه هذا التعريف جميع من جاء بعده من الفرنسيين ، حتى كان عام ١٩٣٠ اذ أورد (اوجه) في قاموسه معنى جديداً للفراغ عندما عرفه بانه لهو وتسلية أو انشغال بأعمال يقوم بها المرء مختاراً في أوقات غير أوقات العمل الاعتيادي . ولعل أن الفرق ظاهر بين قول ليتره ان « الفراغ » هو وقت ... وقول اوجه ان « الفراغ » هو تسلية ولهو أو انشغال ، فهو بالنسبة للاول فائض ، في الوقت ليس إلا ، وبالنسبة للثاني نشاط ايجابي للهو أو التسلية .

(٨)-ماهي اوقات الفراغ بالنسبة للرجل العادي ؟

ان التعاريف التي اوردناها آنفاً ، هي تعاريف علمية تنص عليها المعاجم والقواميس ، لكنها لاتعطي فكرة عن الطريقة التي يتمثل بها الفردالعادي وبصورة خاصة العامل الصناعي دور الفراغ وتحديده . فقمنا باستفتاء منظم بين العمال فتبين لنا أن الكثرة الغالبة منهم لاتزال تعتبر الفراغ (وقتاً) أو (زمناً) ، ومع ذلك فاكثر من ربع المستفتين اعتبروه (نشاطاً) أو فعالية . وقد جرى الاستفتاء على ٨١٩ شخصاً من مختلف انحاء فرنسا ، ومن باريس بصورة خاصة . وقد اجمعوا كلهم على **تعريف الفراغ** بصورة غير مباشرة : **فكل مالم يكن داخلاً في نطاق الاعمال اليومية التوجيهية ، يمكن اعتباره داخلاً في نطاق (الفراغ)** .

وهذه (الاعمال اليومية) نفسها يمكن ان تقسم الى ثلاث زمر ، تضم الاولى (الاعمال المتادة الرتيبة) والثانية (هموم الفرد ومشاغله ومشكلاته) والثالثة وهي الاكثر اهمية تشمل (الاعمال الضرورية أو الناشئة من الالتزامات) وبصورة خاصة الالتزامات المهنية .

وعلى كل حال نثبت فيمايلي تعداداً شبه حصري لمجموعة الاعمالوالنشاطات التي تساعد على اعطاء تحديد سلبي ـ للفراغ ـ باعتبار أن كل نشاط لايدخل ضمنها لابد ان يدخل تلقائيا ضمن ، الفراغ .

١ ـ العمل المهني أو الحرفي .

٢ ـ العمل الاضافي المتمم للسابق .

٣ ـ الاعمال المنزلية (تدبير المنزل ، وما يعود بنفع مادي من تربية الدواجن وزراعة الحدائق وأعمال التصليح الميكانيكي والكهربائي وغير ذلك)

٤ ـ مجموع النشاطات اللازمة للمعيشة (كتناول الطعام . والنوم، أعمال التبرج والنظافة)

٥ ـ مجموع النشاطات الاجتماعية والاحتفالات المترتبة على التزامات عائلية أو اجتماعية أو روحية (زيارات رسمية ـ أعياد ـ اجتماعات سياسية ـ فروض دينية ـ حضور الصلاة والقداس) .

٦ ـ الفعاليات المتعلقة بدراسات يرجى منها النفع (كحضور حلقات دراسية والاشتراك في دروس تحضيرية تمهيدا لدخول امتحان مدرسي أومهني) .

وهكذا نرى ان القول بأن ـ الفراغ ـ هو ماليس « عملا مهنيا » فحسب انما هو قول غير مطابق للحقيقة . وكل النشاطات التي اوردناها في الفقرات الست السابقة هي التي يجب اخذها بعين الاعتبار . وكل نشاط خارج عنها يمكن اعتباره ـ فراغا ـ . وهذا هو التعريف الذي نراه صحيحاً .

٩ ـ ماهو الفراغ في نظر علماء الاجتماع المعاصرين؟

ان كل ماأوردناه آنفاً ، وكل الاجوبة التي وردت علينا من العلماء المعاصرين تجمع على أن الفراغ هو في جميع الاحوال ، تحرر واستمتاع . على أن هذه الأجوبة تعود فتتميز عن بعضها عندما تبحث في وظيفة الفراغ فالفئة الاولى تقول أن وظيفة الفراغ هي الراحة والثانية تقول انها التسلية ، في حين تذهب الثالثة الى أن وظيفة الفراغ هي تنمية شخصية الفرد وتطويرها ، وفيما يلي تفصيل ذلك :

ان الراحة تخلص المتعب من تعبه ، ولذلك تكون اوقات الفراغ عاملا وحيدا في تعويض واصلاح وترميم ماأصابه من تلف أو عطب عضلي أو عصبي من جراء القيام بالواجبات اليومية وأهمها العمل . ورغم ان الآلات تخفف الآن عن

العمال معظم مهامهم الجسمية فان سرعة الانتاج وتعقد العلاقات الصناعية وتشابكها، وبعد المسافات بين مقر السكن ومكان العمل في المدن الكبرى ، كل هذه الامور لاتزال تزيد الحاجة الى الراحة والصمت والى التسلي باعمال طفيفة لاتستهدف الربح.

والوظيفة الثانية للفراغ هي التسلية . واذا كانت الوظيفة الاولى تنقذ من التعب والارهاق ، فالثانية تنقذ من الملل والضجر والعامل اليوم معرض أشد التعرض للملل من جراء تقسيم العمل تقسيما مبالغاً فيه . وقد ألح كل من (فريدمان) و (لفيفر) على ضرورة التسلية واللهو للعامل ، لاخراجه عن نطاق حياته اليومية في العمل الرتيب المضجر الذي قد يتسبب احياناً في إنهاك العامل وضعضعة اعصابه وشعوره الشديد بالحرمان .

وبعد هاتين الوظيفتين تأتي الوظيفة الثالثة للفراغ وهي تنمية الفرد اذ ان الفراغ يتيح للمرء أن يخرج من آلية التفكير اليومي ، والمشاركة في الحياة الاجتماعية والتزود بالثقافة والفن ، وتنمية الجسم بالرياضة البدنية ، بحيث يسهل على الفرد أن يندمج بسهولة في الجماعات أو الاندية الثقافية والاجتماعية والترفيهية .

وبناء على ما تقدم يمكن الاجابة على السؤال المثبت في أول هذه الفقرة ، فنقول ان علماء الاجتماع المعاصرين يرون ان الفراغ :

هو مجموعة المشاغل التي ينصرف اليها الفرد بملء ارادته طلبا للراحة أو التسلية أو لكي ينمي شخصيته ومعلوماته أو يزيد مساهمته في الحياة الاجتماعية ، أو ينصرف الى هوايات فنية أو علمية ، كل ذلك بدون استهداف الربح المادي ، وبعد اتمام العمل اليومي المتوجب .

(١٠) — هل يعتبر الفراغ قوة ثورية ؟

اجل ! أن في الفراغ قوة تؤدي الى تغيرات هامة . وان الثقافة المعاصرة تزيد ارتباطاً يوما بعد يوم ، بمفهوم ـ الفراغ ـ وواقعه العملي .

ومن الملاحظ في هذه الايام ان المربين ، والزعماء ، والمناضلين ، وكل من يتصدون الى توجيه افكار الناس واعمالهم ، يدركون تمام الادراك ما يلاقون من صعوبات متزايدة في جعل فكرة ماتتسلط على الجمهور . فالجماهير اخذت تظهر الكثير من عدم المبالاة ازاء الشؤون الثقافية . وقد زعم بعض الباحثين أن شعور عدم المبالاة هذا ، مرده في الغالب الى أن موجهي الجماهير لايتمتعون بالحماس الكافي والكفاءة اللازمة . غير أن ذلك ليس السبب الوحيد في قلة الاكتراث التي يبديها الناس الآن في امور الثقافة والمعلومات المدنية . والصحيح هو أن الناس ينصرفون الآن عن هذه الامور حرصاً منهم على اوقات فراغهم واستعمالها في غير ذلك ، أي في التسلية واللهو والراحة .

ويجمل القول أن تحولات وتغيرات عميقة وغامضة تجري الآن في قلوب الناس ، مهما اختلفت طبقاتهم الاجتماعية ، وان هذه التغيرات العظيمة انما انطلقت من هذه الاشياء الطفيفة البسيطة التي نسميها اوقات الفراغ » .



الكتاب والموضوعات



الآداب

العلم السوري

كيف عرفه المهاجرون في فنزويلا

للشاعر جورج صيدح

كنا نحن المهاجرين السوريين في فنزويلا قليلٌ عديدنا كثيرٌ رفدنا . عشرات من ابناء حلب وآحاد من ابناء دمشق ألقوا رحالهم في كراكاس قبيل الحرب العالمية الاولى وعُرفوا باسم « توركو » وباسم « آكلة الحشيش » . ذلك لانهم جاؤوا من بلاد يحكمها الترك ولانهم اخذوا يزرعون ويأكلون خضر البقول في بلد لايستهلك غير اللحوم . فلما انتهت الحرب بجلاء الترك عن ديارهم تحولوا الى « فرانسوزو »لان فرنسا بسطت عليهم حماية الام الحنون .. الى ان كانت الحرب العالمية الثانية وكان اعلان الاستقلال في مؤتمر سان فرنسيسكو فانزاح عنهم ظل الحماية الاجنبية واستبشروا بعهد

* ارسلت هذه المقالة مع تحية المعرفة من باريس حيث يستقر للاستشفاء ، شاعرنا المهجري الكبير جورج صيدح .

جديد يرد اليهم كرامتهم القومية ويصون كيانهم كجالية عربية لا تقل شأناً عن سائر الجوالي المهاجرة .

منذ عام ١٩٤٥ تخلت السفارة الفرنسية عن رعاية السوريين واللبنانيين ونفضت يدهـا من كل معاملة يحتاجون اليها في الاقامة والسفر ، تطبيقاً لشروط الاستقلال وتمهيداً لحلول السلطات السورية واللبنانية محلها من تلك التبعات . ولكن مع الاسف وجدنا تلك السلطات في شاغلٍ عنا . لا تستطيع ملء الفراغ الذي يهدد حقوقنا ومصالحنا ان بقينا بلا مرجعٍ دبلوماسي او قنصلي نرجع اليه في دار غربتنا . وكيف تستطيع سورية تعميم المفوضيات والقنصليات في مختلف الجمهوريات الاميركية على الفور ، ودون ذلك مفاوضات على تبادل التمثيل السياسي مع كل حكومة تستغرق شهوراً ، وبعثات تقتضي نفقات لا قبل لدولتنا الناشئة بها .

هكذا طلع علينا فجر الاستقلال المنشود واصطدمنا بنقمة حيث توقعنا النعمة . وانتقلنا من حلاوة العهد الى مرارة القلق والشكوى . وزاد في غصتنا ان حكومة سورية ألغت العلم القديم الذي حملناه معنا الى المهجر واصطنعت علماً جديداً لعهد الاستقلال ، سمعنا عنه ولكننا لم نره ولم نظفر بنموذج منه حتى نصنع اعلاماً على شاكلته نتوّج بها منازلنا ومتاجرنا .

في شهر آب ١٩٤٥ نشرتُ في جريدة البيـان التي تصدر في نيويورك كتاباً مفتوحاً أوضحت فيه مأساتنا ، وكيف اصبحنـا رعايا دولة مستقلة لا تعرف رايتها ولا ترى وجهاً يمثلهـا في محيطنا . ثم تمنيت على اهل المروءة ان يهدوا الى اخوانهم المقيمين في فنزويلا علماً سورياً من الطراز الجديد .

كان اول من لبى نداءنا اول وزير مفوض مثل سوريا في واشنطون وأول رائد عربي مسؤول احتضن قضية المهاجرين وخصها بعنايته ، هو **ناظم بك**

القدسي رئيس الجمهورية الحالي . قال في رسالة تاريخها ١٦ آب ١٩٤٥ « قدارسلت اليكم في غلاف خاص نموذجاً من العلم السوري حسب الرغبة التي ابديتموها في كتابكم المفتوح . وارجو ان لايطول الوقت حتى يصبح لسوريا عندكم ممثلون رسميون ترجعون اليهم فيماتريدون والى ان يتم ذلك تروني مستعداً لكل خدمة . »

وعقب على هذه البشارة برسالة ثانية تاريخها ١٨ ايلول ١٩٤٥ وفيها آيات من التعاليم والتوجيهات الوطنية كقوله :

« لااعتقد الاستقلال نافعاً مالم يشعر الصغير والكبير من ابناءالوطن بنعمه وخيراته ، الفلاح في اصغر قرية كالمتمول في اكبر مدينة . »

اما بشأن الراية المهداة فقد كتب :

« اتمنى ان يكون هذا العلم السوري علماً ثانوياً لعلم الاتحاد العربي . فنحن في سوريا حريصون على ان لايرتفع في ربوع الشام علم فوقه غيرعلم الاتحاد العربي . وثقوا بانني لااتاخر عن خدمة الاخوان المهاجرين حيثما كانوا ، في شمال اميركا اوفي جنوبها . وتفضلوا بقبول شكري مع تحياتي الخالصة لحضرتكم ولكل من نطق بالضاد في ربوعكم » .

لا استرسل في رواية ماتحقق وما اخفق من آمال المهاجرين بعد هذه المقدمات ، ولا ماطرأ على حياة المهاجرين من التطورات التي باعدت بينهم وبين الوطن الام . لاني لست على يقين من ان حديثاً كهذا يهم قراء « المعرفة » فاتجاوز عنه واعودالى عطف صاحب الفضل والنبل الدكتورناظم القدسي على قضيتنا لاقول انني عند وصول هديته كتبت اليه رسالة الشكر في هذه الابيات من الشعر :

وصلت هديتك التي قبل الوصول شكرتها
فأعدتُ شكري اليوم حين فتحتها ونظرتها
ولثمتُها وضممتها ورفعتها ونشرتها
فاذا الرؤوس الخاشعات تدور حيث أدرتها
واذا الدموع على العيون كأنني استمطرتها
وهتفتُ باسمك والجموع تحفّ بي فأثرتها
وكأنها العقد النثيرُ (بناظمٍ) بشّرتها
حنّت، وقد رفّ الخيالُ، الى الحمى فعذرتها
وتوسّمت شبحَ الديار فقلت بل أبصرتها
أكبرتهُ وطناً يُدلّ براية أكبرتها
كاثرتُ امجاد الشعوب بمجده فكثرتها
وصبوتُ دون الكائنات لحسنه فأغرتها
يا رايةً أنزلتُها في خافقي وذخرتها
شنّت علي الذكريات ولو قدرتُ زجرتها
نعم الرسولة انتِ من داري التي هاجرتها
قد زرتني في غربتي فحسبت اني زرتها

الحفار

للشاعر: موسى حداد

لقد مات كما عاش — معدما — ودفن
شيخاً طاعناً في السن ولم يمش في
جنازته سوى خمسة اشخاص
اقتضت واجبات المهنة
والصداقة في تشييع جثمانه
الى مقره الأخير :

عشت السنين وانت تحفر للورى شــــتى القبور
سيان رائحة الرفات لديك أو عبـــق الزهور

* * *

عشت السنين وانت تدعو للردى بدوامـــه
فكفاف عيشك كان مرتهناً بوقـــع سهامه

خمسين حولا قـــد طويت ومابأذنك من صدى
الا لقهقهة الضريـح وصوت عربدة الردى

كم غادة بطموحهـــا لم ترتضي الا الذرى
دفع المنون بها اليك لـكي توسدهـا الثرى

كانت تنام على الحرير وتستفيق على العطور
وقرائح الشعراء فيها — استنفدت درر «البحور»

وكبير قوم ماتدنى للصغير ولا الكبـــير
لما احتواه ساعداك ارتاح في القبر الحقير

وسمعت من حشو المؤبن ماتضيق به المســـامع
وشهدت الوان الرياء على الوجوه وفي المدامع

كم دمعة ذرفت وقد اوحت الى الرائي الشكوك
ليست لها في العين الا قيمة السن الضحوك

وفتى أبيّ النفس كان البؤس كل حياته
لم يدرِ الا نعشه وضريحه بوفاته

لا البرق طيّر نعيه لا الصحف ناحت لا المحافل
بل كان صوت نعيّه نغم المجارف والمعاول

وكما قضى غماً قضيت فغبت في لجج الزمن
لم يصطحبك الى الحفيرة غير فقرك والكفن

وتركت في الدنيا أناساً للتكالب والعراك
في كل يوم يحفرون لبعضهم حفر الهلاك

اليراعات

للشاعر الهندي : رابندرانات طاغور

تعريب : الدكتور بديع حقي

« لطاغور ديوان سماه : اليراعات ـ جمع يراعة . وهي فراشة تضيء ليلا ـ . وتتسق كل يراعة في أبيات قليلة تتضمن فكرة او حكمة أو صورة . وقد نظم طاغور هذه اليراعات خلال رحلته الى الصين واليابان حيث كان يطلب اليه أن يكتبها على مراوح او على رقاع حريرية . وفيما يلي منتخبات من هذه اليراعات »

ـــ المعرب ـــ

ـ ١ ـ

ايه ياسوانح فكري ، أيتها اليراعات .

أيتها الشرارات الحية ،
المتقدة في الليل .

- ٢ -

اني أرى في رعشة الصبايا
رقصة الفضاء الخفية ،
وألمح في ألقها
نبضات السماء المكتومة .

- ٣ -

ان الزهرة الاولى التي تنوّر على هذه الارض
ستدعو الأغنية إلى أن تولد

- ٤ -

ان المصباح المهمل ، ينتظر طوال النهار ،
قبلةَ الشعلة التي تسوق الليل .

- ٥ -

إن قواربي الورقية قد صنعت ،
لترقص فوق مويجات الزمن
لا لتدرك هدفاً ما .

- ٦ -

العالم يحدثني بالصور .

وروحي تجيب بالاغاني .

– ٧ –

ان الشعاع الذي يملأ السماء ،
يبحث عن حدوده . في قطرة الندى .

– ٨ –

تظل السماء فارغة دوماً ،
حتى تبني الارض فيها جنتها من الاحلام .

– ٩ –

النهاية الحقيقية ليست في الوصول إلى الحد .
بل في الوصول إلى الكمال الذي لا حدّ له .

– ١٠ –

ان العالم الداخلي الذي انتظم في حياتي ،
اشبه بثمرة انضجها الفرح والألم ،
لتهاوى في ظلام الأرض الأصلية ،
ثم تستوفي سلسلة جديدة من الخلق .

– ١١ –

ايتها الشجرات ، أيها الجهد الخالد الذي تبذله الأرض
لتتحدث إلى السماء التي تصغي اليها .

– ١٢ –

إذا كان معنى دوري في لعبة الحياة يستغلق على فهمي

فذلك لأنني اجهل الدور الذي يقوم بأدائه الآخرون .

– ١٣ –

إن صوت الزهور الزائلة
التي تتفتح على عذار الدرب ،
دون ان تجتذب اليها النظرات التي لا تأبه لها
يهمس في ثنايا هذه السطور غير المتصلة .

– ١٤ –

حين تغرق آثاري المثقلة بالمعاني .
وتهبط الى القاع .
فلعل كلماتي الخفيفة .
تظل راقصة فوق موجات الزمن .

– ١٥ –

الولادة ، ممر من غموض الليل ،
إلى غموض أكبر ، إلى غموض النهار .

– ١٦ –

الجبال ، حركات يائسة تبذلها الارض
نحو ماهو صعب المنال .

– ١٧ –

لعل الهلال ، يبتسم . غير مصدق ، حين يقال له :
لست سوى جزء ،

ينتظر أن يستوفي تمامه .

ـ ١٨ ـ

الشكل متسق في المادة

الوزن قائم في القوة

المعنى كامن في الانسان

ـ ١٩ ـ

حين يوافي الموت ويقول لي بصوت خفيض :

ـ ان ايامك قد شارفت ختامها .

تُرى ايكون في ميسوري أن اجيب :

لم اعش وحسب ، لقد عشت في الحب .؟

ثم يسألني : اتظل اغانيك حية باقية ؟

فأجيب : لا ادري ، ولكني ادري

انني ظفرت ، بينما كنت اغني ، بالخلود . أكثر الاحيان .

ـ ٢٠ ـ

تُرى ايكون في مكنتي . قبل نهاية رحلتي .

ان أدرك ، في غور نفسي ،

ذاك الذي هو كل شيء ،

تاركاً سربالي يطفو ، على غير هدى ،

ويغيب بين الجموع ،

فوق نهر المصادفة والتغير ؟؟

العروض والموسيقى

بقلم : ميخائيل خليل الله ويردي

العروض علم نظم الشعر على الايقاع ، وهو نسبة تأليفية ، يربط نظامها بين الشعر والموسيقى ، وموضوعه تنسيق المدد الزمنية على اشكال متناسبة، غير محدودة، تبعث البهجة والطرب ، والشعور بالجمال .

اما المدد الزمنية في الكلام ، فأساسها سرعة التلفظ بالحرف ، متحركا كان او ساكناً ، فالحرف الواحد المتحرك يشكل مقطعاً مفرداً ، مثل كل حرف من (دَرَسَ) اما الساكن فيتبع المتحرك ، ويتحد معه فيشكلان معاً مقطعاً مزدوجاً كقولنا (عيدٌ) فالعين متحركة بالياء، وهذه ساكنة بذاتها ، كذلك الدال المتحركة بالضم مع النون الساكنة ، فكلمة (عيدٌ) مؤلفة من مقطعين مزدوجين ، ويوجد ايضاً مقطع ثلاثي يتألف من متحرك يليه ساكنان مثل كلمة (دارْ) وهو لايرد الا عندالوقف ، او في نهاية الشطور في الشعر ، وشذ وروده في وسط الكلام شعراً ونثراً ،لعدم جواز التقاء الساكنين ، وليس في اللغة العربية سوى هذه المقاطع الثلاثة ، فمنها يتألف جميع كلامنا نثراً وشعراً ، اما في اللغات الأجنبية ، فتوجد علاوة على هذه الثلاثة ، مقاطع اخرى كالرباعي في قولهم (شاْنسْ) والخماسي في قولهم (تراْنسْ) فالرباعي متحرك

يليه ثلاثة سواكن ، والخماسي كالرباعي ، قبله حرف ساكن ، وليس لهذين المقطعين مثيل عندنا .

والتلفظ بالمقطع المفرد يناهز لحظة من الزمن تبلغ نحو ربع الثانية ، وبالمزدوج نحو نصف ثانية : وبالثلاثي نحو ثلاثة ارباع الثانية حسب آلة المترونوم ، ويرمز الى المقطع المفرد برقم (١) أو بعلامة الموسيقى ذات السنين (دوبل كروش) ويرمز الى المزدوج برقم (٢) او بالعلامة ذات السن الواحدة (كروش) ويرمز الى الثلاثي برقم (٣) او بالعلامة المنقوطة ذات السن ، وهلم جرا ، فكل الكلام يتألف من مقاطع متفاوتة زمنياً ، يجمعها في العربية كلمة (أناشيدُ) وزنها فعولانُ أو مفاعيلُ ، وهي وامثالها كلمات لامعنى لها ، ولا فائدة منها سوى رسم ترتيب مقاطع الالفاظ في الاذهان ، على شكل ما ، والحفاظ على ذلك الترتيب هو سر الجمال المادي في الشعر العربي ، وهو الفارق الاساسي بين الشعر والنثر ، اما الجمال المعنوي فمشترك بينهما .

فاذا أخذنا مثلاً مقطعاً مفرداً ومقطعين مزدوجين ، امكن ان نؤلف منهما ثلاث صور ، نمثلها في الاذهان بثلاث تفاعيل ، الأولى (فعولنْ) وفيها يتقدم المقطع المفرد على المزدوجين، كقولنا (عظيمٌ) والثانية (فاعلنْ) وفيها يتوسط المقطع المفرد بين المزدوجين كقولنا (عالمٌ)والثالثة(فعلانْ) وفيها يتلو المقطع المفرد المزدوجين ، كقولنا (عرفانْ) ولا رابعة لهذه الصور .

اما اذا اخذنا مقطعاً مفرداً وثلاثة مقاطع مزدوجة ، فانا نؤلف منها اربعة صور ، الاولى (مفاعيلنْ) وفيها يأتي المقطع المفرد في الرتبة الاولى ،والثانية (فاعلاتن) وفيها يأتي المقطع المفرد في الرتبة الثانية ، والثالثة (مستفعلن) وفيها يأتي المقطع المفرد في الرتبة الثالثة ، والرابعة (مفعولاتُ) وفيها يأتي المقطع المفرد في الرتبة الرابعة ، ولا خامسة لهذه الصور ، ولكن هناك صوراً كثيرة غيرها ، تتكون من مجموعات اخرى من المقاطع المفردة والمزدوجة او المثلثة،تجدون تفصيلها مع الفاظها واشاراتها الموسيقية في كتابنا (بدائـع العروض) وهو جزء من فلسفة الموسيقى الشرقية ، فلنا اذن هذا القانون : ترتيب المقاطع اساس الايقاع .

* * *

قلنا ان التفاعيل كلمات لا معنى لها ، ولاغاية منها سوى رسم ترتيب الايقاع في الذهن ، فلا خلاف اذن بين قولنا(فاعلاتن فاعلن) او (فاعلن مستفعلن)لأن ترتيب المقاطع واحد في الحالين ، اما اذا قلنا (فاعلن فاعـلاتن) او (فاعلاتن فعولن) فان ترتيب المقاطع

يختلف كما ترى ، فيتبدل شكل الايقاع من اساسه . { في الشكل الأول ٢١٢٢٢١٢
{ وفي الشكل الثاني ٢٢١٢٢١٢

كل هذه صور بسيطة من الايقاع في الشعر العربي ، يقابلها دائماً عند الافرنج وزن عددي مؤلف من سبع خطوات متساوية ، كقولنا مثلا (فعلن فعلن مفعولن) أو (مفعولن مفعولاتن)

ومهما تبدلت اسماء او تفاعيل العدد السباعي عندنا ، فان مسموعه عندهم يبقى على حاله ، ولو كان الافرنج ينظمون شعرهم من مقاطع مزدوجة ، وفق خطوات متساوية مهما كان عددها ، لهان الامر ، وكانت منظوماتهم شبيهة ببعض اشكال بحر المتدارك في العروض العربية ، ولكنهم كما سبق القول ، يعتبرون كل مقاطع الكلام خطوات متساوية ، مع ان المقاطع عندهم خمسة اشكال متباينة ، فيحشرونها في شعرهم كيفما اتفق ، غير آبهين لترتيبها على اي شكل متقابل من الايقاع ، فاذا بالفوضى والتشويش تملأ اكثر منظوماتهم ، خلافا للشعر العربي الذي يفيض بالترتيب والنظام ، وهما سر الجمال الايقاعي ، بل سر الروعة والجمال في أي شيء كان .

ولهذا السبب وحده يحلى الشعر العربي برنة موسيقية فاتنة ، ليس من الوجهة النغمية ، بل من الوجهة الايقاعية ، وهذه الرنة تسمو به وتميزه عن الشعر الافرنجي ، حتى ان الاجنبي اذا سمعه طرب لنظامه الايقاعي ولو كان يجهل اللغة العربية . **أمـــا الشعر الافرنجي فليست له هذه الصفة المميزة ، لأنه لا يخضع لنظام الترتيب الايقاعي ، بل الى عد المقاطع دون التفات الى اختلافهـــا ، وهي كما سبق البيان ، تتفاوت بمقاديرها الزمنية في كل لغة .**

قال الفارابي (الايقاع هو النقلة على النغم في ازمنة محدودة المقادير والنسب) وقال ابن سينا (الايقاع تقدير ما لزمان النقرات) وقال صفي الدين الارموي في الادوار (الايقاع جماعة نقرات تتخللها أزمنة محدودة المقادير على نسب واوضاع مخصوصة ، ويكون لها ادوار متساوية الكمية ، وقد لا يكون ، ويدرك ايقاع تلك الادوار بميزان الطبع السليم المستقيم ، كما تدرك اوزان الشعر بدون حاجة الى قانون العروض ، اما اذا لم يكن الطبع سليما ، فانه لا يدرك تساوي تلك الادوار الا بالقانون) وعنا لأمر دعاة الشعر المنثور ، فهو نثر مشعور لأنـــه لا يلتزم ترتيب المقاطع ، ومهما سما فهو ضرب من السجع .

هذا كلام في غاية الوضوح ، لو كان كل انسان يعرف حده فيقف عنده ، ولكن اصغر من ينظم في عصرنا ، يحسب نفسه شاعراً مطبوعاً يعرف القانون ، وهكذا استوى اكابر الشعراء

مع أطفالهم في فهم العروض (وهل يستوي الذي يعلمون والذين لايعلمون) ؟ فكان لابد من العودة الى درس القانون . وشرح النظام الايقاعي لمن يجهلونه ، عسى ان يرتدع الذين يحاولون نشر الفوضى والتشويش بين عشاق الموسيقى والجمال ،في الشعر العربي .

ان المسألة بسيطة جدا ، لأن التوزين تعادل أجزاء الكلام أو الاصوات ، وتساوي مقاديرها الزمنية اذا قوبلت ببعضها جملة ،اما الايقاع فهو توازن تلك الاجزاء مع انسجام تنسيقها، بحيث تقابل بعضها بعضاً ، جملة وتفصيلا ، إن بين شطرين ، أو بين بيتين ، أو بين غصنين على الاقل ، فكل الكلام الذي ينظم وفق ترتيب ايقاعي مهما كان ، ينضوي تحت باب الشعر ،وكل كلام يخالف الترتيب والنظام ،ينضوي تحت باب النثر ، وكل عبارة في النثر لها وزن مهما كان ، فان تلتها عبارة تقابل وزنها كونتا معا مقابلة ايقاعية ، في الحدود التي تميزها الآذان ، اما اذا تلتها عبارة لا تقابل وزنها ، فيظل الكلام نثرا ، وهلم جرا ، واليكم امثلة على هذا كله =

الرأي قبل شجاعة الشجعان   هو أول ، وهي المحل الثاني

هذا بيت تقابل شطراه ، صدره وعجزه ، أي تساوى الوزن فيهما ، واستوت الرنة الايقاعية ، هذا حدث في لايتوفر في اجود النثر ، لنأخذ مثلاً فاتحة الكتاب الكريم (بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين ، الرحمن الرحيم) فوزن الآية الاولى (فعلن فعلن فعلن فاعلان) ووزن الثانية (مستفعلن فاعلن مستفعلان) ووزن الثالثة (مفعولن فاعلان) وكل ذلك نثر لعدم قيام المقابلة الايقاعية بين اوزان هذه الآيات.

فالشعر كله كلام موزون تتم فيه المقابلة الايقاعية ، اما النثر فكلام غير موزون ، لعدم قيام المقابلة الايقاعية بين عباراته ، فلنا إذن هذا القانون (ان النثر كله ــ وزن لا نظامي) و ميزان هذه العبارة (مفعولن مفاعلن ــ مفعولن فعولن) فهي نثر عادي ولا يمكن الادعاء بأنها بيت من الشعر لعدم قيام المقابلة بين شطريها .

ولكن اذا اعتبرنا الشطرين وحدة ، أي شكلاً ايقاعياً مستقلاً ، وصغنا وحدة اخرى على الوزن ذاته ، لتمت المقابلة بين الوحدتين مثلاً (إن النثر كله ــــ وزن لانظامي = فابحث عن نظيره ــــ في نظم الكلام)

ولو صغنا عجزا ثانياً على وزن الشطر الاول كقولنا (أن النثر كله ــ وزن غير منسجم) لكان بيتاً من الشعر . كذلك لوصغنا صدراً على وزن الشطر الثاني ، كقولنا (في بعض

الكلام — وزن لا نظامي) لكان ايضاً بيتاً من الشعر ، ولتقابل وزن الشطرين خلافاً للكلام المنثور ، وبدون هذه المقابلة لايستقيم شعر على الاطلاق .

ولو أخذنا غصناً أي قدا ، مؤلفاً من ثلاثة شطور، اولها من الرمل ، والثاني من الكامل، والثالث من مجزوء الرجز ، فان رنة الايقاع لاتظهر الا اذا اتينا بغصن ثان على الوزن نفسه ، مثال ذلك:—

١)— اعتزل ذكر الغواني والغزل — فالفخر للانسان طول زمانه — بالجد والعمل.

٢)— إن طرح اليأس مفتاح الامل — وأشد من فقر الفتى وهوانه — أن يألف الكسل

ولكن اذا استبدلنا الغصن الثاني بثلاثة شطور على ترتيب آخر ، كأن يأتي اولها من الكامل بدلاً عن الرمل ، والثاني من الطويل بدلاً عن الكامل ، وتركنا الثالث على حاله من مجزوء الرجز ، كقولنا بعد الغصن الاول =

٣)— واضرب بأرجاء البلاد لانه — قبيح بمن ضاقت عن الرزق ارضه — ان يألف الكسل

اذن لحكمت الآذان الرهيفة أن الرنة الايقاعية في هذا الغصن لاتأتلف مع ما قبله ، وبهذه الحال يكون الغصنان نثراً ، لعدم قيام المقابلة التامة بينهما ، على الرغم من ان كل عبارة فيهما ، شطر من شعر سليم ، قلنا اذن هذا القانون : **ان عدم قيام المقابلة التامة بين شطرين أو بيتين أو غصنين على الاقل ، يجعل الكلام نثراً .**

وقد تمر شطور كثيرة عفواً اثناء النثر ، فلا تستلفت الاسماع ولا تسترعي الانتباه ، لذلك لا تعتبر شعراً ، لفقدان المقابلة الايقاعية بينها ، وبين ماقبلها او ما بعدها من العبارات ، فالسر اذن ليس بايراد شطر وفق شكل ايقاعي ، ولا بايراد بضعة شطور على اشكال متعددة من الايقاع ، ان السر كل السر في قيام المقابلة الايقاعية ، سواء بين شطرين في بيت واحد ، أو بين بيتين على الاقل ، او بين غصنين أي قدين ، كما هي الحال في الموشحات ، فهي ديامن الاشكال الايقاعية ، يستطيع كل امرىء ان يتفنن فيها كما يشاء ، في حدود القانون المذكور ، والاضاعت رنة الايقاع ، وبات الكلام نثراً مسجعاً .

* * *

بعد هذا لا يتذرع احد من دعاة الشعر المنثور بقيود او حدود في الشعر العربي ،فاشكاله الايقاعية غير محدودة ، وليست فيه قيود خاصة سوى الحفاظ على ترتيب المقاطع ، لأن اهمال هذا الترتيب يجعل الكلام فوضى ايقاعية ، اي نثرا ، والشعر والنثر لا يجتمعان على سطح واحد ، فلا يقال شعر منثور او نثر مشعور ، في المفهوم المنطقي ، نعم لا يقال نظام فوضوي ، ولا فوضى

نظامية ، لا يقال نور مظلم ولا اعوج مستقيم ، فهل يرتدع دعاة الشعر المنثور بعد هذا البيان ؟ هل يفهمون بصريح العبارة انهم يدفعون الناس الى الفوضى في الفن ، بدلا عن السمو بهم الى عرش الجمال ، الذي لا يقوم الا على الترتيب والنظام . ولا يخفى ان الفوضى في الفن تؤدي الى الفوضى في كل مظاهر الحياة ، لأنه اعمقها غوراً ، وابقاها اثرا ، هذه الفوضى تقود الى التبعية الفنية في الشعر الافرنجي ، وبئس المصير ، لأن الفن ذوق وشعور ، قوامه اعطاء القوس باريها ، ووضع الشيء في مكانه .

لقد سمعنا بعضهم يقولون انهم ينظمون الشعر على التفعيلة الواحدة ، هذا هراء لا أساس له من الصحة ، لأنه لو قامت المقابلة الايقاعية بين كل تفعيلتين ، او كل مجموعة من تفعيلات مهما كانت ، اذن لبدا جمال الايقاع في اقوالهم ، فكانت شعرا سليما ، عند ئذ لا حاجة بهم الى التستر وراء حجاب ، فما يسمونه شعراً منثوراً ليس شعرا ، حتى ولا نثراً متيناً ، ولما جابهناهم بالحقائق التي بسطناها اسقط في ايديهم ، وعجزوا عن الرد ، فاعترفوا بانهم يسيرون في منظوماتهم على التوزين العددي ، شأن الافرنج في بلاد الحضارة ، وكفى ببلاد الحضارة عند المغترين بها ، والمشدوهين بفسطتها ، إماماً ونبراساً ، حتى في الشعر والنغم والايقاع ... مع أن هذه كلها كما تعلمون ، من روائع الفن العربي ، مهما تلاعب بها أو قلدها المزيفون .

ومع اننا نشك بأن منظومات اصحاب الشعر المنثور تخضع للنظام العددي كما يدعون ، فانا نريد ان نثبت لهم بمثال حسي سماجة النظام العددي وقبحه اذا قام بين مقاطع غير متساوية ، لذلك اخذنا بيتين لأبي العلاء المعري ، من بحر الخفيف ، فاطلقناهما من الترتيب الايقاعي والقافية ، اي اننا حرفنا وزنهما خصيصاً ، مع الحفاظ على عدد المقاطع وشخصيتها في كل شطر ، لأظهار الغاية التي هدفنا اليها ، فجاء البيتان كما يلي ، والوزن هو في العروض والموسيقى :

٢ ١ ٢ ٢ ٢ ٢ ١ ٢ ٢ ١ ٢ ٢ (في الشطور ١، ٢، ٣)

٢ ٢ ١ ٢ ٢ ٢ ٢ ١ ٢ ٢ ١ ٢ (في الشطر الرابع)

غير مجد في ملتي واعتقادي — نوح باك اوصوت شاد تغنى

إن حزناً في ساعة الموت يبدو — أضعاف افراح يوم ميلادنا

فوزن البيت الاول من الخفيف (فاعلاتن مستفعلن فاعلاتن) ولكنه غير مصرع ، فضاعت روعة القافية في مطلع القصيدة وبدا عيبها ، اما البيت الثاني فان صدره (اى شطره الاول) من الوزن ذاته ، اما عجزه (شطره الثاني) فمن بحر المنسرح ووزنه (مستفعلن مفعولات مستفعلن)

ومع ان هذا الوزن يساوي بالتمام (فاعلاتن مستفعلن فاعلاتن) من جهة عدد المقاطع ومددهـا الزمنية ، الا انه يختلف عن ايقاع الخفيف بترتيب تلك المقاطع كما هو واضح ، فورود هـذين الشطرين معاً في بيت واحد، او في قصيدة واحدة، **يخالف النظام الايقاعي حتى تشمئز النفوس مع انه لا يخالف النظام العددي الذي يتبعه الافرنج**، وانتم تعلمون ان العرب يسمون هذه المخالفة كسراً ، وتشويهاً في الميزان ويبدو جلياً ، ان كل شطر من هذين البيتين المحطمين يشتمل على اثني عشر مقطعاً ، بصرف النظر عن ترتيبها ، لذلك ضاعت منها بهجة الايقاع ، وانتم ترون جماله واضحاً حق الوضوح ، مؤثراً غاية التـأثير ، من مقابلة البيتين المحطمين بأصلهما السليم :

غير مجـد في ملتي واعتقادي	نوح باك ولا ترنم شاد
إن حزناً في ساعة الموت اضعا	ف سرور في ساعة الميلاد

وهكذا يتضح ان رنات الايقاع حساسة جداً ، وهي سريعة التغير والتبدل ، ليس فقط بوضع تفعيلة مـكان أخرى ، بل بمجرد اضافة حرف متحرك او حذفه ، عندئذ تنقلب الرنة الايقاعية من بحر الى آخر ، فمن كان رهيف الحس يشعر فوراً بهذا الانقلاب ، ويتذوق النكهة الايقاعية الجديدة ، ولا يخلط بين البحرين ، ولو كان الفارق بينهما حرفاً واحداً ، لأن هـذه النقرة المفردة تجعل طابع الرنة مختلفاً كل الاختلاف ، كما يختلف الليمون عن البرتقال طعماً وعطراً ، او كما يختلف عنصر عن آخر بزيادة او نقصان ذرة [illegible] تدور حول النواة ، مثال ذلك الابيات الآتية من بحر الطويل =

سواي يهاب الموت او يرهب الردى	وغيري يهوى ان يعيش مخلدا
اذا مد صرف الدهر نحوي كفـه	لحدثت نفسي ان أمد له يـدا
ويأبى إبائي أن يراني قاعـدا	ولو أصبحت كل البرية مقعـدا

وبحذف نقرة واحدة من الميزان ، تصبح هذه الابيات من بحر الـكامل =

غيري يهاب الموت او يخشى الردى	وسواي يهوى أن يعيش مخلدا
إن مد صرف الدهر نحوي كفه	حدثت نفسي أن أمد له يـدا
يأبى إبائي ان يراني قاعـداً	لو اصبحت كل البرية مقعـدا

فأين هذه الدقة الايقاعية من الشعر المنثور الذي يقيسونه بالمسطرة ... كما قال احد النقاد؟ ولعل التمرن على ادراك هذه الفوارق ، يولد في النفوس بصورة خفيـة عادة الشعور بالتناسب والترتيب والنظام ، وبادراك هذا الجمال اللامنظور ، تتهذب النفوس وتصقل ، وتصبح اكثر

استعداداً للسمو والارتقاء ، هذه اهمية الفنون في تهذيب الانسان، وفي رقي الأمم ، لأن التعمق بالدراسات الفكرية والأنتاج الفني ، يقود الى التحرر والانطلاق والابداع ، والا فان المرء يتحجر ويمسي من الخاملين ، وعلى الأقل من الاتباع المقلدين ،

ونحن اناس لا توسط عندنا لنا الصدر بين العالمين او القبر

* * *

ولعل هذا الشرح يفي بالمرام ، ويبين فضل الايقاع في الشعر العربي بطريقة عملية محسوسة، لأن اختلاف ترتيب النقرات ، في كل شكل من اوزان الشعر التي لا تحصى ، يجعل الايقاع فناً واسعاً ، نستطيع بواسطته ان نسبغ على كل لون من المنظومات المتعددة روحاً تناسبه ، وكما ان الرسام يعبر عن افكاره بالالوان والخطوط ، والموسيقار بالأنغام والاوزان ، كذلك يستخدم الشاعر نظام الايقاع ، لكي يساعد الالفاظ على ايضاح فكرته ، والشعر ليس فقط فكرة فنية تترك أثراً في النفس ،لأن المفروض في النثر ان يكون كذلك ايضاً ، والا كان ضرباً من الهراء ، اذن لافارق اساسي بين الشعر والنثر الا بأن الاول منظوم على الايقاع ، والثاني مطلق منه ، وبعبارة اخرى (الشعر ترتيب مقاطع الكلام على نظام ما) و(النثر ايراد تلك المقاطع كيفما اتفق) ولا ثالث بين هذين الحدين .

وبما ان لكل شكل من الايقاع رنة خاصة ، وتأثيراً في النفس يختلف عن سواه ، يتوجب على الشاعر ان يختار لمنظومته ايقاعا مناسباً لموضوعها ، فتقوى الفكرة الفنية به ، اما اذا نظم الشاعر فكرته على ميزان لايناسبها ، فانه يضعفها ويقلل من شأنها ، كأن ينظم قصيدة حماسية على ايقاع محزن ، أو كل انواع المنظومات على وزن واحد .

وكما ان النفوس تجد في فصائل الازهار والاطيار ، ومختلف المناظر والانغام ، مايثير فيها عواطف وانفعالات كامنة ، فكذلك تجد في اشكال الايقاع المتنوعة مايمثل مظاهر الحياة ، لأن التناسب البادي في العروض بتنسيق النقرات ، اي المقاطع على اختلافها ، يأتلف مع التناسب الموسيقي الذي انتظم بمقتضاه كل مافي الكون ، ومن مزايا هذا التناسب انه يلطف الطبائع ، ويولد الهدوء والانشراح ، ويقوم النفوس ولا اثر لهذه المزايا في التوزين الافرنجي ، الذي يستند الى تعديل النقرات بتوحيد مددها الزمنية ، اي بتطويل لفظ القصير وتقصير لفظ الطويل ، حتى تظهر متساوية بالمط والرس ، فالتوزين على هذا الاسلوب يبعث الفوضى والتشويش في النفوس بصورة لاشعورية ، عدا عن انه يفيد التقيد والتضييق ، بعكس النظام الايقاعي ، الذي يفيد التحرر والانطلاق ، باستقصائه جميع الصور والاشكال ، شأن سائر الفنون . هذه

هي مزية علم العروض في الشعر العربي ، وهذه هي صلته بالموسيقى ، فالى اين يهوي بنا دعاة الشعر المنثور ؟ هل تراهم يجهلون هذه الامور ؟ وهل لهم عذر بعد هذا البيان ؟

يقولون انهم يبتغون التجديد ، والتجديد ارتقاء من الادنى الى الاعلى ، ومن الحسن الى الاحسن ، ليس التجديد ارتداداً ، عن السمو الى الانحطاط ، وعن التقدم الى التأخر ، ليس التجديد عدولاً عن النظام ، وانغماساً في الفوضى ليس التجديد بهدم اللغة ودس الغريب ، فلقد بذل علماء العرب كثيراً من الاتعاب حتى وضعوا قواعد اللغة والعروض والموسيقى ، بعد ان مل الناس من التخبيص والفوضى ، فهل ترانا مللنا النظام في الشعر والموسيقى ، وتذوقنا الجمال حتى كرهناه ، فقام بيننا من يجهرون بالرجوع الى الوراء ، والانغماس فيما خلصنا منه ؟ لالشيء سوى الكسل والاهمال لالشيء الا لأنهم لا يريدون ان يكدوا ويتعبوا كما فعل سواهم :

ومن طلب العلى عن غير كد   أضاع العمر في طلب المحال

* * *

نحن لدينا مقاييس وقواعد في فهم الجمال ، واذا فحصنا ماعرفناه منها في العروض والموسيقى ، نثق بانفسنا ، وندرك اننا اساتذة الدنيا في هذا الباب ، وما دمنا دائماً نسعى الى الحق ونحب الجمال ، فليس على الأمم ، الا ان تحذو حذونا وتتبع ما عندنا ، فبالرجوع الى الحق فقط يتم تقارب الاذواق ، والتفاهم بين الامم على اساس سليم .

ان المنادين بالرجوع الى الوراء ، والارتداد الى الفوضى ، في الشعر والموسيقى ، باتباع التعديل الخاطىء ، انما هم زمرة مبتدئين ، تعوزهم قواعد اللغة واصول الفن ، ويفتقرون الى كثير من المفردات ، حتى يستقيم لهم صوغ عبارة صحيحة ، إن آذانهم تترنح بين سليم الوزن وفاسده ، ومع ذلك ينصبون انفسهم اساتذة ومرشدين في دروب يجهلونها ؟ يحاولون ان يسيروا على غير هدى ، وهم لو كبدوا انفسهم شيئاً من العناء بالتصعيد نحو القمة ، إذن لارتدعوا من تلقاء انفسهم عن التسكع في المنخفضات ، ولم يتذرعوا بالدعاوى الفارغة ، ولم يلجأوا الى التوزن العددي بين المقاطع المتباينة حجماً وطولاً ، كمن يضع الطفل والولد ، والشيخ والفتى في مستوى واحد ، فلا يتذرع احد باقتباس الايقاع او لغة الموسيقى عن الافرنج ، فليس كل مايفعلونه أو يجيئون به ، بالحسن الجميل ، وليس كل ماعندنا يستوجب التبديل ، ان علماء النفس وجماعة الأذكياء ، يدركون الى أين تمضي بنا هذه الاوهام ، فما علينا الا ان نكون سدنة للحق والجمال ، علينا ان ندافع عنهما ، وان نسعى لتعميمها في الدنيا باسرها ، هذا هو فخرنا يوم توزن المواهب وتتلألأ الكفاءات ، هذا هو تأثيرنا في الانسانية .

نحن اصحاب حس رهيف في فهم الحق والجمال ، نفاخر باتباعهما انى وجدناهما ، بينما يسير غيرنا في طرق ملتوية غير آبه لهما ، من هذه البؤرة تنقذف جميع متاعب البشرية وآلامها ، فعلينا اذن ان نبذل منتهى الجهد ، حتى نجر الافرنج الى الحق والجمال ، في العروض والموسيقى على الاقل ، لا ان تنجر وراءهم الى القبح والتشويه ، الى الفوضى والاضطراب .

واذا لم يتفق البشر على ترتيب مقاطـع الكلام وفق نظام مهما كان ، يأتيهم باشكال لاتحصى من رنات الايقاع ، بحيث تختار كل امة ، بل كل فرد ، مايلائم ذوقه حسب احكام ذلك النظام الشامل ، فعلى اي خلاف يمكن ان تتفق الامم ؟ هل تراها تتفق على توحيد اللغـات ؟ أم على الخلافات العقائدية ، أم على الانظمة الاجتماعية وغيرها مما يسبب خلافاً وتفرقة بين الشعوب؟ هذه درجات عالية في سلم السلام ، بالنسبة الى الاتفاق على الايقاع والانغام ، وفق احكام معروفة حددتها الطبيعة ، كما نفعل نحن وبعض الشعوب الشرقية .

واذ قد فتحنا الباب على مصراعيه ، واتينا ببحث يؤدي تشريحه الى فهم الحقيقة في هذه الناحية ، فهل ترى يقبل به من يعنيهم الامر ، ام انهم يدافعون عن وجهة نظرهم ، بجـدل عقيم ومغالطات لاتنتهي ؟ اذا كان هذا قصدهم ، فما عليهم الا ان يلجأوا معنا الى محاكمة فنية ، ماعليهم الا ان يختاروا ممثلين عنهم امام محكمة من الشعراء والموسيقيين ، تعينها السلطة المختصة ، وانني على استعداد للدفاع عن رأيي بالاشتراك مع الذين يؤمنون به ، او يوافقون عليه .

* * *

أما الذين يخالفون هذه الآراء ويشنون حرباً علينا تحت ستار التطور والتجديد ، فان الامـة لهم بالمرصاد ، وهي تعلم اننا راغبون اكثر منهم بالتطور والتجديد ، ولكن لاتجديد في النواميس الثابتة ، لاتجديد في تعاقب الليل والنهار والصيف والشتاء ، أفمـا مل منها اولئك المجددون ؟ قد يقولون انها نواميس طبيعية ، فلا سلطان لهم عليها ، وهم على قبولها مرغمون ، عندئذ نرد عليهم بان قوانـين العروض والموسيقى موجودة في الكون كناموس الجاذبية او دوران الكواكب ، انها تشبه ارجاء الارض فلا جديد فيها ، واذا كنا نجهل بعضها فلنبحث عنه ، وسوف يدرك الباحثون بعد طول العناء ، ان لاتجديد في لغة الموسيقى ، ولا في ترتيب اشكال الايقاع ، كل ذلك افتئات على احكام الطبيعة التي لاتقبل التعديل ، فهـل يأخذ المخالفون بتلك الاحكام ام تراهم يتمردون ؟

ان التجديد الذي نبحث عنه ونحبذه ، هو التجـديد في المواضيع هو البحث عن افكار بعيدة ، تنفع أمتنا والانسانية جمعاء ، التجديد هو التفنن في اساليب عرض الفكر ، لافي تهـديم

قوانين الطبيعة فهي ازلية ابدية ، فلنبتكر ولنبحث عن الاسرار ، ولناخذ عن اية امة ما نشاء من المواضيع والافكار ، فهي حرة مطلقة للانسانية جمعاء ، تظهر تارة ثم تعود الى الخفاء ؛ في ناحية دون اخرى ، ولا جديد تحت الشمس الا باعتبار ماهو معروف عندنا او غير معروف ، مألوف أو غير مألوف ، ففي هذه الناحية تبادلنا الافكار مع كثير من الامم ، ولا نزال بحاجة الى افكار جديدة في النواحي الادبية والاجتماعية ، العلمية والفنية ، الأنسانية وغيرها، ونحن على استعداد للمزيد من التعارف وتبادل المعلومات الصائبة مع جميع الأمم ، فالعلم والفن لا يعرفان جنسية ولا وطناً ، لادينا ولا لغة .

اما اساليب عرض الفكر والاساليب الانشائية الشكلية ، فهي ايضاً حرة مطلقة ، يمكن اقتباسها بلا لوم ولا تثريب ، ونحن بحاجة الى التفنن اللامتناهي في هذه الناحية ،هذا هوالتجديد الذي لاحد له ، ولا محذور منه ، لأن عرض الفكر كعرض الجواهر والازهار بفن جذاب مثير ، وابوابه واسعة جداً ، والافكار تعرض بما لايحصى من الصور والقصص والامثال ، هناك المجاز والكناية والاستعارة والتشبيه ، هناك الاساليب الرصينة والساخرة ، المفرحة والمحزنة ، المثيرة والمخدرة ، الواضحة والمبهمة ، وهلم جرا ، وهناك الاساليب الواقعية ، وهي عرض الفكرة بما هو منها ، والرمزية ، وهي عرض الفكرة بما ليس منها ، الى آخر مابين هذين الاسلوبين من درجات تقترب منهما او تبتعد عنهما ، وكل هذا التفنن لايخرج بالشعر العربي حتى يصبح أجنبياً ، ولا بالموسيقى الطبيعية حتى تصبح غربية عنا ، ولكن الخروج بالشعر عن ترتيب المقاطع النظامي، وعدها بدون التفات الى قيمتها الزمنية ، ينقله من النظام الى الفوضى ، كما ان الخروج بالموسيقى من الانغام الطبيعية الى المعدلة يخرج بها من الجمال الى والتشويه ، وليس هذا الارتداد تجديداً مستحباً ، بل تشويشاً مستقبحاً ، وانحداراً في الفن ما بعده انحدار .

هناك اذن تجديدان كاذب وصادق ، فالأول هو تقويض نواميس الحق والجمال في الشعر والموسيقى ، والثاني هو التحسين والتنظيم ،هو التشييد والبناء ، باكتشاف المواضيع والافكار والتفنن في اساليب العرض وتحسين الانتاج، واذا كان بعض الأدباء ، وهم من المثقفين ،لايتورعون عن اتباع التجديد الكاذب ، ونثر الشعر المخلع بتعديل مقاطع الايقاع بالخطى المتساوية ، فلا لوم اذن على الموسيقيين ، وجلهم من اصحاب المواهب الفطرية ، اذا عجزوا عن صد تيار الموسيقى المعدلة ، المندفع نحونا من **البلاد الاجنبية ، بفضل بعض المتفرنجين من ابنائنا ،** فلندفع عنا اذن هذه التبعية ، لأن المعاني والمواضيع واساليب عرض الموسيقى مهما سمت ، تفقد روعتها بتعديل الانغام واشكال الايقاع ، اذ لا تضارب بين الجمال المعنوي والجمال المادي ، فيمكننا ان نطلب الاول دون ان نهمل الثاني ، وليس على هذا العصر امر مستحيل .

والآن بعد **ان عرفتم تجديد ادعياء الفن ومحترفيه ، تدركون فورا أنهم شرذمة من المتشاعرين والموسيقيين المقلدين** ، مبتلاة بداء السطحية ، ضعيفة في اللغة وعلومها ، بعيدة عن الحس الفطري بصفاء الانغام ضعيفة في اساليب **عرض الفكر والتمييز بين رنات الايقاع ، فئة ضالة مضللة** ، تحارب بشدة بدائـع العروض ، لأنه يعصم المبتدئين عن السقوط في الاخطاء ، وتحارب فلسفة الموسيقى لأنها تفضح قباحة التعديل ، وترشد الناس الى الحق والجمال ، ورحم الله من قال =

اذا كنت لا تدري فتلك مصيبة   وان كنت تـدري فالمصيبة اعظم

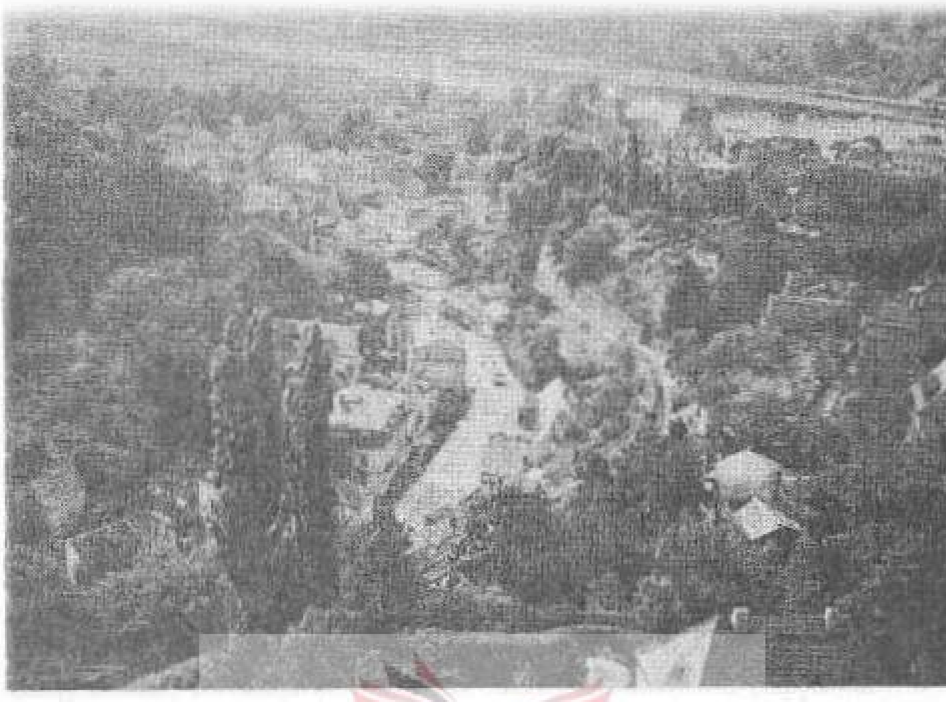
ان البلاد العربية ملأى بمن يتذوقون الشعر والأدب ، ويميزون بين صحيحه وفاسده ، مع ذلك نرى دعاة **الشعر الاعوج المخلع** ، يعملون صبح مساء على افساد ذوق الجمهور ، وليس من قوة فعالة توقفهم عند حدهم ، فكيف تكون حالنا في الموسيقى وادعياؤها كثيرون ، وتجارها المتفعون أكثر وأكثر ، بينما علماؤها اقل من القليل ، ان اولئك المتفعين يحاولون جر الأمة العربية الى التبعية الفنية في الموسيقى ، وليست هذه التبعية سوى تقليد الافرنج بالاصوات المعدلة ، والانغام المشوهة ، ان هـذا التعديل المشؤوم يشبه تعديل اشكال الايقاع في الشعر المخلع ، ان لم يكن اشد وطأة وابلـغ تأثيرا ، لأن الانغام المشوهة تفسد النفوس بصورة لا شعورية ، اما الاوزان المحطمة فان عند الفاظ وفحصها حكم بأمرها ويبدي فسادها.

ولو كان الافرنج على حق في تعديل الانغام الطبيعية لتبعناهم لأن الحق محرر والضلال مستعبد ، ولكن الحق مع العرب ، ونحن لسنا على استعداد لاتباع الخطأ ونبذ الصواب ، فالاجدر بالافرنج انفسهم ان ينبذوا الخطأ ويتبعوا الصواب ، في اوزان الشعر النظامية وانغام الموسيقى الطبيعية ، هذا اذا كانوا حقاً يريدون ، هم واتباعهم ، ان يقفوا في جانب الحق والجمال ، والفهم والانصاف ، **وانني على استعداد لاقناع علمـاء الشرق والغرب ، فليتقدم من يشاء لدحض أقوالنا** ، والا كانت قانون الفن العالمي ، حاربه المعارضون فأنكروه ، وهم عما قريب سوف يقدسونه .

أقوى من القنابل الذرية

بقلم : جلال فاروق الشريف

كان ذلك في نهاية الصيف الماضي . كنا ثلاثة نتناول قهوة الصباح في لويزن هوف Luisenhof . مثقف الماني شاب ، ومدرس في كلية الطب في احدى جامعات رومانيا ، وانا . ولويزنهوف مطعم الماني معروف في ضاحية « فايسر هيرش Weisserhirsch » في درسدن. والمطعم والضاحية اشبه شيء بمقهى انيق معلق في قمة جبل في احدى قرى الاصطياف في لبنان بين الارز والصنوبر . كانت درسدن ترى راقدة امامنـــا في الاسفل بين ضفتي نهر « الالب Elbe » القادم من براغ بعد مسير لا يتجاوز المائـة كيلو متر الا بالنذر اليسير ، والذي كان عليه ان يجتاز المانيا كلهـا تقريباً صاعداً نحو الشمال كي يصل الى هامبورغ ويصب في بحر الشمال . بين الفينة والفينة كانت عيوننا تتعلق ونحن نتأمل المدينة المسترخية في احضان النهر بالحافلة الكهربائية



نهر « الالب » في درزدن كما يبدو من ضاحية « فايسرهيرش »

وهي تتسلق الجبل قادمـــة نحونا من الاسفل من درسدن . التفت الى صاحبي الالماني على حين غرة وقال :

— بأي شيء تفكر ؟

قلت :

— لا افكر بشيء محدد . غير ان اسم « سان ريمو » هناك قـــد لفت نظري . واشرت بيدي الى فيلا جميلة على مرتفـــع صغير الى جانبنا كانت الحافلة الكهربائية تزحف قربها ببطء . بين السطوح المخروطية للفيلا المغطاة بالقرميد الاحمر كان ينتصب برج صغير يلمح الى جانبه اسم « سان ريمو » . بدا لي الاسم الايطالي غريباً هنا في صميم المانيا بين الاسماء الالمانية التقليدية المغرقة في طابعهـا السكسوني والتي كانت تقرع سمعي وبصري اينما ذهبت .

ابتسم ساحبي الالماني وقال .

— انه اسم غريب حقاً . ان القلة من اهـل الضاحية كانت تعرفه . اما بعد ليلة ١٣ شباط من عام ١٩٤٥ فان احداً من اهل درسدن الذين يبلغون نصف مليون نسمة لا يستطيع ان ينساه . انـــه منحوت في ذا كرة ملايين عديدة من الالمان .

* * *

اذا ما اجتزت جسر « **اوغست** » القديم على « **الالب** » الذي يصل ما بين شطري درسدن قادما من ضفتـه الشرقية ، فستجد نفسك في ساحة « اوغست » التي اصبحت تدعى اليوم ساحة « ديمتروف » امام « آلت شتات Altstat . وآلت شتات هي مفخرة درسدن التاريخية . انهـــا « المدينة القديمة » او مجموعة القصور الرائعة لاجيال من ملوك سكسونيا وامرائها . انها آية في فن العمارة والهندسة وبما احتوته في ساحاتها وابهائها وحدائقها من اللوحات الفنية والتماثيل والذكريات التي تمثل مرحلة مجيدة من ازدهار الفنون في عهود ملوك سكسونيا . واذا ما اجتزت ساحة اوغست متجهاً نحو اليمين فستجد نفسك في ساحة اخرى يقوم فيها تمثـال لاحد ملوك سكسونيا انها ساحة الاوبرا التي يقوم على طرفها الملاصق لنهر الالب مقصف « القرية الايطالية Italienisches Dorfchen » وهو من المغاني المعروفة في درسدن . وعلى الطرف الآخر من ساحة الاوبرا يقوم قصر « تسفنغر Zvingr » او على الاصح بمجموعة قصور تسفنغر التي تحولت الى متحف من اشهر المتاحف العالمية والتي تضم بين جدرانها « غاليرى » درسدن الشهير او متحف درسدن للوحات الفنية الذي يقف الى جانب اعظم المتاحف العالمية بما يحتويه من اللوحات الشهيرة لكبار الفنانين العالميين الكلاسيكيين امثال « رامبرنت » و « فانداك »

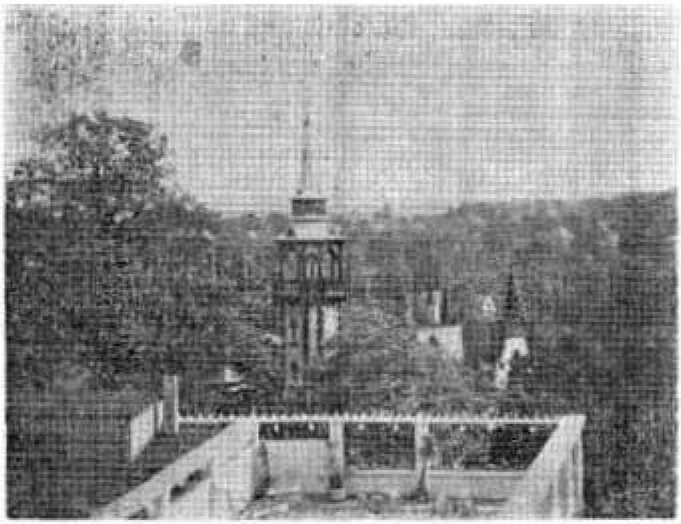
و « روبنس » وغيرهم . كل هـــذا بالاضافة الى متحف آخر تاريخي ومتحف لروائـع البورسلان ومتحف للفضيات .

خلف قصور تسفنغر يقـع مباشرة قلب مدينة درسدن . واذا ما دخلت الى المتاحف من ساحة الاوبرا فانك تستطيع اذا ماسرت على خط مستقيم ان تخرج من الـ« تسفنغر » بعد ان تجتاز الجسر الاثري المقام على خندق الماء المحيط بالقصر، لتجد نفسك امام دار المسرح « شاوشبيلهاوس Schau Spiel Haus » المطلة على ساحة « مارتن لوثر » حيث تقوم اطـــلال كنيسة النساء . ومن ساحة لوثر حتى ساحة « آلت ماركت » او السوق القديمة يمتـــد شارع فسيح يحاذى طرف « آلت شتات » قفر الا من ابنية متناثرة . ومن « آلت ماركت » يمكنك التوجه مباشرة الى « هاوبتبانهوف Hoapt. Bahnhof » المحطـــة الكبرى او الرئيسية في درسدن في ارض عراء يدهشك وجودها في قلب المدينة ويبعث في نفسك العجب. وفي منطقة السوق القديمة التي كانت ذات يوم قلباً ينبض بالحركة يقوم مجمع من المباني تتمركز فيـه الحركة التجارية . ان الـ« كونسوم Konsum » والـ هـ . و « H. o » هما النوعان من المؤسسات التي تصرف شؤون التجارة الداخلية وبيـــع السلع . اما الكونسوم فهي تعاونية الاستهلاك التي تضم جميع محال البقالة وغيرها. وأما الـ« هـ . و » فهي المنظمة التجارية التي تدير الفنادق والمطاعم والمخازن الكبرى « Handles. Organisation » وفي هذا المجمع يمكن ان تجد كل ما تريد شراءه من درسدن . وفيها « مقهى براغ » وهو من اشهر ملاهي درسدن .

* * *

عندما اقترب منا رئيس الخدم الوقور همس صاحبي يناديه بادب :

— « هر أوبر ... ايهـا المعلم .. ثلاثة فناجين من الموكا Moka . والموكا هي القهوة المصنوعة على الطريقة المتبعة عندنا ، والتي يسمونها ايضاً القهوة التركية.



برج
ڤيلا
سان
ريمو

ثم التفت الي يقول :

ـ لقد عاشت درسدن في ١٣ شبــاط من عام ١٩٤٠، ليلة رهيبة لا يمكن ان تنساها . ان قرابة مائة الف نسمة ذهبت ضحية غارة جوية رهيبة غير متوقعة شنتها عليها القاذفات الامريكية في تلك الليلة ولما يبق لنهاية الحرب العالمية الثانية غير اسابيع قليلة .

لقد ظلت بلدتنا الوادعة طيلة سنوات الحرب بمنأى عن القتال والغارات الجوية . انها مدينة جمال الطبيعة والهدوء والاوابد التاريخية والفن قبل كل شيء . وهي بالاضافة الى هذا في اقصى الجنوب الشرقي من المانيا أي في الركن القصي الذي لم تصل اليه الحرب .

ولقد جعلها موقعها هذا محط انظار جميع الهاربين من اهوال القتال فازدحمت باللاجئين الذين زحفوا اليها من كل مكان . ولقد عاشت على هذا الامل امل النجاة من الكارثة أعوام الحرب كلها وعندما أقبل عــام ١٩٤٥ وبدا ان الحرب قد اقتربت من نهايتها أخذ أهلها يتنفسون الصعداء . فالكابوس الرهيب

الذي عاشوا فيه أخذ ينحسر . وفجأة وبدون سابق انذار جاءت الضربة القاتلة التي ظلوا السنين القاسية بمنجاة منها . في تلك الليلة المظلمة من ليالي الشتاء كرت على المدينة الهاجعة مئات القاذفات تذهب وتجيء وتلقي عليها بحممها المخيفة فتحيل بردها القارس الى جحيم حقيقي وليلها الدامس الى نهار أحمر .

وتابع صاحبي الالماني حديثه قائلاً :

— لا يوجد حتى الآن احصاء دقيق لعدد ضحايا الغارة الرهيبة . غير أن كل احصاء اجرى قد اعترف بان العدد لم يقل عن المائة الف نسمة . وعلل صاحبي ذلك بقوله :

— اذا كان من الممكن احصاء ضحايا الغارة من اهل درسدن ، فقد كان ذلك ضرباً من المستحيل بالنسبة الى اللاجئين الذين كانوا يتدفقون عليها كل يوم وكل ساعة والذين لقي القسم الاعظم منهم حتفه في تلك الليلة المشؤومة .

قلت :

— ولكني لم اعلم حتى الآن صلة « فيلا سان ريمو » التي نطل عليها بتلك الغارة ؟

قال صاحبي الالماني :

— ان دور فيلا سان ريمو في الغارة على درسدن هو جانب آخر من جوانب فاجعتها . بل ان هذه الفيلا قامت بالدور الرئيسي فيها . لقد كانت الفيلا ملكاً لاحد اثرياء الصناعيين في درسدن ، وقد اتخذها مقراً صيفياً له . وكان على صلة باجهزة مخابرات الحلفاء يقدم لها المعلومات . وفي تلك الليلة قام من برج فيلا سان ريمو بتوجيه الغارة على المدينة . كان يعطي الارشادات للطائرات لتقوم بعمليات القصف . كانت له مصالح معروفة في المؤسسات الاقتصادية في المدينة ،

فاراد ان يجنبها ويلات الغارة ، لذلك قام بتوجيه الطائرات الى الاماكن الاثرية والتاريخية ، والى قلب المدينة الخالي من المؤسسات الصناعية والاهداف العسكرية ، والذي يزدحم فيه السكان وعلى وجه الخصوص اللاجئون الى درسدن !.

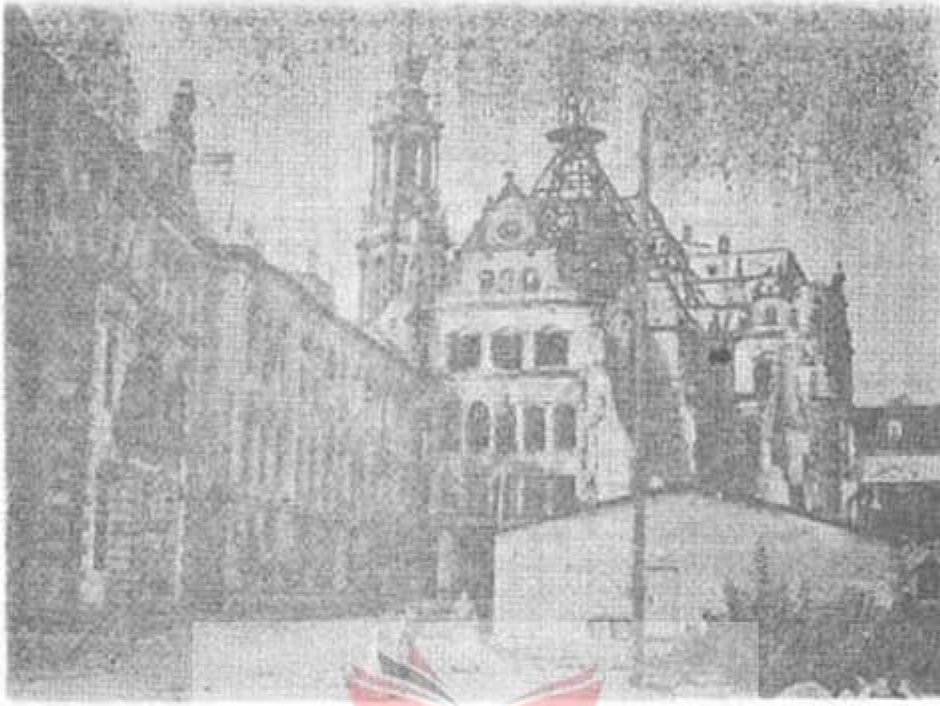
لقد تحولت قصور « آلت شتات » العظيمة الى اطلال وخرائب .

ان هامات بقايا اسوارها وقاعاتهـا وقبابها التي كانت مفخرة درسدن مازال قائمة على ارتفاعاتها الشاهقة مكللة بالخراب وسواد الحريق ينعب فيها البوم وتعشش فيها الهوام تشهد على هول الكارثة . ان قلب درسدن من امتداد ثلاثة كيلو مترات ، من « آلت شتات » حتى « هوت بانهوف » قد تحول من منازل آمنة واسواق وبيوتات وقصور وكنائس الى اطلال مرعبة تمزقت بينها اشلاء مائة الف ضحية . ان كنيسة النساء التي تقوم انقاضها الآن في ساحة لوثر قد احترقت بثلاثمائة طفل وامرأة ، ولهذا السبب يطلقون عليها اليوم اسم كنيسة النساء . **ان درسدن هي « هيروشيا » صغيرة او نا كازا كي ثانية في قلب اوربا ولكن بدون قنابل ذرية.**

* * *

كان الالم الممزوج بالحقد الدفين يقفز من خـلال كل عبارة من عبارات صاحبي الالماني .

لم تكن معرفتي به تتجاوز الاسبوعين . غير ان اسـبوعين متصلين من رفقة الطريق وعشرة الاسفار جعلتني اكثر سرعة في فهمه . لقـــد تبادلنا من الاحاديث والافكار ماجعلني قادراً على فهم عمق مشاعره الانسانية . انه يعلم ان الكارثة ليست كارثة درسدن وحدها.انه لايجهل ان مدناً كثيرة في المانيـا وفي اوربا لقيت مثلما لقيت درسدن وما هو اشد هولاً . ولـكن مأساة درسدن كانت بالنسبة اليه نسيج وحدها . انها ليست كارثـة من صنع الحرب فقط . ولو كانت كذلك لهانت المصيبة امام غيرها من المصائب الاخرى . كانت بالنسبة اليه رمزاً

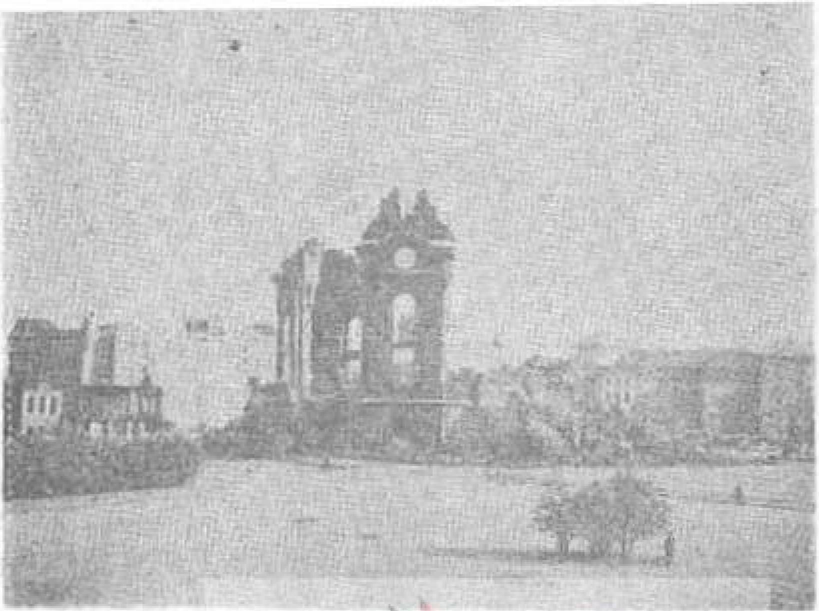


جانب من قصور آل شتات وقد هدمتها الغارة على درسدن

من رموز هذا العصر . انها الدليل الحي على المدى الذي يمكن أن تصـل اليه قسوة الفرد وتبلغ منه الوحشية عندما تتحكم فيه مصالحه وتطلق العنان لوحشيته . انها قد تطلق فيه شياطين شر أشد عتواً وهمجية من غرائز اعرق الغزاة في القرون الاولى الذين حاولوا تدمير الحضارة وافناء البشرية .

لقد عرف التاريخ غزاة كثيرين بنوا اهرامات من رؤوس اعدائهم ولكن قل أن عرف التاريخ غزاة بنوها من رؤوس مواطنيهم وابناء شعبهم حفظاً لمصالحهم المباشرة .

قد تكون شهوة المجد والفتوح هي التي ساقت عبر التاريخ من ساقتهم لانزال الكوارث بالشعوب وبالانسانية ، غير ان هذه الشهوة التي ساقت فرداً الى كارثة درسدن ، شهوة من نوع آخر . انها شهوة ليست كشهوة المجد والفتوح . انها اكثر ضعة وحقارة ولكن اشد فتكاً وعتواً . انها شهوة المال وشيطان المنافع



جانب آخر من آثار الغارة على درسدن التي ماتزال قائمة

والمصالح . انها تجرد النفس من كل القيم الخلقية وتحلها من جميع ارتباطاتها الاجتماعية والانسانية .

ان فيلا سان زعو قد توجد في كل مكان . وكل مكان يمكن ان يتحول الى درسدن ثانية اذا قامت تلك المنافع والمصالح ، وتحكمت في فرد او مجموعة من الافراد مثلما تحكمت هناك . انها لا يمكن ان تهدم ابنية مشادة وتقوض صروحاً قائمة وتفتك بمئات الالوف فحسب ، وانما قد تمزق اوطاناً وتزيل دولاً وتدمر حضارات . انها آفة القرن العشرين و « المسخ » الرهيب الذي يهدده .

* * *

كانت السيارة تتسلق بي احدى الهضاب وانا في طريقي الى « فايمار » بلد غوته وشيلر عندما القيت من عل نظرة اخــيرة على درسدن الالب يجري ودرسدن على ضفتيه بين الخضرة اليانعة . وهناك في الوسط بقايا « آلت شتات » .

هل الحجارة اكثر خلوداً من الانسان ؟

مائة الف من الرجال والنساء والاطفال ذهبوا دون ان تبقى منهم بقية ، اما الحجارة فما تزال لها في درسدن بقايا .



نكبة ابن رشد

مسرحية فلسفية في ثلاثة مشاهد

بقلم: خليل هنداوي

الأشخاص:

الخليفة يوسف بن عبد المؤمن

الخليفة يعقوب بن يوسف

ابن طفيل الفيلسوف

ابن رشد أبو الوليد

ابو جعفر الذهبي الحكيم

أبو العباس الحافظ الشاعر

أم الوليد زوج ابن رشد

أبو عامر } قاضيان من عداة ابن رشد

القاضي أبو عبد الله }

ابن بندود الحكيم

مقدمة

هل عرفت فخر الفلسفة العربيـة ؟ هل عرفت ابن رشد ؟ ابا الوليد ؟

في سنة (٥٢٠ ه) ، في مدينة قرطبة ، اعظم مدن اسبانيا شأنا ، وا كثرها سكانا ... في بيت يترامى على حدود مسجد قرطبة ، ذي الاعمدة المرمرية الفنية ، والتسعة عشر بابا من البرونز ، يضيء فيه خمسة الاف مصباح وهاج ، تفوح منها الزيوت المعطرة ، فتملأ فضاء المسجد والمدينة نوراً وعبقاً .

في هذه المدينة الجبارة ... ولد فيلسوف كبير ، جبار . هو « ابن رشد »

عرف الحكماء فضله ، واعترفوا بنبوغه ، وهاهو ذا الفيلسوف « ابن طفيل » صاحب القصة الرائعة « حي بن يقظان » يقدمه للعلم والعلماء « يوسف بن عبد المؤمن » ...

وابن رشد في الثامنة والعشرين من عمره ، لينقل اليه « آثار ارسطو » .

(المشهد الاول)

المكان – قرطبة : مجلس الخليفة   الاشخاص

١ – الخليفة يوسف بن عبد المؤمن

٢ – ابن طفيل

٣ – ابن رشد

٤ – يعقوب – وهو حدث السن (ابن الخليفة يوسف)

ابن طفيل – لشد ماحسن استظهارك لكتب الفلسفة يامولاي !

يوسف – وقد بدأت بالطب . مافضل حياة لاثقافة ولا فلسفة فيها ؟ .. اننا – هنا – ظلال لاخير فيها اذا لم تترك وراءها أثراً .

ابن طفيل – ليت كل الخلفاء يطلبون ماتطلب!

يوسف – اذاً ، لتحققت جمهورية افلاطون التي لايحكم فيها الا فلاسفة وعلماء . ولكن اين منا هذه الجمهورية ؟

ابن طفيل – ولكنك يامولاي ، ذهبت الى ابعد منها ... فها هو ذا بلاطك يغص برجال العلم والطب والفلسفة . كأنك تريد ان تجعل رسالة العلم رسالة الملوك العقلاء .

يوسف – لك الفضل ، يابن طفيل ، في ذلك .. ان كثيرين من الملوك الصالحين اذا وجدوا سرجاً وهاجة تهديهم ، فان منهم من تستهويه الملذات الحقيرة ، فتميته ، ومنهم من يكشف الله له الغطاء عن قلبه ، فيكون قوة في قلب قوة ..

ابن طفيل – ماأهدى أمة يقودها رعاة مهتدون!

يوسف – ان الراعي الصالح لا يريد ان يستغل الغباوة في رعيته ليستعبدها . إنه يحررها من قيود الجهل والغباوة لتتحرر عقولها ، وتهتدي نفوسها ..

ابن طفيل – الويل كل الويل لمن يغرس الجهل في أمته ليستثمره .. إن حصاده للشقاء – ليس ببعيد .

يوسف – إننا احببنا العلم والفلسفة ، ولذلك نريد نشرهما في أوساط الشعب حتى يستلذ ما تذوقناه ، ونرفع مستواه الى ما بلغناه ... هل تجد في ذلك من خير علينا .

ابن طفيل – ان الحكمة – لو اختارت مسكنا في اطراف العالم – لما اختارته الا عندك يامولاي ..

يوسف – ذلك ما يزيد نفسي غبطة..والله ، ليس لهذه الخزائن المملوءة بالذهب ، من غبطة في نفسي مثل ما لهذه الخزائن التي تراها تحتشد بالكتب .. لقد اجتمع لنا من الكتب الكثير منذ استبحنا مصادرتها في بيوت أربابها !

ابن طفيل – لقد كانت عادة الملوك ان تستبيح مصادرة الاموال من عند اصحابها.. اما انت فقد استبحت مصادرة الكتب ! مع التعويض لأصحابها .

يوسف – ما تصنع الكتب المصفوفة على رفوف جامدة ؟ ان الكتاب لا يحيا الا بين أيدي أحياء لنجمع الكتب ولنوزعها على العلماء يدرسونها . رب كتاب كان شعلة لمعرفة جديدة... الم نصادر كتب أبي الحجاج ووليناه ولاية حسنة؟

ابن طفيل – ياله من اغتصاب جميل !!...

يوسف – وهل ظفرت بمن يوضح فلسفة « ارسطو » ؟ ان هؤلاء المترجمين قد أفسدوا آراء ارسطو؟ لكم تمنيت ان تكون البادىء بتوضيح أغراضه.

ابن طفيل – ان « ارسطو » طود صعب المرتقى ، لانه معجزة العقل في كل حين .

يوسف - لو وقع من يلخصها ، ويقرب اغراضها بعد ان يفهمها لقرب مأخذها على الناس ، ما اجمل ان تقوم يابن طفيل بذلك ، اذاً لاغنيت الفلسفة العربية .

ابن طفيل - مامنعني عن ذلك الا الكبر... وهذا عمل يحتاج الى نشاط الشباب ودأبه.

يوسف - وهل وقع لك من الشباب احد يصح إسناد العمل اليه ؟

ابن طفيل - لا أعلمه الا فتى" أوتي ذكاء متوقداً ، وادرا كاً نفاذاً . لم اعرف فتى قبله ولا كهلاً يلم بمسائل الفلسفة إلمامه بها .

يوسف - ومن هو هذا الفتى ، لقد زدتني رغبة في معرفته... لنكرم هذا الفتى. ولنفتح له دارنا . لأنه رسول الحكمة .

ابن طفيل - إنه « ابن رشد » ...

يوسف - ابن رشد ... لا أذكر اني سمعت اسمه فاستزره لنراه!..

المشهد الثاني

(المجلس نفسه)

ابن طفيل - هاهو ذا « ابن رشد » .

يوسف - الحكيم « ابن رشد » ؟

ابن طفيل - ليس في قرطبة « ابن رشد » سواه.

يوسف - ان العبقرية تنبىء عن نفسها وازهرة العطرة — مهما توارت — فان ريحها ينم عنها . ليجلس الحكيم معنا .

ابن طفيل - لستَ ، عن الامير بغريب . هذا ابن رشد نشأ في بيت فضل وعلم ، ليس في سلفه من لم يشتغل بالعلم ، والفقه ، او الطب ، او الفلسفة ،

وكأنه ، الآن ، يرث — في شخصه الواحد — كل هذه الاغراض التي اجتمعت له على حداثة سنه .

يوسف — ان هذا ، من فتى مثله ، لأمر عظيم . إنه ليسرني جداً أن ينبغ هذا الفتى في عصري ، حتى يذكر التاريخ أن عصر يوسف هو عصر ابن رشد لقد آن للتاريخ أن يؤرخ برجال العلم والادب والفلسفة :

ابن رشد — لقد غاليت ، يامولاي ، في صفات لا احظى منها بحسنة واحدة — لولا استاذي ابن طفيل .

ابن طفيل — اني اردت ان اكون شهيداً بهذه الحسنات .

يوسف — وهل انت تشتغل بالفلسفة الآن ؟ ومن أحب الفلاسفة اليك ؟

ابن رشد — (يتلعثم) ولكن استاذي ابن طفيل يعلم أني الى الطب اميل ... اما الفلسفة ...

ابن طفيل — لاتحاول اخفاء ذلك عن الامير . لقد قدمتك له كفيلسوف ، لا كطبيب .

ابن رشد — ولكن ...

يوسف — (ضاحكا) ولكن ... ربما سبق الى وهمك أني من الذين يكرهون الفلسفة ، ويشددون النكير على الفلاسفة .

ابن طفيل — ان الامير — لولا شواغل الملك — لما اتخذ له شاغلا غير شاغل الفلسفة ...

يوسف — لست من الذين يعملون على خنق التفكير ، وقتل الفلسفة . لان الفكر المخنوق لا يلد الا أمة مخنوقة .

ابن طفيل — لقد كلفني الامير ان أوضح فلسفة ارسطو ، وأزيل عنها القلق والغموض . وما يمنعني من ذلك الا ماتعلمه من كبر سني واشتغالي

بالخدمة . فانْ كان فيك فضل قوة لذلك فافعل.واني لأرجو انْ تفي به لما اعلمه من جودة ذهنك وصفاء قريحتك .

يوسف - سيكون بذلك (ارسطو) لليونان ، و (ابن رشد) للعرب .

ابن رشد - إنني فاعل ذلك ... وارجو ان يسعفني حسن ظن الامير بي في مهمتي.

يوسف - لقد تركنا لك ماتريد،وأطلقنا يدك فيما تريد .

(يدخل ابن يوسف - يعقوب)

يعقوب - ابتي. إن عندك — مجلساً ..

يوسف - تعال ياولدي .. انه مجلس الحكمة. هكذا فليكن أعوانك وجلساؤك حين تصبح خليفة . هذا الفتى، ابن رشد ، قد اكتشفناه ، وكلفناه بترجمة حكمة ارسطو . فكن له عوناً فيما يريده ، وانصره على كل حسود . ان اباك لايوصيك الا باكرام العلماء حيثما كانوا . ان دولة — بدون علماء — لضعيفة مزلزلة مهما أوتيت من قوة .

يعقوب - ابتاه . انني على خطاك ، لن يكون آثر عندي من مجالس العلماء .

يوسف - والفلاسفة .

يعقوب - هؤلاء هم في المقدمة .

يوسف - واجعل ابن رشد — في طليعتهم .

ابن طفيل - مهلا يامولاي . كانك تودعنا .

يوسف - انما هو أب يوصي ولده .

يعقوب - ابتاه . لن انسى اسمه ابدا ... ابن رشد ...

المشهد الثالث

وهذه حلقة كان ابن رشد يجتمع فيها مع اصحابه من شعراء وحكماء . وفي

طليعة هؤلاء الحكيم ابو جعفر الذهبي والشاعر الضرير ابو العباس الحافظ . انها حلقة تبين منازع العلماء وتصور الفلسفة التي يشعر بها الفلاسفة بعد موت الخليفة الاول ، وقيام ولده يعقوب بعده .

ابن رشد مع اصدقائه – في بيته
١ – الحكيم ابو جعفر الذهبي
٢ – الشاعر ابو العباس الحافظ

ابو العباس – كنت اليوم في حلقة الامير يعقوب ...

ابن رشد – هل مدحته بشيء ؟

ابو العباس – انشدته ماجاد به خاطر ... وانه لأمير يشبه اباه... ولكن اين العطاء؟

ابو جعفر – ايكون الفرق – بينهما – لمجرد العطاء؟

ابن رشد – ولكني لا اعرفه الا عالماً اديباً كأبيه .

ابو العباس – ليس الاثنان من ثمة واحدة ، ذلك كان يجمع العلماء ، والاطباء ، والفلاسفة ... وهذا لم اجد عنده الا جماعة المتصوفين ...

ابن رشد – جماعة المتصوفين ...

ابو العباس – وماذا تقول فيهم ؟

ابن رشد – ليس التصوف من رأيي... لأن مدرسة التصوف محصورة بذاتها ... انه يعتمد على الكشف النفسي ولا يفكر الا في نفسه ...

ابو جعفر – وماذا تريد له ان يفعل اذا لم يفكر في نفسه ؟

ابن رشد – ان عندي لايكفي مازعمه الصوفيون لاتصالهم بالاله بالتأمل العميق بدون درس...أي اتصال يكون في التأمل الجامد العقيم ؟ ان السعادة العليا لاينالها الانسان في هذه الحياة الا بالدرس والاجتهاد والمثابرة .

ابو العباس – ولذلك أفنيت حياتك في الدرس والاجتهاد والمثابرة. فانبئني هل وصلت؟

ابن رشد ـ لقد تجلت لي اشياء كثيرة بفضل الدرس ؟ ولكن بقيت اشياء كثيرة لا تنجلي . ومن ذا يزعم انه بلغ كنه الحياة ؟ لو بلغنا اذاً لا تتهينا.

ابو جعفر ـ وماذا رأيت ـــ مما لم نره ؟

ابن رشد ـ رأيت أن اتصال الانسان بالاله ممكن اذا تمكن من رفع النقاب عن وجه الحقيقة ؟ ونظر اليها مباشرة وبغير حجاب. انما غاية الانسان انتصار أرقى اجزاء نفسه على حواسه . وهذه أرقى درجات السعادة . ان السبيل اليها وعر ، والوصول نادر الا على العظماء . كم من فلاسفة سعوا اليها ، وحين لم يصلوا قالوا انها وهم باطل.

ابن العباس ـ وهل ترى الانسانية واصلة اليها قبل فنائها ؟

ابن رشد ـ ومن قال لك ان الانسانية في طريق الفناء؟ الانسانية تعيش عيشة دائمة لأنها تمثل العقل الأزلي الدائم . وأما نحن بعقولنا الفردية فنفنى...ولكن المراحل التي تقطعها هذه العقول تبقى متواصلة ... متلاحقة ... كل موجة تعانق موجة . وكل مرحلة تتواصل بمرحلة . وهذا هو الاحياء الدائم للانسانية .

ابو جعفر ـ يالها من حياة لا تفنى !

ابن رشد ـ نحو غاية لا تتناهى ...

ابو العباس ـ واذاً ، فلسنا نحن الا ظلالاً ترتسم ثم تمحى ...

ابن رشد ـ بل لسنا الا هشيما يقترب من النار الخالدة فيحترق، ويستحيل لهباً بقربه من عنصر النار ... فاذا هما شيء واحد ..

ابو جعفر ـ غاية ما أقربها من التصوف ؟

ابن رشد ـ ولكنها تدرك بالوعي ، لا بالغيبوبة. وبالدرس لا بالتأمل العقيم .

ابو جعفر ـ ولذلك بت أخشى على الفلاسفة ان يستبدل بهم أهل التصوف الذين

أحدقوا بالامير ، واستبدوا بعقله ... حتى سمعته يقول عنهم هؤلاء هم ... جندي .

ابن رشد ـ ما أشقى الفلسفة والفلاسفة . كلما هموا برفع شعلتها طغت عليها ريح الدسائس والأهواء. وكلما اراد العقل ان يتكلم أخرسه الجهلاء ..

ابو العباس ـ ان من رأيي ان نعتزل الناس، ونقتصر عن زيارة الأندية العامة ... لأن قلبي يشعرني بأن الفلسفة قادمة على اضطهاد شديد .

ابن رشد ـ ومتى عاشت الفلسفة يوماً بعيدة عن الاضطهاد؟ بل متى مشى العقل على طريق لم يضرج بدم اصحابه ...؟ كل قطرة من دم عالم شهيد انما هي مشعل اضاء الانسانية. أتخشى الاذى؟ اتنكر عقيدتك؟ اما أنت فافعل اذا شئت واما ابن رشد فهو لا يتزحزح عن رأي رآه عقله ، ولو انكره الناس جميعهم.

ابو العباس ـ ما هذا قصدت . انا نحن اصدقاء جمعتنا أخوة الفكر ولن يفرقنا انسان ولكنني اردت الاحتراس . الم تسمع ما قاله ابو جعفر؟ ماذا يقول الامير غدا واعداؤنا عندما يبلغهم قولتك ؟ ـ ان الظالم هو الذي يحكم الرعية لمصلحته لا لمصلحتها . وقولك بتعليم الأمة الفضيلة بقوة الفصاحة والشعر والعبارة ... ـــ

ابن رشد ـ لقد قلت هذا كله كمبدأ لي ...

ابو جعفر ـ وهل يفهم الامير هذا ؟ وهو الذي قتل اخاه وعمه صبرا في سبيل ملكه وأمس قبض على أخيه الثاني وحاكمه وقتله بمحضر من الناس ؟

أم الوليد ـ (داخلة عليهم)

ـ رباه . ما سمعت اصواتكم تتعالى في ليلة كهذه الليلة . هل انتم في جدل، ام خلاف ... ام ماذا ؟

ابو العباس ـ مهلاً يا ام الوليد ـــ قد أطلنا الليلة أكثر مما يجب .

ام الوليد ـ ولكن الدار داركم ...

ابن رشد ـ لن يزعج ام الوليد منا شيء ... انها صارت منا ... ولو نزعت النساء منزعها لأصبحن مساويات في العقل والفنون للرجال . ماذا يمنع المرأة ان تكون كمثلنا ؟ للمرأة مواهب لا تنقص عن مواهب الرجال .

ابو جعفر ـ (متضاحكاً) ولكن لو استثنينا أم الوليد فاين المرأة الموهوبة ؟

ابن رشد ـ أتنسى يا أباجعفر. ان حال العبودية التي أنشأنا عليها نساءاً أتلفت مواهبها العظمى ؟ وقضت على اقتدارها العقلي .. ؟ ان الخمول فيها داء موروث فلنعطها حرية العمل والتفكير تمد اليها مواهبها حية ، فعالة . أما الآن فحياتهن تنقضي كحياة النبات الطفيلي....

ابوالعباس ـ قم ابا جعفر . لقد طال بنا المكوث ... ولنترك ابا الوليد مع ام الوليد . (يذهبان)

ام الوليد ـ لقد فهمت سبب الجدل ... وانت لا اراك ترفق بنفسك...أفنيت حياتك بالدرس والمثابرة والاجتهاد ، وأخشى ان تذهب حياتك هدرا .

ابو الوليد ـ اني لا اشاطرهم سوء الظن في هذا الامير الشاب ، مهما احيط به. انه ابن ابيه... يحب العلم، ويكرم الفلسفة... ولئن تصوف اليوم فانه سيتفلسف غداً.

ام الوليد ـ ان قلبي خائف منه... ان الرجل الذي يسفك الدماء لا يحترم الحكمة .

ابو الوليد ـ انه كلما رآني اكرمني وكلما لقيني حثني على اتمام ما وكلني به ابوه .

ام الوليد ـ ودسائس الحساد والمتعصبين؟

ابو الوليد ـ قد تكون هناك دسائس ووشايات، ولكني لا اخشاها الآن عقيدتي أقوى منها؟

ام الوليد ـ ولماذا لا تبقيها بالإنعزال ؟

ابو الوليد ـ لا خير في علماء يكتمون رسالتهم حين يضطهدون. رسالة العالم لا تشتعل الا في زمان الاضطهاد .

ام الوليد ـ أو معول انت على الثبات اذاً !

ابو الوليد ـ وماذا ينتظر ابن رشد من الحياة بعد السبعين الا ان يموت مخلداً رسالته.

ام الوليد ـ واذا أعدمت ...

ابو الوليد ـ فان التاريخ لن ينسى اسمي .

ام الوليد ـ اجل ان التاريخ لن ينساك ...

(لقد صح ماتوقعه اصحاب ابن رشد . لان النفوس الدنيئة تضيق باهل العقول العالية ، وطالما نسجت مثل هذه المؤامرات لأهل الفكر . وطالما حركوا الحكام والعوامل عليهم . وهاهي طلائع النكبة تنذر ابن رشد) .

المشهد الرابع

« في مجلس الأمير يعقوب ، وقد احتشد عليه علماء، ومتصوفون يثيرونه على ابن رشد ... في مدينة قرطبة »

الاعداء — ابو عامر — القاضي ابو عبد الله .

ابو عامر ـ ما أهنأ قرطبة الآن بظل اميرها .

ابو عبدالله ـ لقد أعدت الى الملك هيبته.وأدبت كل طامع .

ابو عامر ـ ولكن ليت الجهاد يقف عند هذا الحد. ان الشريعة تنتظر من يصون حرمتها .

يعقوب ـ وهل من يجرؤ على مجابهة الشريعة ؟

ابو عامر ـ هؤلاء الحكماء الذين لهوا بدراسة الفلسفة ، وأكبوا على كتب الاقدمين ، وافسدوا على الناس اعتقادهم .

يعقوب ـ الحكماء ... وهل يخرج حكيم على الشريعة ؟

ابو عامر ـ ان ابن رشد لم يزدد الا ضلالا ... فهو في الفلسفة يفسر احكام الشريعة، وفي القضاء ، لايفتي الا باحكام عقله ، حتى ضج الناس منه... وعجبوا لسكوت الامير عنه .

يعقوب ـ ابن رشد الرجل الذي أحسن اليه ابي يقترف هذا ؟

ابوعبدالله ـ وكأنما أطمعه ذلك فيه .

ابو عامر ـ بل تحامل عليك ، وسخر من تصوفك بعد تركك دراسة الحكمة ، وصحبة الحكماء .

يعقوب ـ أنا لم ار الا ان يكمل وصية ابي .

ابو عامر ـ والآن يريد ان يحكم الناس بالفلسفة ...

ابوعبدالله ـ ان سعادة الانسان عنده تقاس بعمله بالمنطق... ولاشيء يوصل الى الحقيقة المثلى الا المنطق .

ابو عامر ـ بل يريد بالمنطق أن يبدل المعيشة الاجتماعية .

ابوعبدالله ـ بل وضع (جمهورية افلاطون) اساساً لبناء الدولة الجديدة .

ابو عامر ـ تحل محل دولة الشريعة ...

يعقوب ـ إذاً ، لقد ضل الرجل ...

ابو عامر ـ ماكان سكوتك عنه ليزيده الا ضلالا .

ابوعبدالله ـ الجهاد في الشريعة كالجهاد في الحرب .

ابوعامر ـ بل يكون جهاد هؤلاء أولى من كل جهاد، لانهم يستهدفون تحطيم الدولة.

يعقوب ـ وما عقاب أمثال هؤلاء ؟

ابو عامر ـ الا أن يُقتلوا ، أو يُحرقوا ، وتحرق آثارهم معهم .

يعقوب ـ ويحك يا أبا عامر . أنستحل قتل أهل الفكر لفكرهم ؟

ابو عامر ـ ولكنك تقتلهم لكفرهم .

يعقوب ـ وهل فعل أسلافي ذلك من قبل ؟

ابو عامر _ التاريخ مملوء بالشواهد .

يعقوب _ أخشى ان ارتكب شيئاً لا ترضى عنه روح ابي .

ابوعبدالله _ لنترك أمر ذلك الى القضاء .

يعقوب _ ذلك أدعى الى العدل . حاكموه في مجلس عام .

ابو عامر _ ومن يذهب مذهبه ؟

يعقوب _ ومن يذهب مذهبه .

المشهد الخامس

(في نفس المسجد الذي تلقى فيه ابن رشد علومه ، يفتح صدوره الآن ، ليلقاه متهماً ، لا متعلماً . وقد جاء القضاة من كل صوب لمحاكمته ..)

(في مسجد قرطبة _ مجلس قضاة فيه الامير يعقوب _ ابو عامر _ ابو عبد الله _ ابن رشد _ ثم تدخل ام الوليد لتشركه في منفاه وجزائه .)

ابو عبدالله القاضي _ ان الاشياء لا بد في كثير منها ان تكون لها جهة نافعة وجهة ضارة كالنار وغيرها . فمتى غلب النافع على الضار عمل بحسبه . ومتى كان الامر بالضد فالضد .

هذا ابن رشد الذي تقلد الحكمة خرج عن وجهها النافع واستعملها لضرب الشريعة .

ابو عامر _ هذا ابن رشد واصحابه ثبت أنهم مرقوا من الدين وخالفوا عقائد المؤمنين باشتغالهم بالفلسفة وعلوم الأوائل .

ابو عبدالله _ هل لابن رشد ان يدافع عن نفسه؟ وصحبه ؟

(سكوت).

ابو عامر - تكلم ايها الحكيم ... هل أسكتتك التهمة، وأخرس الحق بيانك ؟
ابوعبدالله - عرفناك متكلما منطقياً . فما لك لاتحسن اليوم الكلام
ابوعامر - ارأيت يامولاي ؟ كيف يبهت المجرم اذا دعي الى الحق
ابوعبدالله - انهم استوجبوا اللعنة جهاراً .
ابو عامر - والحرق علناً .
ابن رشد - لاتنتظروا مني دفاعاً ! انني مستقبل حكم الامير بشجاعة كما استقبل سقراط الموت .
ابو عامر - ها ... ها ... أرأيت أيها الامير بمن يتمثل؟ بحكماء اليونان ومناطقتهم ؟
يعقوب - سمعت أنك تحمل على التصوف .
ابن رشد - قلت ان التصوف طريق ذاتي الى المعرفة . واما المنطق فهو طريق عام الى معرفة الحقيقة .. ليس في التصوف جهد ولا مثابرة . ولا يفيد التصوف الا صاحبه .
ابو عامر - أجحوداً لفضيلة التصوف والكشف ؟
ابن رشد - ليس لى ما أقوله ... ان حكمكم على سنن محاكمتكم .
(تدخل ام الوليد)
يعقوب - من الداخلة على مجلس القضاة ؟
ابوعبدالله - هذه أم الوليد ...
ابو عامر - لعلها جاءت متشفعة به .
ام الوليد - لا اريد الشفاعة به اذا كان مجرما ... انما جئت مذكرة مولاي . . . هذا ابو الوليد صنيعة ابيك ، (همهمة في المجلس) لم يقدم الاعلى ماطلب منه ابوك ... احذر يامولاي أن تخضب يدك بدم الحكماء ...
أبو عامر - أمنذرة أنت ؟
أم الوليد - لاتعد مأساة (سقراط) ! لقد مات سقراط ومن حاكموه لكن حياته باقية ... وحياتهم ملعونة .

ابوعبدالله ـ ليس في مجلسنا قضاء لامرأة .

يعقوب ـ دعوها تتكلم . ان قضاء قرطبة لايعرف الا العدل.

ام الوليد ـ إن قضاتك لايحركهم الا الحقد والحسد والتشفي .فلاتكتب في تاريخك صفحة سوداء .

ابو عامر ـ أتخافين على حياته ؟

ام الوليد ـ ان ابن رشد بقية اليوم أوغد ... ماذا يرجو من الحياة بعد السبعين ... ولكني اخاف على تاريخك ان يتلوث .

ابوعبدالله ـ ياله من دفاع !

ام الوليد ـ أتريدون محاربة الفكر ؟ بتعذيب اصحابه ؟ لقد مات المعذبون ولكن الفكر نفسه لايموت .

ابو عامر ـ نريد استجواباً على ما اتهم به زوجك . وهل نقضي على الشريعة اكراماً للفكر ؟

ام الوليد ـ ليس للشريعة من مدخل؟... ماذا اخذتم عليه؟ أدراسته الحكمة ؟ ابراعته في الطب ، اجتهاده في القضاء ؟

ابوعبدالله ـ لاشيء لنا من ذلك ... ان الشريعة تطلب حقها .

ابن رشد ـ ان كانت تطلب دمي فهذا هو دمي ...

يعقوب ـ قد انتهت المحاكمة ... لقد حكمت بنفي ابن رشد وصحبه في معتزل عن الناس . . .

ابو عامر ـ لقد نصر الله الحق ، وطهر البلاد من دنس الملحدين .

ابوعبدالله ـ لايدخل عليهم احد ، ولا يخرجون الى احد... ومن عثر على كتاب من كتبهم فليحرقه في النار ... حتى لايذكر بعد اليوم احد اسمه ...

ام الوليد ـ ابو الوليد لايذكر أحد بعد اليوم اسمه ؟ . . .

ابن رشد ـ لا بأس ... ان الحكمة لاتبكي . . .

ـ المشهد السادس ـ

(في سنة ٥٩٥ هـ شهد جماعة لابن رشد واصحابه ، وتأثر ضمير الامير نفسه)

١ - يعقوب على فراش العلة الأخيرة .

٢ - ابن بندود .

يعقوب ـ أريد أن أسارك في شيء طالما تألمت له .

ابن بندود ـ لعله أمر ابن رشد وجماعته .

يعقوب ـ هو نفسه . ولا أدري كيف اتهموا هذا الرجل، ولا أدري كيف حكمت عليه بالنفي . طلبت اليهم ان يأتوني بهم جميعا . ما تقول في ذلك ؟

ابن بندود ـ الرأي ما يراه الامير . ولكنهم ليسوا ـ والله ـ الا اهل علم وحكمة .

يعقوب ـ هذا ما رأيته ... ولئن يجب علي ان استغفر الله عما اتيت بحقهم وجب علي شكره لانه كف يدي عن الفتك بهم . ولم يكن بيني وبينهم الا ان أحكم .

ابن بندود ـ وتلك نعمة اخرى ...

يعقوب ـ اذا لكنا شر الامثال لمن بعدنا من أجيال . والدي كان يقرب الحكماء وانا أقتلهم ؟ ...

ابن رشد ـ (داخلا مع الذهبي) سلام الله على الامير . وعافاه من دائه ...

يعقوب ـ كيف حالك ؟

ابن رشد ـ على ما تعرف .

يعقوب ـ لعلك ظننت أني دعوتك لتداوي دائي . اني دعوتك لأستغفرك عما جنته يدي ... لقد كنت بريئاً ... ولكن سبقت كلمة الحكم .

ابن رشد ـ الحمد لله الذي هداك الى طريق الحكمة ، واذا كان الأمر كذلك فلا ذنب لك عندنا ، الحكمة تبتلي اصحابها وتهذبهم .

يعقوب ـ أي يومك كان أشد عليك في محنتك ؟

ابن رشد ـ ما اشتد علي يوم كذلك اليوم الذي دخلت انا وولدي فيه مسجداً بقرطبة وقد حانت صلاة العصر . فثارلنا بعض العامة ، فأخرجونا منه قهراً .

يعقوب ـ أصداً عن بيوت الله ؟ بئس ما يفعل الجهل بأصحابه . والآن كيف تجد طريقي الى التصوف ؟

ابن رشد ـ ان الحكمة لا تتعصب لطريق دون طريق وانما تطلب المعرفة بأي طريق.

يعقوب ـ يالك من حكيم ! وهل تنسى اساءتي اليك ؟

ابن رشد ـ اذاً لستُ بالحكيم.

يعقوب ـ سأردك نقيبا للحكماء والاطباء.

ابن رشد ـ ولكن لم يبق من العمر الا ما استريح فيه ... أقلني منه ايها الامير . او اسنده الى ابي جعفر الذهبي . فهو خير كفء له .

يعقوب ـ كما أوصيت... وكيف حال ام الوليد ؟ لست أنسى موقفها يوم المحاكمة .

ابن رشد ـ انها كانت سلوتنا في النكبة ، وكانت تنتظر الحرية في كل لحظة ، لأنها ادركت ان الحكيم ليس بحكمك .

يعقوب ـ ما أعجل سير الحياة ! أتذكر أمس كيف كنت ادخل على أبي ، ها قد تداركني الشيب في سن الشباب ... فشاب الروح والجسد معاً .

ابن رشد ـ هون عليك. قد يأكل الطموح من نفس صاحبه ... هكذا كان ابوك .

يعقوب ـ أتذكر يوم اقسمت له بانني لن أنسى اسمك ؟

ابن رشد ـ إنه قسم بررت به . وهل نسيت اسمي ؟ انك لم تنسه راضياً عني وغاضبا علي.

يعقوب ـ لله درك . لقد اشعت الفرح في صدري. وارجو الله ان يوسع في عمرك

حتى تغتبط الحكمة بك ... ماضر ان تكون انت فيلسوفاً ، وأنامتصوفا مهما اختلفنا فاننا سنتلاقى .

ابن رشد ـ لاعبرة بالطريق الى الحقيقة ... وانما الحقيقة في الوصول اليها...

يعقوب ـ هل وصل الينا من احد قبلنا ؟

ابن رشد ـ اذا لم نصل اليها كأفراد ، فالعقل الانساني العام يقترب منها... بفضل جهاد العقول . عقل يتمم عقلا . ونار تمد ناراً .

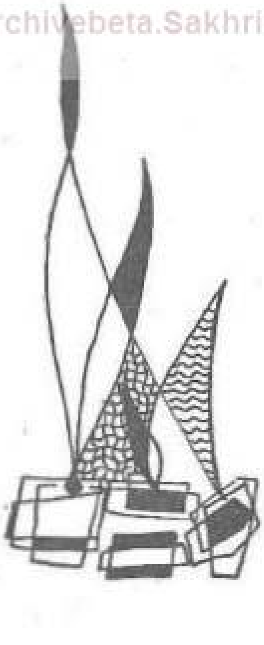
يعقوب ـ انه ليسرني جداً أن اكون في عصرك .

ابن رشد ـ ولكنك تبقى صفوة عصرنا دائما.

يعقوب ـ ولكنك حي بي وبدوني ... ماقيمة الأندلس بدون فلسفة ابن رشد ؟

ابن رشد ـ ان الأندلس لن تنسى اسمك ابداً..

يعقوب ـ مادامت تذكر اسمك ابدا ...





الفنون

الكتاب والموضوعات

الصورة الذاتية

AUTO-PORTRAIT

بقلم : كلير هيلين هوكي

تعريب : الدكتور ابراهيم الكيلاني

تدخل الصورة الذاتية ، أي صور الفنانين التي صنعوها بانفسهم ، ضمن تيار تطوري بدأ منذ عصور ، أي عندما أخذ الفنان يعي شخصيته وفرديته .

أما اليوم، وبخاصة بعد أن وصل إلينا التراث الرومانتيكي للقرن التاسع عشر ، فان المشاهد لايعجب إطلاقاً من انفراد الفنان بصنع صورته . فاذا كان الفنان ، ككل كائن انساني ، قد شعر بحاجة الى ان يترك صورة ثانية لذاته تكون اكثر ديمومة من واقع جسمه الزائل ، فانه لم يجرؤ تقريبا الا منذ ثلاثة او أربعة قرون على أن يكل الى آثاره دور تأبيد وجوده.
وقد طفق الفنان ، سواء أكان محدثاً أم خجولاً في تصرفاته ،

ام مخالطاً المجتمعات ، ام قلقاً ، يعبر عن نفسه بطريقة أكثر حرية تبعاً لتطور الافكار. وكان نوع من الخفر في الماضي يمنع الفنان من صنع الصورة الذاتية ، على اننا اخذنا نشهد في عصرنا الحديث نوعاً من التهتك المساير في صنع الصور الذاتية وقد اقتضى عدم تهيب الفنان من الظهور في آثاره ، والاعتراف من خلالها بدخائل نفسه ، ان تتمّ جميع مراحل التبدلات الاخلاقية .

بداية ظهور الفنان

إن الحاجة الاولى الى وضع الطابع الخاص على الاشياء هي حاجة كل كائن ، لأنه يخضع لرغبة البقاء في أثر يخلد من بعده . وهذا في الاصل من الدوافع الاساسية التي أهابت بالناس **الى صنع الآثار الفنية** ؛ فالصورة الذاتية إذن أكثر الاساليب كمالاً التي تتيح للشخصية التعبير عن نفسها بصورة مستمرة في شيء يمنحها الديمومة . وقد حاول الانسان ، قبل اللجوء الى هذه الوسيلة ان يدفع القلق الذي يثيره فيه ازواؤه المحتوم عن عالم الاحياء ، وان يتحاشى الاضمحلال بوسائل اصطناعية مختلفة .

إن أولى تلك الاعترافات هي بصمات الايدي التي سجلت على جدران مغاور ماقبل التاريخ امثال آثار الايزي [1] Eyzies ، وقد يكون ، في بعض الاحيان ، نقش الحروف الاولى من اسماء الفنانين الصنّاع المغمورين على احجار الكاتدرائيات من مظاهر هذه الاعترافات ، إلا في الحالات التي نجد فيها انفسنا تجاه علامات استعملت للدلالة على طريقة مثلى في المحاسبة تسجل عمل كل فنان . ولا حاجة الى التحري عن الصور ، فان الآثار المضاة فحسب ، هي قبل عصر النهضة نادرة جداً ، ومن المفيد الاشارة الى وجود كنيسة في منطقة لوت Lot في فرنسا

---

(١) بلد في جنوبي فرنسا اكتشفت فيه آثار من القرون الوسطى ، كما انشيء فيه متحف ماقبل التاريخ .

يحمل سقفها توقيعاً . ان وجود الاسم بروز محتمل الشخصية ، ويعتبر تسجيله ، بشكل أدق على الاثر الفني ، كتقديم فكرة تمثيلية عن ذاتية الفنان ، بما يقتضي نوعاً من الفردية .

إن هذا الانفكاك من صميم الجماعة لايتناسب وروح الخشوع التي فرضها الدين المسيحي ، والتي غلبت على الاذهان في ذلك الزمن .

كانت الحياتان ، الفنية والعقلية ، في العصور الوسيطة غارقتين في نزوع وجداني نحو الله ، وكان معنى الأثر الفني لايبلغ مداه إلا في القربان المقدم الى الله، إنه لايمان صهرت فيه انواع النبوغ كما تصهر في دمدمات الصلاة المغفلة ، إنها تلك الكاتدرائيات المنتصبة الصاعدة نحو هذا الذي تريد تمجيده ، إنها تلك اللوحات التي عندما تريد احياناً أن تشير الى القربان ترسم ملامح نصير الفن الذي صنعت له الصورة ، وبهذه المناسبة ترى الفنان يبرز في شيء كثير من التردد والخجل ، فهو يقف الى جانب الواهب ليهب هو ايضاً بدوره نتاج ابداعه ونبوغه ، إنه يؤدي فريضة عبادة ، ولكنه يشعر برضى — يقل وعيه ويكثر — بأنه سيخلد ذكره في العمل الذي يهبه ، والشكل الذي يعطيه اياه .

الفردية في عصر النهضة

إن انقلاباً آخذ في الاقتراب ، فان العصر الوسيط قد آذن بالزوال ، وسيشهد انهيار الايمان الذي كان يدعمه ، واصبحت روح العصر مهددة، كما اصبح التوازن الالهي المركزي Théocentrique الذي يسنده مفقودا ، واخذ الانسان يقترب رويداً رويداً من واجهة المسرح لكي يؤدي فيما بعد الدور الأول ، وكما يشهد بذلك كتاب « عجائب الدنيا » لم يعد الفنان سنة ١٤١٥ يركع امام الله ليقدم له أثره الفني بل امام رجل آخر هو الملك .

وقد أخذ الفنان الذي لم يعد يعتبر نفسه صانعاً ،سواء أكان واهبا ، أواحد البطانة Comparse ، او متفرجاً ، يمثل نفسه في آثاره اكثر فاكثر ، وهنا يكمن الفارق الكبير الذي يميز الفاصل بين العصر الوسيط والنهضة ، فقد شعر الفنان بالكرامة التي تقتضيها حالته ، اما الصانع فلم يعد سوى المنفذ لعمل يتجاوز قدرته والذي هو بكل بساطة العمل الذي فرض عليه ، وهكذا فاننا نشهد الفنان سنيورلي Signorelli الذي رسم في اعقاب انجليكو Angélico المناظر الرائعة «ليوم القيامة » قد رسم نفسه في اسفل اللوحة الى الشمال ، ويلفت نظر المشاهد شخصان ارتديا ثياباً سوداء والتحما باجزاء اللوحة وانفصلا عنها في آن واحد ، انهما انجليكو وسنيورلي ، فقد وقفا جنباً الى جنب ينظران الينا ، تنبعث علائم الحزم من عيونهما الكئيبة التي تحدق الينا باصرار وحدّة كأنهما يبلغننا رسالة . **إن محاورة الفنان والمتفرج قد بدأت .**

ولاريب في ان المراحل ستكون متعددة ، واذالم نصل بعد الى مرحلة الصورة الذاتية كغاية في حد ذاتها ، فاننا نشهد في معزل عن مجموعة ما مصورة على اللوحة تنفصل عنها شدَف Silhouette الفنان ، وهكذا نرى في لوحة « مدرسة اثينا » رافائيل مصحوبا بأحد الاساتذة الذين يجلّهم ، وقد نلحظ احيانا ان وجود الفنان مردّه الى الاعجاب الذي يكنّه لهؤلاء الذين جمعهم في لوحته ، ففي لوحة « التجار المطرودين من المعبد » نرى ان لوغريكو Le Grecoغير موجود برفقة تيسيان Titien وميكلانج Michel—ange ورافائيل Raphaël او كلوفيو Clauvio

الجهد الجرماني

ان الفرد يبدو بسرعة في المستوى الامامي للوحة وذلك في البلاد الجرمانية حيث الانفصام عن الكثلكة اكثر وضوحاً ، فهو هنا في واقعية

حياته اليومية . فان الكاثوليكي اللاتيني يشعر بوازع وجداني يحول دون انفصاله عن المجموع ، حتى اذا هدأ الاعتراف الديـــني من ثورته كان شعوره بضرورة الافضاء بدخيلة نفسه الى شخص آخر اقلّ عنفاً .

وفي الوقت الذي انضم فيه الفنان سنيورلي الى جماعة الفنانين الايطاليين الاوائل الذين مثلوا انفسهم في لوحاتهم نجد الفنان دورير Durer في المانيا يصنع عدداً كبيراً من الصور الذاتية ، تراه باديء بدء في شكل شخص صغير الحجم في اسفل لوحته « الثالوث الاقدس » في فيينا ، ومن الصعب القول فيما اذا كان هنا كغيره من الفنانين الذين يقدمون بخشوع آثارهم كقربان ، ام انه يجدر بنا ان نقرنه بفناني عصر النهضة الفخورين باثبات وجودهم المبدع نظراً لما يكتنف الانتقال من العصر الوسيط الى عصر النهضة في المانيا من الغموض . وقد اتخذ دورير نفسه كثيرا مثالا سواء في الرسم الزيتي او الرسم ، ولم يكن هدفه من ذلك ايصال الفائض من روحه المضطربة الى المشاهد ، فان هناك دوافع نفعية وراء هذا العمل ، ففي اللوحة المخصصة لخطيبته مثّل دورير فيها رمز الوفاء ، وقـــد لقط باصبعيه زهرة الشوك ، وفي اللوحة المهداة الى طبيبه حيث اشار فيها الى موطن الداء يبدو الفنان الموجع كما لو كانت ملامحه تشبُه ملامح المسيح في لوحة « هـــذا هو الرجل » Ecce Homo . ان اشهر صور دورير الذاتية هي الصورة المحفوظة في متحف بينا كوتيك Pinacothèque في مونيخ ، فهي محاولة لطلب الانسجام في اسلوب النهضة اكثر منها محاولة اعترافية ، ففيهـــا هندسة في الشعر المنسدل على الكتفين ، وتوازن في التأليف مع نظرة مغناطيسية جذابة لاتقاوم . اما رسومه وبخاصة تلك التي صنعها لنفسه في صباه فقد غلب عليها طابع عفوي يكاد يكون قلقاً ، يمهد الطريق لرامبراندت Rembrandtt .

ان الفنانين يتلمسون الطريق في لوحاتهم كما يتلمسون في المرآة ملامح وجوههم ، ثم يتوجهون اكثر فأكثر نحو ذواتهم ، ولكنهم لا يتوصلون الى كشف دخائلهم والبوح بها دفعة واحدة ، يحول دون ذلك في الظاهر الخجل، فان فيرمير Vermeer قد أدار ظهره في مشغله ليكمل وهم الحقيقة ، كأنه لا يجرؤ بدافع من تواضع على نقل مكانه كي يراه الناظر جيداً . اما روبانس Rubens فهو يشبع رغبة واقعية ، يبدو متنزهاً وأسرته في بستانه تارة ، او منتصباً مزهوا الى جانب زوجته الثانية تارة اخرى ، او ملتحفاً مطرف السفير معجباً ومتباعداً عن الناس ، انها لواقعية بل هي لذة البقاء في نظر الاجيـــال المقبلة في وضع راجح . ولاشك في أن هناك نوعاً من روح الملاطفة عند فان ديك Van Dyck الذي يبدو فاتناً في وضع مدروس ، او كما تظهر فيما بعد السيدة فيجيه لوبران Mme Vigée Lebrun في وضع أم ، رؤوم ، رشيقة حيناً ، او انيقة وجذابة حيناً آخر .

ومن الفنانين من يفضل ان يظهر وهو يزاول مهنته كما فعل فيلاسكيز Velasquez في لوحـــة « الوصيفات » Mévines ، وكذلك فعل سوبليراس Subleyras في القرن الثامن عشر ، وميلندز Mélendez وغويا Goya ، وفي العصور الحديثة دوانيه روسو Le Douanier Rousseau وسيزان Cezanne وفان كوغ Van Gogh .. **وبقي هنـاك الشكل المصفى للصورة الذاتية ؛ وهي الصورة المصنوعة بيد الفنان وللفنان . فان هـذا يقضي وقتاً طويلاً قبل ان يستسلم لهذا الاستبطان العام كما يفهمه رامبراندت وحتى فيلاسكيز ،** فمن الصعب علينا عندما نتأمل الصورة التي تركها الفنان عن نفسه ألا نشعر بازعاج غريب او قلق خفيف . ويحدث هذا غالباً في بعض الصور المفجعة يبدو الفنـــان فيها لوحده ،

فان نظراته تحدث فينا انقلاباً غريباً ، إذ يبدو لنا ان الفنان المبدع لايعيش مرة أخرى بصورة مبتذلة على قماش اللوحة بفضل وهم اللمحة او دقة الالوان ، بل هو يعيش في نفوسنا فان قوى مزاجه المبعوثة قد طردت شخصية المتفرج وحلت مكانها ، وعندما تلتقي نظراتنا بنظرة الفنان نشعر بشرود اللب الذي اعتراه عندما حلل نفسه امام المرآة مترصداً مظهره الخارجي ، متلمساً بشيء من الابهام من خلال النظر غير المتيع منفذاً يطل منه على نفسه .

البحث القلق عن ذاتية الفنان .

ان هذه الرؤيا قد ادخلها رامبراندت فعلاً في التصوير الزيتي ؛ إنه لقناع مؤلم يطفو على سطح غليان الذات . ولا ريب في ان الصورة كانت بادىء بدء اي في دور شباب الفنان وسيلة لارتياد ذاته ، فهو يحرص في لوحاتة المحفورة على التعابير الخارجية جاعلا من دراسة ملامح وجهه مدرسة للفن الايمائي Mimique ، وقد تتبع رامبراندت من خلال صوره الذاتية ، وقبل ان يعالج لب القضية ، مظاهر وهمية من شخصيته حيث صور نفسه جندياً ، او ضابطاً مقبعاً ، او واضعاً على ركبتيه ساسكياً Saskia او شاهراً بيده قدحاً من الخمر ، على أنه لم يلبث سريعاً ان عجز عن الامتناع عن مواجهة نفسه ، واستجلاء سره الذاتي ، فحل وجه الشاب المدهوش قليلاً محل وجه الشيخ الأليم والجذاب ، فهل كان يندب حياته المضطربة ام كان يتوقع موتاً قريباً ؟ وكذلك فعل غويا فقدحمّل مِطَشْتَه Palette مؤونة تمكيننا من التنبؤ من خلال وجهه عن الشياطين الكئيبة التي تقبع في اعماق نفسه ، والتي ستهرب الى صوره ! .

ويبدو ديلاكروا Delacroix في صوره الذاتية متعجرفاً غازياً ، ويبدو كيروكولت Cye'ricault ذا اندفاع مكبوت ، ودوكا Degas (وهو في سنة

١٨٥٧) باثاً حنينه العميق ، ورودون Rodin فريسة للقلق الذي يبعث على « الانعزال التام » الذي دفع اليه كل فنان ، وأخيراً يبدو بوكلان Bocklin متأملاً ومتهيئاً لرسم جسده الفاني في حين يبدو الموت في المستوى الخلفي وهو يوفق اوتار كمانه .

وهكذا تركز الفنان فيما بعد في التحري عن شخصيته ، فنحن نتابع من صورة الى اخرى توسع قضية الفرد خلال العصور الحديثة ، وبخطى لا تقاوم **واجه الفنان قلقاً اخذاً في التزايد تبعاً لتجاوز الحضارة نظاماً كانت** تعتقده نهائياً ، **والتي اطلقت بفضل اختراعاتها ذاتها قوى افلتت من سيطرة الانسان واخذت تهدده .**

إن جميع التفاسير السالفة الذكر تظل موضوعية في القدر الذي تعود فيه الى الوراء ، ولكن سيأتي يوم تكون فيه هذه العودة غير ممكنة ، **ان تيار الفكر العنيف آخذ في هدم العقل وزحم الطمأنينة** ، كما **أن القلق الداخلي والخوف من الذات** اومن الحياة يجرفان وسط عاصفة **ودوار الفنان الذي غمره هذا الهول** ، فهل هذا اعتراف كما هو في الآثار السابقة ، ام هي صرخة متأتية عن خوف الكائن الذي اكتشف فجأة جهله حقيقة طبيعته العميقة وفظاعة حياته ؟

إن فان كوغ الذي يبرز في لوحته وسط اللهيب لا يستطيع ان يعرف الهدوء ، وكذلك مونخ Munch فهو لا يعرف الهدوء بحكم وجوده في ضباب الادخنة الجهنمية التي تأكله ، فقد مات الاول بعد ان أصيب بأزمات مخيفة ، ومات الثاني بعد أن اعترته مدة من الزمن نوبات العقل التداعي ، **ففي هذه الصور انطباعية فن يخلق وسط الألم والهلوسة .**

والحق فان الصور الذاتية **اعتراف مخيف** ، فان صاحبها يكشف الغطاء عما يريد ان يفصح عنه ، ولكنه ينمّ بالرغم منه عما لم يكن عنده شبه شعوري ، فعوضاً عن ان يهدىء الفنان المعذب قلقه فهو يزيده اتساعاً ، وتوجد هناك ايضاً صورة الرجل الأصلم الأذن لفان كوغ كما توجد صور ذوي الشخصيات المفككة ، المؤثرين ، صور كثيرين من ارباب العاهات المقلية الذين تجاوزوا حدود الاستقرار والذين لا عمل لهم — فيما وراء الابداع الفني — سوى التعبير عن اضطهاد الفرد . لقد شعر بذلك كثيرون من الفنانين ولكن اعتراف بعضهم بمخاوفهم قد توصل الى ضبط هذه المخاوف ، على ان المقارنة كانت مع ذلك واجبة ، أليست اشارة الى ان عصرنا يشعر بصورة خاصة بضعفه تجاه الاسرار التي عجز عن حلها والتي يزيد العلم في عددها باستمرار .

تأملات
في آداب النقد المسرحي

بقلم : نجاة قصاب حسن

١ ـ قضايا النهضة المسرحية

في ميدان النهضة المسرحية سبع قضايا كبيرة تطرح نفسها معاً ، ولا بد من التوفر على حلها في نفس الوقت هي : صالات المسارح ، النصوص المسرحية والبرنامج السنوي لاية فرقة ، لغة المسرح ، المؤلف المحلي ، الممثل وثقافته ، الجمهور وشباك التذاكر ، النقد والنقاد . قلت انها واجبة الحل في نفس الوقت لتساويها في الشأن ولأن إحداها لا تنتظر الاخرى ، ولكنني لم أقل انها تحل مرة واحدة . فمن المؤكد أن سنين كثيرة ، بل عشرات سنين ، سوف تنقضي قبل أن نكون وجدنا لها جميعاً الحل الذي يرضينا . وهذه البلاد التي تقدمتنا بمئات سنين في ميدان الفن المسرحي (فرنسا ، انكلترا ، روسيا ، المانيا ، تشيكوسلوفاكيا وغيرها) لاتزال حتى الان تطرح هذه القضايا معاً أو تباعاً ثم لا تفرغ منها . وقد سمعت في براغ مناقشة في مسرح إس . ك نيومان بين المؤلف المسرحي كوهوت وعدد من رواد المسرح قابلوه بعد أن رأوا روايته التي اقتبسها من جول فرن (الطواف

حول العالم في ٨٠ يوماً) ، وكان موضوعها : أين المؤلف المحلي ؟ وسمعت بجدل حول عدد المقاعد التي يجب ان توفر في مسرح برنو وهل هو ٨٠٠ أو ١٥٠٠ ؟.. وقرأت ولا أزال عن مناقشات حول لغة المسرح وهل هي الفصحى (أية فصحى في اية لغة) أم لغة الحوار اليومي ، وتابعت الابحاث الانكليزية حول أفضل الأساليب لجلب الجمهور الى المسرح امام مزاحمة السينما والتلفزيون ، الى غير ذلك من المسائل التي نعانيها نحن ولكن بمقياس مصغر ، مقياس المبتدئين .

على انني من قبيل التركيز على موضوع واحد ، اولاً ، حتى تتاح له معالجة شبه وافية ، ولمواجهة سيل المقالات النقدية التي رافقت موسمنا المسرحي الاول ، من الناحية الثانية ، سأقصر بحثي اليوم على موضوع النقد والنقاد . إن هذا الموضوع قد بدأ يفرض نفسه علينا ولو كان البحث فيه لايحل المشكلة . والافكار التي سأعرضها في هذا الصدد اعتبرها اساساً للمناقشة العامة المرجوة ، على اعتبارها وجهة نظر رجل هو ، بحكم المنصب الرسمي ، أحد المسؤولين عن خطة النهضة المسرحية ، لاوجهة نظر رسمية .

٢ ـ خطورة شأن النقد

يجب ان نعترف اولا بأن الناقد — مهما كان فحوى مهمته مما سيأتي البحث فيه — رفيق لايستغنى عنه للفنان المبدع . فهو بحكم ثقافته الفنية المفترضة أقرب الناس الى فهم دقائق العمل الفني ، والى شرحه للجمهور ، والى ابداء الرأي في مستواه ، ولفت نظر الفنان الممتلىء بنفسه وانتاجه الى مالايمكن ان يراه ، الى وجهة نظر المتذوق والجمهور . واذ كان الفن المسرحي ، بوجه خاص ، فن جماعة ، لم يكن في وسع أي من المشتغلين في ميدانه ان يرى الامور من وجهة نظر فردية . واذا كان الرسام يستطيع ان يثبت انفعاله على اللوحة كما يشاء تاركا للناس أن يحبوا

او لا يحبوا ، أن يفهموا أو لا يفهموا ، فان المؤلف المسرحي والمخرج والممثل وكل الجماعة الفنية المتكاتفة التي تعمل حول هؤلاء ، لا يمكن لهم ان يتخذوا من الجمهور هذا الموقف المتميز بعدم المبالاة . ان الرواية اما ان تنجح او أن تسقط في نظر الجمهور ، وعلى الفنان المسرحي — ايا كان اختصاصه — ان يبدي أشد الاهتمام لرأي الجمهور والفئة المتميزة من هذا الجمهور بوجه خاص ، اعني النقاد المسرحيين .

ومن المؤكد ان الفنانين ، بحكم آدميتهم وما فيها من ضعف ، يضيقون بالنقد القاسي ويحبون ، في اعماقهم ، أن يسمعوا الثناء ويشموا رائحة البخور . وقد يتمنى الفنانون في وقت من الاوقات لو أن الدنيا خلت من النقاد ، من هذه الزمرة « المزعجة » التي تعطي لنفسها الحق في صنع الصحو والمطر ، في أن تشيل العمل الفني فترفعه الى اعلى عليين أو تهبط به الى أسفل سافلين . ولكن هذا الموقف الانفعالي — وكلنا يقع فيه — ليس موقفاً صحيحاً ولا ذا فائدة . فالناقد يوجد حيثما وجد الفنان المنتج ، بنوع من التلازم المحتوم والمفيد . وعلى الفنان ان يجعل هذا في حسابه ، وأن يحسن الاصغاء الى كلمة النقد ، وألا يستسلم الى راحة الثناء ، ولا يتخاذل امام الألم من نقد ظالم . وليذكر دائماً كلمة بنديتو كروتشه : « ليس في وسع أي ناقد ان يخلق فناناً من انسان غير فنان ، كما انه لا يسع أي ناقد ابداً ان يهدم او يصرع فناناً حقيقياً أو يمسه بأذى ولو خفيف »!.

٣ — مهمة الناقد

والأمر في النقاد مختلف . فمن الناس من يعطيهم موقف المربي والمشرف والمشرع والرسول ، ويجعل في يدهم أن يضعوا القواعد التي يجب ان يلتزم بها الفنان . ويقول كروتشه في هذا الصدد [١] « ينظر الفنانون في اغلب الاحيان

---

(١) الآراء المنسوبة الى كروتشه اخذتها من كتابه « فلسفة الفن » في الترجمة الممتازة التي قدمها الاستاذ سامي الدروبي لهذا الكتاب — منشورات دار الفكر العربي ، الصفحة ١٠٤ وما يليها .

الى الناقد نظرتهم الى مرب صعب المراس طاغية ، يصدر اوامر غريبة فيمنع شيئاً ويسوّغ آخر ، ويكون لآثارهم مفيداً او مضراً تبعاً لما يشاء هواه او يفرض عليها من مصير . ولهذا السبب ترى الفنانين إما منحازين الى جانبه ، خاضعين له ، اذلاء امامه ، يدارونه ويتملقونه وان كانوا في اعماق قلوبهم يمقتونه ، وإما اذا لم يصلوا الى غاياتهم أو كانت نفوسهم الابية ترفض أن تهبط الى مستوى المتملقين المتزلفين، ان يثوروا عليه وينكروا عليه أية فائدة ، ويحرموه ، ويسخروا منه ويشبهوه (كما فعلت) بحمار دخل الى دكان خزاف واخذ بتحطيم الآثار الفنية المرهفة »...

« ومن الناس من يعتبر الناقد حاكماً أو قاضياً ، يسند اليه واجب التمييز في الفن الذي تحقق ليقدس الجميل ويجحد القبيح باحكام صارمة منصفة معاً » ...

« ومن الناس أخيراً ، من يجعل النقد مجرد شرح أو تأويل قصارى عمله أن ينفض الغبار عن الآثار الفنية ، ويخرجها الى النور ، ثم يقف عند هذا الحد تاركاً للفن أن يفعل فعله بطريقة عفوية في قلب المتأمل أو القارىء أو المشاهد ، ليحكم هذا بما يوحي اليه ذوقه الداخلي ... حتى لقد عرف احد النقاد فن النقد بانه فن تعليم القراءة ... »

ولكن النقد في صورته المثلى هو هذه الاشياء الثلاثة جميعاً . فهو طريق يرسمها الناقد بعلمه ومعرفته ، ويحكم في انطباق الاثر الفني عليها بذوقه ، ثم يشرحها بحدسه وإدراكه . على انه وهو يفعل ذلك كله يجب أن يعترف للفنان بحق اصيل هو ان يخرج على الطرق المرسومة ولو كان الذين رسموها عباقرة ، وأن يدع في حكمه ثغرة ينفذ منها الجمهور الى حكم معاكس لو أراد ، وان يكون في شرحه وتأويله متواضعاً فما يمكن لأحد مهما كانت بصيرته نافذة أن يزعم أنه تغلغل في اعماق الفنان الى حد يجعله نائباً عنه في الكلام والتعبير ...

٤ — صفات الناقد

واذا كان الامر كذلك فالناقد ملزم بثلاثة أمور : المعرفة ، والتجرد عن الهوى ، والشرح الصادق .

والمعرفة شرط لايسوغ التجاوز عنه ، وقد اوضح الغزالي في مقدمة « المنقذ من الضلال » شروط المناقشة فقال : « انك لن تجادل صاحب مذهب أوملة أو نحلة الا إذا ساويت في العلم بمذهبه أعلم الناس بهذا المذهب » . ولو كان الناقد أقل معرفة من المنقود لجاز لهذا الاخير ان يقذف بوجه عبارة التحدي : اذهب قبل هذا فتعلم !.. وكيف يسوغ لمن يجهل قواعد التأليف الموسيقي ان ينقدمؤلفاً، أولمن يجهل قواعدالحركةالمسرحيةانينقد مخرجاً؟والذوق وحده لايكتفي لتغطيةموقف الناقد ، فالذوق نفسه من مسائل الجدل ، وهو عنصر شخصي انفعالي يختلف من رجل الى آخر باختلاف موقفه الفكري او الاجتماعي كما يتأثر بالروابط الشخصية من حب وكره ومنافسة واستلطاف ...

والتجرد عن الهوى عنصر مستقل لايرتبط بالمعرفة ارتباطاً ضرورياً . ولذا كان من آداب النقد ألا يصدر عن منافس ، ولا عن شعور سلبي تجاه الفنان. وقد لمحنا في بعض مايكتبه اشخاص لاريب في معرفتهم الفنيـــة مايفضح الهوى والتحيز ، فأسقط الغرض المعرفة في شراكه ، وسقطت معها سمعة الناقد الفنية .

أما الشرح الصادق فهو أخطر العناصر في المرحلة الحالية التي تمر فيها النهضة الفنية في بلادنا . فاذا كان النقد يتجه الى الفنان ناصحاً ومنبهاً فانه أكثر اتجاهاً الى الجمهور . ولا ننسى أن النقد الذي نعني ليس مكانه الرسائل الخاصة التي توجه الى الفنان من قبيل الرأي والتنبيه ، وانما مقالات الصحف التي يطلع عليهـا عامة الجمهور . ومن حق النهضة المسرحية على النقاد ، وهم سدتها الحقيقيون ، أن

يشجعوا الجمهور على الاقبال على المسرح أولاً ، وان يساعدوا هذا الجمهور على أن يرى مواطن الجمال في العمل المسرحي ، ثم لهم بعدهذا ان يمسوا برفق أو خشونة — والرفق في البداية أولى — نقاط الضعف باحثين لها عن تفسير وحتى عن التبرير في ظروف البلد والمرحلة .

وهذه الناحية الاخيرة أراها مسألة شرف بالنسبة للنقد . فمن الواضح أن الناقد رجل يقيس العمل الفني بمقاييس أعدها مسبقاً ، فمن أين جاء بها ؟ إن جاء بها من المطلق المثالي ، فالنسبي الواقعي يقصر عنه دائماً . وان جاء بها من بلد متقدم عريق فالبلد المتأخر الحديث عهـــده بالفن يقصر دائماً . إن ماهو اطول من شبر أقصر من متر . ولذا فانني اتمنى ان يذكر النقاد هذه الحقائق حين يقيسون انتاجنا الفني في بداية عهده ، وان يذكروا في اية ظروف نشأت النهضة المسرحية؛ وكم ينقصها من المقومات المادية والبشـــرية ومن التقاليد . فاذا هم غالوا في النقد وتشددوا في المقاييس فكأنهم يطالبون الطفل بما لا يطلب من رجل كبير مقتدر وخرج الامر من رعاية النهضة الفنية الى تحطيمها وهي بعد ناشئة ...

* * *

هذا هو بعض مابدا لي أن اطرحه في موضوع النقد من الناحية النظرية . على انني وأنا هنا « أنقد النقاد » قد أقع في نفس الخطأ اذا رجوت — من الناحية العملية والواقعية — أن يكونوا جميعاً في هذه السوية . فاذا كانت نهضتنا المسرحية ناشئة ، فالنقد المسرحي الذي ينشأ على هامشها لايزال هو الآخر طفلاً . وكما رجوت أن يرفق النقاد بالنهضة في أولى خطواتها ، علي أن ارفق أنا بالنقاد في اولى خطواتهم فلا أقيسهم بالمطلق ولا المثالي ، ولا أطلب منهم جميعاً أن يملكوا عنان المعرفة كما يملكه المختص ، غير انني أرجو منهم مخلصاً أن يبتعدوا عن الهوى ، وأن يكونوا في صف الفنان في معركته الكبرى الرامية الى كسب الجمهور وترسيخ أسس النهضة .

أثر الشرق العربي في الفن الأوربي

بقلم : عفيف بهنسي

كان الشرق العربي ، منذ بداية حضارته الموحدة بالاسلام ، وحتى إبان الحضارات المتفرقة القديمة يعتمد على تراث فني عريق ، متصل بوسائله وحاجياته وبالبلده ، قريب مما نسميه اليوم بالفنون التطبيقية ، إلا ان له طابعاً مميزاً يجعله غالباً ، في حكم الفن الصرف .

ولقد ألف الناس ماحولهم من مظاهر الفن ، فلم تكن الصناعة الرفيعة شيئاً آخر، يدفع الى تقدير منفصل عن القيمة الاستعمالية للشيء في ذاته ، ولكن اتصال الشرق بالغرب،عن طريق التجارة أو الحرب أو الاحتكاك الثقافي والدبلوماسي ، كشف عن مظاهر رائعة للفن ، اقتبسها الفنان الغربي والمواطن العادي ، في اعماله الفنية أو في اشيائه الخاصة . ونلاحظ ذلك بوضوح بعد الفتح العربي للأندلس ، أو بعد قيام الامبراطورية البيزنطية ، وإبان الحروب الصليبية .

على ان الفن الشرقي ازدهر في حياة الاوربيين ، في البلاد التي كانت بينها وبين العرب تجارة مستمرة ، كالبندقية وهولندا ، أو مبادلات للتمثيل الدبلوماسي ، كما تم ايام الحكم العثماني .

وقد استهوى الاوربيين الفن الشرقي الغريب لديهم ، والذي يقترب مما اسميناه بالفن التطبيقي ، اما التصوير والحفر ، فلم يكن بطرافة الفنون التزيينية الأخرى.رغم تقدمه وتطوره، خلافاً للاعتقاد السائد بان الرسم كان ممنوعاً على المسلمين .

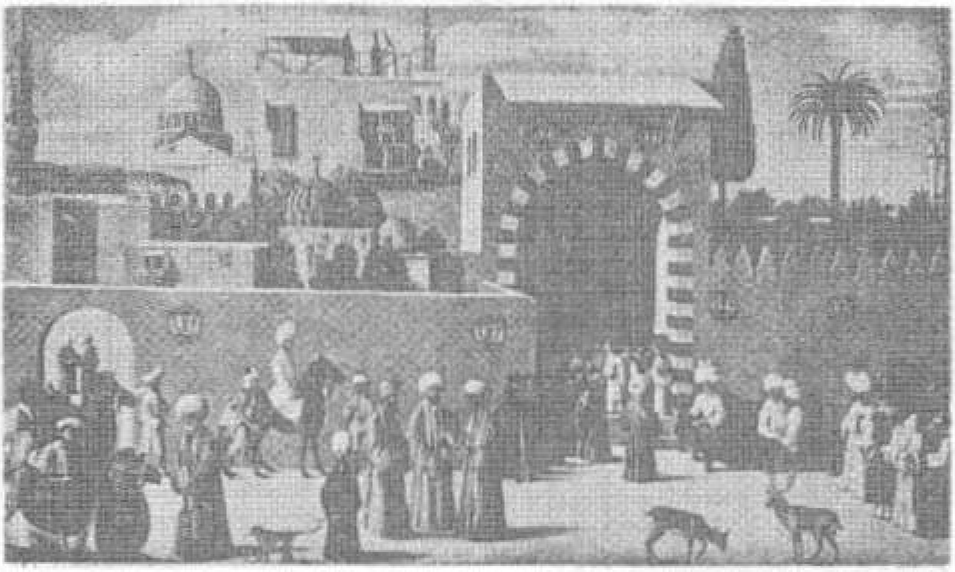
والحق اننا نرى في العصور الاسلامية المختلفة رسوماً وصوراً مازالت باقيـة ، رغم الاحداث الرجعية التي مرت بها الدولة الاسلامية ، وفيها اتجاه خاص ، ولعله احياناً شبيه باسلوب فن مابين النهرين ، كصورة الرسول محمد ، وهو يتلقى الوحي من جبريل ، والصورة محفوظة في في المكتبة الوطنية في القاهرة ، وهي ترجع الى عام ٦١٢ هجرية ، او إلى الرسوم التي وجدت على جدران « قصير عمره » الذي بناه الخليفة الوليد بن عبد الملك ، شرقي عمان . ومنهـا رسم الخليفة ، ومشاهد الصيد والاستحمام ، ورسوم اعداء الاسلام ، وراقصات عاريات أو مرتديات» ويكاد اسلوب الرسم والتصوير يكون اساساً للفن البيزنطي ، وقـد قام بالتصوير فنانون من سكان البلاد .

على ان ماوصل الى اوربا ، هو مظاهر الحياة الجميلة في الشرق العربي ، وقد تأثرت النهضة الايطالية اولاً ، بتقاليد الفن الاسلامية التي ورثها العثمانيون ونقلوها الى القسطنطينية .

فلقد اصبحت الازياء العثمانية ، موضع إعجاب اهل البندقية وفلورنسا ، لغرابتها وبهائها ، فالروب الطويل الشرقي ، والعمامة العالية ، أصبحت مألوفة لديهم ، للعلاقات المستمرة التي كانت بين الدولة العثمانية ، وبين أيطاليا . ولذلك فاننا لن نستغرب ابداً ، اذا ما رأينا «مازانشيو » أبا الفن الايطالي ، وقد تناول في صوره موضوعات وشخوصاً ، ارتبطت تماماً بالتقاليد الاسلامية .

ولم يقتصر تأثير الشرق العربي ، على ما انتقل الى اوربا من مظـاهر الفن ، بل ان بعض الفنانين حاول الترحال الى الشرق ، للتعرف على غرائب الحياة ، وعلى مظاهر الحضارة ، التي كان ماركو بولو « من البندقية » قد حكى عنها ، بعد اسفاره التي قام بها عـبر الشرق ، في مؤلفه « كتاب روائع العالم » .

الا ان القيام بمغامرة الترحال بالنسبة لفنان ، أمر آخر ، فلقد كان الشرق ، وبلاد العرب بشكل خاص ، ـــ على روعة الخيالات التي كانت تنقل سحر الحياة لديهم ـــ العالم الغـامض ، الذي يخفي وراءه الكثير من الاساطير المرعبة والقصص الخارقة ، والهول الذي يرافق اختلاف الدين ، وما ينقل عن الدين الاسلامي والاديان الشرقية الأخرى ، لذلك فان سـكان البندقية ، بما فيهم الدوج ، جزعوا اشد الجزع ، عندما أرسل محمد الثاني السلطان العثماني ، يطلب عام ١٤٧٩ ان يفد اليه الفنان الشهير « جيوفاني بلليني » ليقوم بتصويره . وانعقد مجلس الشيوخ في البندقية ، لبحث هذا الطلب ، فلقد شق عليهم أن يغامروا بارسال هذا الفنان العظيم ، الى بلاد يسمعون عنها الغريب من العادات ، وعن سلطان تنقل عنه الروايات المختلفة في سطوته وسلطانه . ولما لم يكن لهم من بد في تلبية طلبه ، أرسلوا اخاه «جنتيلي بلليني» وكان اقل منه شهرة . وقد مكث جنتيلي مايزيد عن السنتين في القسطنطينية ، لقي خلالها الترحاب والتقدير ، وتلمس عن قرب معالم حضارة



استقبال السلطان لقنصل فرانسا

تختلف عن تلك التي في بلاده ، فالطقوس والازياء والعادات ، وطرز العمارة والزخرفة والسمات الفنية ، كل ذلك كان اساساً اضافه جنتيلي الى اعماله التي انجزها هناك ، كما أضاف الى لوحاته الوجهية ، وخاصة صورة السلطان ، مسحات حزينة ونفسية ، أعطتها قيمة خاصة متميزة . ومازالت لوحة السلطان محمد الثاني ، محفوظة في اكاديمية الفنون الجميلة في البندقية ، وقد نفذ جنتيلي ميدالية برونزية عن هذه الصورة ، محفوظة في باريز .

على ان الفنانين الذين جاءوا بعد جنتيلي ، تأثروا بموضوعاته ، ولعل منهم من زار القاهرة وصور لوحة « استقبال السلطان لقنصل البندقية شكل » (١) المحفوظة في اللوفر ، والتي كانت منسوبة منذ عهد قريب الى جنتيلي نفسه ، ولكن المعتقد أن الصورة للسلطان قانصوه الغوري عام ١٥١٢ — ولم يكن جنتيلي قد سافر الى القاهره قط . على أن ما يهمنا من هذه اللوحة التاريخية ، تعشق الفنانين الايطاليين في ذلك الوقت للموضوعات العربية الاسلامية التي الفوها في البندقية عند زيارة التجار والسياح ، والذين كانوا يأتون باستمرار ويتنقلون في ايطاليا من دولة الى دولة . وهكذا استفاد المصور « بانتوريشيو » من الازياء الشرقية والتي كان يراها على القناصل والسفراء في روما ، وقد تأثر الى حد بعيد بالمصور جنتيلي ، وخاصة في لوحة — « استشهاد القديس سبستيان » . وفي ذلك الوقت ايضاً كان « غوزولي » يضمن لوحاته الجدارية كثيراً من الوجوه والازياء الشرقية العربية .

وقد تجاوز تأثير الشرق ايطاليا الى اوربا كلها . وابتدأ ذلك بأن قدم الفنانون الاوربيون

الى ايطاليا ، للاستفادة من وجوه الشرقين فنيا ، في عام ١٦٢٠ زار فلورنسه المصور الفرنسي جاك كالو Callot ، وقد بقي اربع سنوات ، يصور عن مصر شمالي افريقيا ، وقد صور ايضاً عن بعض قصص النبي سليمان ، فاستعمل نماذج شرقية وازياء عربية ، ومعالم تتعلق بالوطن العربي.

واذا عدنا الى البندقية ، وجدنا « كارباشيو » وقد أحس بسحر الشرق ، متأثراً بما تحدث عنه معاصره جنتيلي ، ويبدو ذلك في لوحاته الاربعة « تاريخ سانت ايتين » الموزعه في ميلانو وشتوتغارت وبرلين وباريس . وعندما أراد أن يصور خلفية اللوحة التي تمثل زواج العذراء ، اضطر ان يتخيل المسجد الاقصى ومسجد عمر ، وان يرسم الناس ، وقد ارتدوا ملابس لاتنتسب لأي زي معروف ، ونسبها الى الزي العربي الذي تخيله ، والذي نقله عن جنتيلي محرفاً من القسطنطينيه ، ومن المعتقد أن كارباشيو سافر مع جنتيلي الى القسطنطينيه ، ولم يسافر الى سوريا أو مصر .

وفي المانيا ، كان « البرته دورر » Durer ، قد تأثر بالفن العربي بصورة غير مباشرة، عندمازار كاورنساوأقام فيهاعام ١٥٠٦ ، واحتك بالجاليات العربيه من التجار والممثلين الدبلوماسيين.

على ان المواضيع الدينية كانت اهم ما شغل الفنانين الاوربيين ، فكانت اكثر مواضيعهم عن قصة السيد المسيح التي وردت في الانجيل ، وقد كانت العادة لديهم ان ينقلوا ذلك وفق الطرز الشائعة ، والوجوه المألوفة ، والازياء المستعملة في زمانهم ، أو انهم كانوا يضيفون على شخوص هذه الموضوعات مسحة فنية ، او يلبسونها جلالاً بيزنطي بدائي ، أوغلاف كلاسي اغريقي ، كما هو الامر عند « شيابوي » او عند رافائيل ، وليوناردو دافنشي فيما بعد.

وفي لوحة محفوظه في أكاديمية الفنون الجميلة في البندقية ، صورها « جيوفاني مانزويتي » ، عن القديس الانجيلي مرقس ، نرى ان الازياء العربية التي صورها ، استعيرت من الطرز العثمانية التي كان التجار الاتراك يتحلون بها عند زيارتهم البندقية .

على ان « فيرونيز » ، فنان البندقية الاشهر ، كان بارعاً في استحضار تقاليد الحياة في القدس ايام المسيح ، في لوحاته الكبيرة « الغداء عندليفى » ، والغداء عند شمعون » وغيرها ، نراه وقد كسى شخوصه بقماش البروكار العربي المحلي بالجواهر الشرقية ، وحاول ان يتصور الطابع الصحيح على اقرب وجة .

وعندما كان الفنان ، يحاول تصوير المواضيع الغربية التي تمثل الحياة المستسرة في الشرق ، والمشاهد المثيرة التي ترد عن الشرق، كان يلجأ غالباً لتصوير ذلك في جو قريب من الجوالمعاصر، ففي لوحة « الرجل ذو العمامه » لروبنز ، نلاحظ مدى التزام الفنان لتفاصيل اللباس والهيئة التي



الباشا — فرانوغارد

يتميز بها انسان الشرق ، وخاصة العربي ، كما نلاحظ تجسده مميزات هذا الانسان ، كالبسالة والفروسية التي أجاد روبنز التعبير عنها في لوحات صيد الاسود .

ومن الواضح ان الفنان الاوربي لم يكن ليميز في تصويره ، الانسان الشرقي في مختلف جنسه وجنسياته ، فلقد اختلط لديه العربي في الشام ، وفي مصر ، وفي المغرب ، بل لقد اختلط لديه العربي المسلم بغيره من المسلمين في تركيا وإيران ، ولعل الاسلام لديه ، كان اشبه بالقومية التي تضيع فيها حدود الامة العربية بالأمم الاخرى المسلمة ، وهذا مانراه في لوحة « داي الجزائر » لفلاسكس و « هضبة سيناء » لأليغريكو ، أو في صورة « موسى » لبوتيشلي ، او صورة « الفتاة بالعمامة » لفيرمير ، أو صورة « حديث مع الشرق » لرامبرانت .

بيد ان الصور التي خص بها الفنانون الاوربيون ، المواضيع التركية والشخصيات العثمانية الشهيرة في ذلك الوقت تمتاز في ناحيتين ، أولا أنها كانت في اعتقاد الغرب تمثل الشرق المتمدن ، إذ ان الامبراطورية العثمانية امتدت حتى شملت جميع الدول العربية والاسلامية ، بل إنها وصلت حتى حدود فينا في اوربا . ولم يكن في نية الفنان الاوربي ، ان يدقق في الاجناس التي انضوت تحت سيطرة العثمانيين ، فقد كان شعار الاسلام كافياً لصهر جميع هذه الدول في بوتقة دولة واحدة شرعية ، وخاصة بالنسبة للدول الاخرى الغربيه ،

والناحية الثانية هي واقعية الاعمال الفنية التي انجزها الاوربيون عن الشرق العربي ، فلقد نقلت مباشرة ، وليس عن طريق الوصف او الذاكرة أو الخيال . واللوحات الشخصية التي رسمها فنانون اوربيون لشخصيات عثمانية (يدخل في ذلك العرب) ، كثيرة . ذلك لان الانتصارات

الحرية والفتوحات الكبيرة ، أدت الى وجود طبقة ارستقراطية مترفة، اثرت ورفلت بالنعمة ، وكان لابد ان يزين اصحابها قصورهم بلوحات تمثلهم ، وتشهد على انتصارهم وسلطانهم ، كما في لوحة « سعيد باشا » قنصل الباب العالي ، التي رسمها المصور الفرنسي أفيد« Avid »

على ان الرداء الشرقي ، والزي وطرز التزين والتجميل الشرقية ، وقد أصبحت مفرطة في اناقتها وفخامتها وبهائهـا ، استهوت الاوربيين ، حتى كانوا يتحلون بها ويقلدونها ويطالبون تصويرهم بها ، كما في لوحة تافيرنيه ، للفنان Largilier ، او في لوحة « المركيزه اولومارتان » او في لوحة « قنصل فرنسا لدى السلطان » او صورة « كونت فيرجين » باللباس التركي .

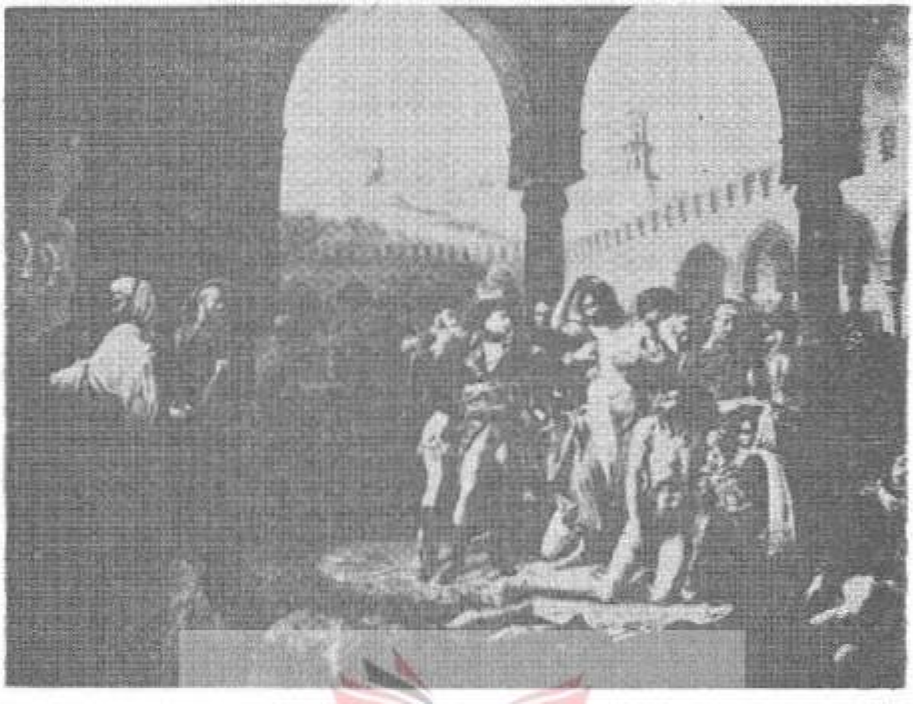
ولا يعني هذا ، ان الفنان كان يتبع نزوة الراغبين بتصوير انفسهم من العثمانيين ،اوالمحبين للطرز الشرقية ، بل ان مواضيع العثمانيين المثيرة في ذلك الوقت ، وعاداتهم الغامضة ، وحياتهم الغريبة عن حياة أوربا ، كانت تثير لدى الفنان الرغبة الملحة لتصويرها ، لما فيها من جمال وسحر وطرافة ، ونرى ذلك واضحاً في صورة « محمد افندي قنصل تركيا في باريس » التي رسمها ريغو ، وصورة « الباشا » لفراغونارد شكل ٢ ، والموجودة الآن في اللوفر . اما اللوحـة الموجودة في فرساي للمصور « باروسيل — Parouselle » والتي تمثل قدوم القنصل محمدافندي الى قصر التويلري ، فقد جمعت الأزياء التركية على مختلفها ، ومما لاشك فيه انهـا كانت واقعية الى ابعد حد .

ولم تكن قصص صيد الوحوش التي يتناقلها الاوربيون عن العرب ، الى جانب حيـاة المخادع والقصور ، إلا ملهما لفنانيهم ، عند تصوير المروع من المغامرات التي كان يفتقدها الاوربي.

ومن المصورين الذين صوروا مغامرات الصيد والقنص ، لانكريه ، وفانلو ، وبوشيه خاصة في لوحته صيد الاسود المحفوظة في اللوفر .

اما الصور التي اخذت عن قصص الف ليلة وليلة ، فقد كان الخيال يلعب دوراً هاماً فيها ، وكانت الطقوس المعاصرة تسجل بأمانة ، رغم عدم انطباق تاريخ القصة على تاريخ التصوير ، كما في لوحة فانلو ، المحفوظة في اللوفر .

على ان احتكاك أوربا بالشرق العربي ، لم يكن دائماً ليتم عن طريق المبادلات الثقافية ، أو الدبلوماسية ، أو التجارية ، بل كانت هناك حروب عديدة ، تبتدىء بالحروب الاندلسية ، ثم الحروب الصليبية ، والحروب العثمانية وحروب نابليون . وكانت قصص هذه الحروب تصل الى خيالات الفنانين ، أو ان الفنانين انفسهم كانوا يرافقون المتحاربين، فيكونون زاد للوحات كبيرة تاريخية وفنية ، كلوحة « مجموعة من العرب » لغويا « والمدافعون عن القاهرة » لجـيروديه ،



نابليون يزور المصابين بالطاعون في صيفا

غروس

« والمصابون بالطاعون في جيفا » شكل ٣ وهي اللوحة الكبيرة المحفوظة في اللوفر » والتي رسمها غروس Gros ، وفيها صور نابليون وهو يزور احدى مستشفيات المصابين بالطاعون من جنوده ومن السكان . ومن المعروف ان غروس قد صور الهيئات والامكنة والازياء دون ان يراها عن قرب ، على أن هناك لوحات صورت مباشرة ، عند مرافقة بعض الفنانين لحملة نابليون نحو الشرق ، منها صورة « معركة ابي قير » الموجودة في متحف كوندي ، وصورة « حرب الاهرامات » التي تمثل انتصار نابليون ، والمحفوظة في متحف فرنسا وراء البحار . وقد سار على غرار غروس بعض المصورين امثال غيران Guerin في لوحته المحفوظة في فرساي ، والتي تمثل نابليون يكرم المدافعين عن القاهرة . »

ولقد كان غروس وغيران معلما الرومانتيين في الافادة من المواضيع الشرقية ، الاسطورية منها والحقيقة ، حتى اصبحت الرومانتيه تتميز بالطابع المستغرب ، أو بحسب تعبير الغربيين بالطابع المستشرق Bxotique ، كما هو الأمر عند جيريكو ، ودولاكروا ، وفيرنيه Vérnet في لوحته « المحمل » .

على ان دولاكروا Delacroix ، وهو زعيم الرومانتيين ، كان اكثر اهتماماً بتتبع اسرار

الشرق العربي ، فلقد سافر الى المغرب حيث سحر الصحراء والطقوس ، وحيث الانوار المذهبة والألوان الواضحة ، وحيث التقاليد والتحف ، وحيث الاسلام وقواعده ، وحيث صيد الوحوش الضارية ببسالة وشجاعة . وتنقل دولاكروا بين طنجة ومكناس ، وسافر الى وهران والجزائر، واقام في كل من هذه المدن مايزيد عن خمسة شهور . يزود نفسه وخياله بما شاهده وعاشه، وقد بقي دولاكروا يمتاح من كنوز ما ادخره في اقامته هذه حتى نهاية حياته ، تاركا اروع اللوحات الشرقية العربية . وخاصة منها مايمثل الحياة الداخلية الخاصة ، كما في لوحة « نساء جزائريات » شكل ٤ و« مغربي في حالة الراحة ». ولدولاكروا صور كثيرة عن مغامرات العرب ، وعن الحريم والوصيفات ، رسمهن بملابس مطرزة جميلة .

ولم يكن انغر Ingres ، الذي سبق دولاكروا في رومانتيته ، بأقل منه تأثراً بعادات الشرق العربي وآثاره ، ولقد تخيل « العاريات في الحمام التركي » ورسم الوصيفات ، كلوحة « وصيفة العبد » المحفوظة في نيويورك ، وهي حافلة بالمعالم والوجوه الشرقية ، ففيها المغربي والمصري والتركي .

ان موقع الشرق العربي الجغرافي، كان يسمح دائماً ان يكون جسراً ليصل الشرق بالغرب، وان يكون مركزاً تتجمع فيه حصائل النتاج في العالمين ، وكان من الضروري ان ينشأ سكان تلك المنطقة ، وهم العرب ومن معهم ممن دخل الاسلام ، على التجارة والنقل ، عدا ما كان يوجبه ازدهار الحياة من تصدير واستيراد ، لهذا تسمع بالتاجر العربي ، الى المغامرة في مجاهل الحوض الابيض المتوسط ، او في مجاهل الشرق الاقصى ، ولقد كانت المرافىء الشهيرة في ذلك الوقت ، كالبندقية وجنوه ومرسيليا ، قد تعودت على التعامل مع التاجر الشرقي العربي ، واستألفته واحترمت مقدمه ، بل ونظرت اليه على انه الانسان القادم من بلاد الشمس ، بلاد الاساطير الرائعة والحضارة الواسعة والثراء الذي لايحد . وكانت مرسيليا ثغر الشرق كما يقولون ، ففيها فنادق مخصصة للعرب ، وفيها اسواق يقصدها التجار القادمين من الشرق العربي ، وكان الفرنسيون يتوددون الى هؤلاء التجار ، ويفضلونهم على سواهم من الوافدين ، لاستقامة سلوكهم ، وأهمية بضاعتهم ، ولسحر مظهرهم وزيهم . وهكذا كان الفنانون في مرسيليا ، كما كانوا في البندقية ، يستفيدون من وجود هؤلاء الزائرين ، فتقوى عرى الصداقة بينهم ويكون من نتاج ذلك لوحات خالدات ، كالتي تركها لنا بوفي دوشافان Puvis de Chavannes ، ومن اشهرها لوحته الكبيرة « مرسيليا مرفأ الشرق » وفيها البواخر العربية التي تحمل ركاباً من العرب المسلمين والنصارى ، وعليها طنافس شرقية ، وقد رتب ذلك بكثير من الدقة التاريخية مما يجعل تلك اللوحات ، وثائق هامة ، تفيد في تأريخ الحضارة العربية .



نساء جزائريات

دولاكروا

كذلك ترك لنا كورو Corot ، بعضا من الموضوعات العربية الجزائرية ، التي اخذهـا عن الجزائريين الذين تعاملوا مع فرنسا منذ زمن بعيد .

وإذا دخل الشرق في حياة الرومانتيين كمصدر للخيالية ، فانـه أصبح بعد ذلك عند الانطباعيين ، وسيلة للاستفادة من الألوان الأصلية ، التي امتاز بهـا الشرق العربي ، ومن النور الساطع الذي اهتم به الانطباعيون وافتقدوه في اجوائهم . ولكن الموضوعات الغربية كانت دائماً اكثر جاذبية عند الفنانين الاوربيين جميعاً .

ولقد ابتدأ مانيه ببعض المواضيع الشرقية ، فرسم الوصيفة ورسم الخادم في قصور العرب والمسلمين ، كذلك اهتم « دوغا ــ Degas » ببعض الموضوعات الشرقية المثيرة ، فرسم العروس المسلمة الى جانب المغنية والجارية ، ومعهن حصان عربي ، وقد نظرن جميعا الى غدير يسألن عن حظهن وسعادتهن في المستقبل . كذلك صور بيسارو ورودون وتولوز لوترك ، وبازي الذي سافر الى الجزائر ، صوراً مستوحاة بصورة خاصة من المغرب العربي .

اما سيزان ، فلقد حاول في احدى لوحاته المسماة « الباشا » ، ان يقلد لوحة الاولمبيا لمانية من جهة ، وان يستفيد من اسرار القصور في الساحل الجنوبي من حوض المتوسط . . على أنه لم يسبق أحد من الانطباعيين ، ما وصل اليه « رونوار ــ Renoir » في تصوير الموضوعات

الشرقية ـ العربية . فلقداستفادمن اقامته في الجزائر ١٨٨١ ـ ١٨٨٢ في انجاز موضوعات كثيرة وا كثرها يمثل المرأة بجلالها وفتنتها ، او في مجالس الطرب والرقص .

على ان اثر الشرق العربي في الفن الاوربي ، اصبح اكثر وضوحاً في الفن المعاصر . فلقد ارتبطت الجزائر مع فرنسا ثم تبعتها تونس والمغرب ، ثم امتدت على سوريا ولبنان ، مما فتح المجال امام الفنانين الفرنسيين بصورة خاصة ، ان يزوروا هذه الاقطار العربية ، وان يقيموا فيها فيعيشوا عاداتها وتقاليدها ، ويكشفوا غموض الشرق من ورائها .

ولقد كان ماتيس من ابرز من تأثروا بالمغرب العربي ، بعد دولا كروا ، فلقد زار المغرب واستسلم للفن العربي وتأثر به حتى آخر ايامه ، وقد ترك لنا صور الغواني مرتديات الدمقس المحلي بالجواهر ،أو الحلل الناعمه المطرزه بالذهب والفضة ، وعليهن الأساور والقروط، وقد رسم ذلك بحماسية حارة صحراوية ، ولعل هذا كان سبب تزعمه المدرسة الوحشية التي اهتمت بالألوان الساطعة . ثم استفاد في اسلوبه من التوريق العربي Arabesque حتى اصبحت لوحاته هدياً لكثير من الفنانين العرب للعودة الى فنهم الاصيل . وفي متحف الفن الحديث فيباريس لوحة لماتيس ، تمثل جارية وقد ارتدت سروالاً أحمر شكل (٥) ، وقد اكد ماتيس في حواشي اللوحة وخلفيتها ، على زخرفة عربية عريقة .

كذلك سافر الى المغرب وطنجه ، زميل ماتيس المصور ماركيه Marquet ، وبقي طوال الحرب العالمية الاولى يتجول بين تونس والجزائر ومصر ، وقد ترك لنا الكثير من المناظر الممثلة لتلك الاقطار العربية ، ثم قام بعده الفنان الهولندي فان دونغن بزيارة مماثلة الى تونس ومصر ، ومن اشهر لوحاته التي استوحاها من زيارته تلك « امرأة من مصر » وهي صورة صادقة للمرأة الرشيقة ذات العينين المكحلتين الواسعتين وذات الرداء المجلبب الطويل ، والاساور العريضة الملونة ، وقد حملت جرتها تمضي بها الى العين

ومن الفنانين الذين زاروا شمال افريقيا ايضاً ، اوتون فريز « Othon Friesz » الذي امضى هناك فترة مابين الحربين ، وترك اجمل اللوحات عن الحياة هناك ، ودينوايه Desnoyer ولورسات Lurçat الذي اقام في الصحراء وفي المغرب ، وراؤول دوفي Dufy الذي اخذ بالطرز والعادات المغربية خاصة . وقد زار مؤرخ التكعيبية المصور اندره لوت Lhote مصر وشمال افريقيا ، واقام فيها زمناً ، وكتب عن الفن المصري تحليلاً رائعاً ، في مؤلفه ، « الفن في وادي الملوك . »

ومن الفنانين الاوربيين الذين صوروا في المغرب باسين Pesein و La Patellieire



امرأة ذات سروال أحمر

ماتيس

الذي اقام في تونس، كما زار المغرب العربي عدد كبير من الفنانين، منهم مارشان وبرتونه Berthone وأوجام Augame وليموز Limouse وبونو Bonneau .

اما بول كلي Paul Klee الفنان السويسري الالماني، فان سفره الى تونس عام ١٩٢٤، قد غير مجرى ابداعه الفني، كذلك افاده سفره الى مصر عام ١٩٢٨ — ١٩٢٩ كثيراً في ابتكار مجموعة من الاساليب التي اتبعها، فلقد اخذ عن الفن العربي، اغفال البعد الثالث، وأخذ عن صناعة السجاد، التخطيطات الهندسية التي نفذها في بعض لوحاته، والتي حرص فيها على اظهار موضوعه باشكال تختلف باختلاف وضع الناظر. ولقد كتب ولهام هاوز نشتاين في كتابه « القيروان، او تاريخ بول كلي ». الكثير عن جو الحياة العربية الذي جذب كلي وأثر فيه .

ومنذ منتصف القرن السابق، توافد على مصر والشام، عدد من الفنانين الاوربيين، واغلبهم من الفرنسيين. ويعتبر اميل برنار، على رأس الفنانين المستشرقين الذين زاروا الدول العربية وخاصة مصر، لكي يفيدوا من نور الشمس وتقاليد الحياة الجميلة، ومن هؤلاء ايضاً « ديكام » و « كرابليه » ولكن « اميل برنار » الذي كان صديقاً لتولوزلوترك وغوغان وفان غوخ، كان قد كتب كثيراً عن الجو في الشرق العربي، فأثار اهتمام عدد كبير من الفنانين الاوربيين، واقام في باريس معرضاً لاعماله التي انجزها في مصر. ومن اشهر لوحاته المحفوظة في الاسكندرية « بائعة الفطائر » و « موسيقيات ».

ومن الفنانين الفرنسيين ايضاً جيروم وتلميذه لينوار . وقد اقيم في باريس عام ١٩٤٩ وفي جناح اللوفر معرض مصر ـ فرنسا ، ضم اروع مجموعة لاعمال الفنانين الفرنسيين في مصر .

على ان اثر الشرق العربي في الفن الاوربي ، لم يقتصر في الواقع على الفن التشكيلي والتصوير خاصة ، بل تعداه الى فن العمارةوالفن التطبيقي عامة ، بيدان مانسعى اليه فيهذا البحث الموجز ، هو حصر البيان في تأثير تقاليد الفن العربي على الفنون التشكيلية ، وذلك لكي يكون امام الفنان العربي المعاصر شواهد جديدة ، تؤكد لديه اهمية تراثه الفني من جهة ، ومدى امكان نشر هذا التراث المتطور بتطور الحضارة الحديثة ، في العالم اجمع . ولقد ثبت لدينا ، ان الاقبال على الاعمال الفنية ذات الطابع العربي ، في الاسلوب وفي الموضوعات وفي الألوان ، قد لقي نجاحاً كبيراً في الاوساط الفنية العالمية .

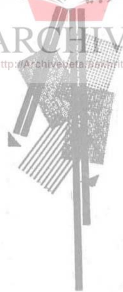
وما يهمنا في هذه المناسبة ، هو ان ننطلق كفنانين ، في مجال تطوير فننا الأصيل، لكي نساهم في تركيز اسس النهضة الفنية التي يعتبر جيلنا المعاصر مسؤولاً عنها .



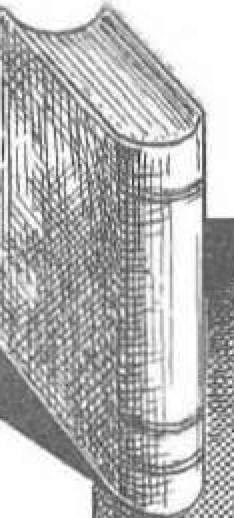
مجلة المعرفة

ع

التيارات الفكرية العربية والعالمية



كتاب الشهر



مخطوطة

رواية الشيطان



للكاتب الروسي دستويفسكي

عرض وتحليل

صدقي اسماعيل

في شتاء ١٨٦٩ كتب ديستويفسكي الى صديقه الشاعر مايكوف : « منذ ثلاثة ايام بـــدأت بكتابة رواية .. لمجلة « الرسول الروسي ». وبعد شهرين كتب اليه ثانية : « لقد وقعت على فكرة غنية ، احدى هـذه الأفكار التي تترك أثراً عميقاً في الجمهور ، انها من نوع « الجريمة والعقاب » ولكنها أساسية اكثر منها ، وأقرب الى الواقع ، انها تتناول مباشرة اهم المشاكل الراهنة .. لم أكتب من قبل في مثل هذه المتعة وهذه السهولة . ». وكان ديستويفسكي قد وعد « كاتلوف » مـدير المجلة ، بان يوافيه بالفصول الأولى خلال عام ١٨٧٠ ، ولكنه لم يستطع الوفاء بوعده . فخلال شهور طويلة لم يكتب اكثر من عدة صفحات .. وكتب الى الناقد ستراخوف : « مامن كتاب أخذ من هذا الجهد . »(١)

ولم يتح للصفحات الأولى من هذه الرواية ان تظهر الا في شتاء ١٨٧١ اي بعد عامين من نشوء فكرتها عند ديستويفسكي . وخلال هذه الفترة الطويـــلة التي تسمى عادة بمرحلة الانضاج ، كتب الكاتب الروسي الكبير ، مخطوطة مسهبة تتضمن ملاحظات تحليلية عن أشخـاص الرواية . وهذه المخطوطة كانت مسودة لرواية «الشياطين» التي تعتبر أروع ما كتب ديستويفسكي من الوجهـــة الفنية ، وأعمق مامتدت اليه تجربته الفلسفية .

---

(١) Boris de Schlozer — Carnets des « démons » 1954

وعلى الرغم من أن هذه الرواية الكاملة تغني عن كل شرح ، فان الواقعية الفنية العنيفة التي صورت بها الحوادث والاشخاص تستأثر باهتمام القارىء إلى حد تكاد أن تتبدد فيه خطورة أفكارها الأساسية . وهي تجسيد للتساؤلات الفلسفية القلقة التي كانت تملأ نفس ديستويفسكي وهو على اعتاب الخمسين من عمره .

ومع ان هذه التساؤلات تدور حول ناحية رئيسية هي مشكلة الايمان بالحقيقة الاخلاقية ، ومدى ماتوغل فيه الحياة الانسانية من القلق والشر والعذاب ، حين يتزعزع الايمان بالحقيقة، فان ديستويفسكي قد عرض من خلال هذه المشكلة تجربة الوعي الانساني بصورة عامة : ما هو المعنى الحقيقي لوجود الانسان على الارض؟ وماذا يستطيع من أجل مصيره ؟..

إنها التجربة التي تكون نقطة البداية في كل مجتمع يعاني قلق التفتح لحياة جديدة تنذر بها نزعات التمرد التي تغمر النفوس بالثورة على الواقع والتطلع إلى تغييره من الجذور ، وفي مثل هذه الفترة يعيش المجتمع العربي ، وهذا مايجعل هذه المشاكل ، وإن كانت في إطار روائي، على جانب من الأهمية والخطورة بالنسبة للوجدان العربي المعاصر الذي يثقله التباس المبادىء والافكار وارتباك المفاهيم الخلقية .

ورواية « الشياطين » في خطوطها العامة ، هي تصوير لمأساة التناقض في الاهواء البشرية ، الجموح الشقي الذي ينطوي عليه واقع الحياة ، حين يفتقد الانسان حقيقته الخلقية ، وتلتبس عليه القيم التي تمنحه الجدارة والاطمئنان ، عندئذ تستنفده التجربة ، إذا صح التعبير — في اكثر صورها قلقاً وضراوة . كتب ديستويفسكي في المخطط الفني للقصة :

« نزوات عنيفة مهووسة ..: ظمأ إلى الشهوات جامح لايرتوي ، ظمأ إلى الحياة لايخمد. انواع شتى من الشهوات ، وشتى وسائل الاشباع . الوعي الكامل بتحليل كل شهوة ، دون النظر إلى انها قد تتخاذل ... ذلك لانها تقوم على حاجة الطبيعة البشرية ذاتها ، بنية الجسد ، الشهوات الفنية حتى الارهاف، شهوات التصوف ، شهوات الفقر حتى التسول، شهوات السرقة والاغتصاب . شهوة الانتحار . »

وتشير مخطوطات ديستويفسكي الاولى ، إلى انه كان عازماً على كتابة رواية تصور جموح الغرائز في أقسى مظاهره ، وقد وضع لهذه الرواية اسم « حياة خاطىء كبير » ولكنه لم يكتبها . والغالب انه استبدل **بها رواية « الشياطين »** . ويرجع الايحاء المباشر في هذه الرواية **الى اكتشاف جمعية ارهابية عام ١٨٦٩** اقترنت باسم **نيتشاييف** أحد تلاميذ الفيلسوف الفوضوي **باكونين** وكان من ضحاياها طالب بريء ، وكان موته من الاحداث المثيرة بالنسبة للكاتب، ولكن شخصية

نيتشايف هي التي استأثرت باهتمامه ، وقد وجد فيها نموذجاً للشر الذي لايملك اي مبرر غير ان يكون غاية لذاته . وقد تقمص ديستويفسكي نيتشايف في مسودة الرواية يقول :

« الفكرة الرئيسية عند نيتشايف هي ان لا تترك حجراً على حجر. هذا هو الاساسي ، بل الضروري اكثر من اي شيء آخر . يقول للامير : أصارحك بانه ليس من شأني ان أفكر باننا سوف نحظى بحياة جيدة أم لا ، ولكنها على كل حال سوف تكون أفضل مما هي عليه الآن ... ماسوف يحدث من تلقاء ذاته ، في قرن ، سيحدث الآن دفعة واحدة ، لأمر أسرع بكثير حين تستخدم السلطة ، كل شيء سوف يكون للقضاء على الانقسام والجهالة . . »

والامير الذي يوجه اليه الحديث هو نيتشايف نفسه . انهما شخص واحد ، يمثل ستافروغين — فيما بعد — البطل الاول في الرواية الكاملة. قال ديستويفسكي لأحد أصدقائه في ذلك الحين : « ما أكتبه يعبر عن نزعة في أعماقي ، أريد أن أشرح نفسي في حرارة، ان اعلن كل أفكاري » ..

غير أنه في الواقع لايشرح شيئاً ؛ فمنذ ان يكسو هذه الافكار بالوقائع الحية ، يبدو ديستويفسكي الفنان حريصاً على أن يغفل جميع المبررات في السلوك الانساني ، يقول في مكان آخر من المخطوطه :

« الامر الرئيسي انه طوال الرواية لاتشرح الاسباب التي جاء من أجلها نيتشايف . » وفي كثير من العبارات المتناثرة ، يبدي قلقه من الخروج على الفن الروائي : « ابة فوضى !.. » . « ان أكوم الافكار واحصرها .. » ماذا يمكن ان يخرج من هذا كله ..؟... كل شيء يتعلق بالصيغة ، يجب ان أخلق صيغاً «فنية» تستوعب هذا الحشد من الافكار .. « لكم تبدو جافة تبعث السأم ... »

غير انه ينتهي أخيراً الى هذا اللون الاصيل من الوان الأداء . وهو مايتميز به فنه الروائي دائماً :

« لاتفسير ولا شرح عن نيتشايف (أو أي شخص آخر) ، بل يجب الاقتصار على تصوير الأعمال التي يقوم بها .. ان اجعل القارىء في ارتباك .. »

وعلى هذا النحو يتاح للشخصية الروائية ان تسيطر على القارىء سيطرة كاملة ، يجب ان يبقى البطل الروائي لغزاً غامضاً يحاط بهالة من التساؤل

والانتظار ، ان لايكون مسرحاً للخيال — كما هو شأن الابطال التقليديين للقصة — بل تجربة ذاتية للقارىء نفسه . وهو مايشير اليه سارتر في معرض حديثه عن الالتزام في فن الرواية مستشهدا بشخصية ستافروغين ، يقول : «عندما أقرأ ، لا أحلم ، بل أفك الرموز » ومن دون هذا فلا معنى لكتابة الرواية — كما يقول ديستويفسكي إنها تصبح ركاماً من الاوراق الجافة (٢) » على حد تعبير سارتر ايضاً .

بهذه الروح يتساءل ديستويفسكي في المخطوطة: ماذا كان يريد نيتشاييف ؟ لقد استقر لديه ان كل شيء ينبغي ان يدمر ؛ فالواقع الذي يحياه الناس هو الشقاء الذي لايحتمل . ذلك مالا يستطيع ان ينكره أحد ، إلا اذا فقد احساسه بكيانه الشخصي ونزواته وآلامه ، وما دام الشقاء هو واقع الجميع ، فلابد أن تكون مظاهره الاولى في طبيعة المجتمع . يقول نيتشاييف :

« أن نلغي المعتقدات ، الزواج ، الاسرة ، الملكية .. وكما ترى لاأعرف ماذا سيكون بعدي ... ولكنني أعرف ان هذه الامور هي أساس الحياة الراهنة ، وان هذا الاساس هو شر السموم ... ولكن ذلك يعني الغاء المجتمع .. ومهما يكن من أمر فاننا نكون قد قضينا على السم .. »

ولكي يتوصل المرء الى مثل هذا الموقف ، لابد أن يكون قد أدان كل شيء .. اي فقد الايمان بكل شيء ، ومن ثم فانه لابد أن لايبقي حجراً على حجر .. ومن الطبيعي ان يكون سلبياً مضطرباً تحركه الريبة في جميع تصرفاته . ولكن ستافروغين (نيتشاييف في المخطوطة) يبدو على النقيض . لقد توصل الى هذه الادانة لانه صمم على العمل من أجل الخلاص .. وهذا التصميم هو العنصر الانساني الوحيد الذي احتفظ به ستافروغين في غمرة تحلله الخلقي الغريب . قد تكون هناك غاية قصوى هي تحرير الانسانية — كما يردد احياناً — ولكنه لايفكر بها على الاطلاق . المهم في البداية ان نقضي على الاكاذيب والترهات ... وكلمة الترهات هذه يطلقها ديستويفسكي في المخطوطة على كل مايؤمن به الناس في الواقع المتفسخ .. ومن أجل هذا الهدف المهم تقوم المنظمة الارهابية ؛ وقد حملت في قضية نيتشاييف شعار الانتقام ؛ والكلمة الاولى هي العمل : يقول ديستويفسكي :

« ... ويسأله أحدهم . فيجيب : انكم تسألون كثيراً وتريدون ان تعرفوا سلفاً ؛ فاعلموا ان هذا كان حتى الآن يضيع الرجال العاملين .

سؤال — ولكن كيف لا اعرف سلفاً وفي وضوح ما أريد ، وما أتحمل فيه

(٢) J. P. Sartre — Situations I - Gallimard 1957

مسؤولية ارتكاب جريمة ؟.. يجيب نيتشاييف : كلمات فارغة ، ثرثرات . ألا يكفي ان تعرف ان كل فساد سوف يدمر ؟ ولن تكون هناك انقسامات ، بل سوف تعمل الانسانية بصورة مشتركة . »

كيف يفهم هذا التناقض في شخصية ستافروغين؟ التزام الحرية الانسانية والعنف إلى حد القتل والتدمير ؟ أهو شيء في الطبيعة البشرية ؟ الواقع ان هناك حشداً من المتناقضات في طبيعة **ستافروغين** يقول **ديستويفسكي** في المخطوطة :

« طبع ستافروغين : جميع النزعات النبيلة الى حد الافراط المخيف وجميع الأهواء العنيفة ... الخ . . يعتدي على الفتاة الصغيرة «داشا» بدافع الانانية ، ولأنه يكره مساعدة الآخرين ، بل لا يؤمن بها على الاطلاق . . »

ويقول عنه في مكان آخر :

« . ، شخصية خيالية غامضة ، يجوب العالم ويسمع جميع الناس ، لكي يؤكد ذاته . . ،

ويعرض جانباً آخر من طبيعته :

« انه يسأم ، يريد السمو ، ولكن يعرف ان ذلك يعني ان ينفصل عن الارستقراطيين (وهو أمير في قمة هذه الطبقة) وعن دعاة الحياة القرية وعن العدميين . ولكن المسألة لديه هي : من هو اذن؟ الجواب : انه لاشيء . ان له من الذكاء مايكفي لأن يدرك بانه لم يعد روسياً ؛ ومن ثم فهو يجد انه ليس من الضروري ان ينتمي الى شعبه ، وحين يبدو له ما في هذا الموقف من حماقة ، يقول: إني أمثل ذاتي . ولما كان لاينتمي لأي حزب فانه يستطيع ان يطلق احكاماً كلية وان يصغي الى الجميع ولكن من أعلى . انه يستنكر ويتهم ، ولكنه حين يفعل ذلك ، يسخر من نفسه ويشعر بالندم ... »

« يقول : يدهشني انني لا أستطيع أن أعيش كالآخرين . (الجواب : لانه يشعر بالتفوق عليهم .) ولكن فكرة المؤلف هي ان يصور (انساناً) يرى من الامور المهمة ان لاتكون له جذور .. »

وعلى الرغم من ان **ديستويفسكي** قد صور في الرواية هذا النموذج الغريب دون أن يحكم على قيمته الانسانية وجدارته فقد حرص على ان يبرز في شخصيته وعياً شاملا للقضايا الكبرى التي تحيط به . فعلى الرغم من طبيعته المعقدة ومظهره المتناقض ، كانت أفكاره غنية إلى أبعد حد ، وكان يوحي بأن لديه سراً رهيباً ،

كما جاء وصفه في الرواية ، « كما لو ان وجهه يشبه قناعاً » (١) ، « ثم أبدى الوحش مخالبه » (١) . ومن خلال هذا المظهر تلوح القضية الاخلاقية على هذا النحو الغريب .

« كثيراً ما فكرت في الانتحار ، وفي كل حين كانت تأتيني فكرة جديدة: مثلا اذا اقترف الانسان جريمة أو عملا يدان من أجله ، او اية نذالة اي شيء يعد من المخازي ، تحفظ الانسانية ذكراه مدى اجيال ، وتبصق عليه ألف عام .. ثم تأتيني الفكرة: رصاصة في الرأس ويمحى العار الى الأبد . . . وماذا يهم العالم بعد ذلك . . » (٢)

والحقيقة ان تجربة ستافروغين هي تجربة الوجدان الانساني الذي انهارت فيه جميع القيم ، ولكنه احتفظ بفهم واضح لمأساة انهياره . ومن ثم كان استهتاره الجامح ونزواته الشريرة ، كان شقاؤه الذي جدبه عذاب الجميع ، **« العذاب انه جدارة الانسان »** ومن خلال هذه التجربة تثار جميع المشاكل الخلقية على نحو قاتم عنيف ؛ وليس ستافروغين هو الذي يثير هذه المشاكل بل الآخرون . كان مشروعه الخطير ، اشبه بالنور الكاشف ، ايقظ في نفوسهم جميع التساؤلات القلقة .

يقول ديستويفسكي عنه: حين أثار فكرة « احراق كل شيء »... خرج بالنتائج التالية :

١ — ان الاشخاص المملين الذين يعتبرون هذه المسائل فارغة ، ويرون ان الحياة ممكنة من دونها ، هؤلاء هم من العوام ، حشرات ، هشيم للنار .

٢ — ان الأمر يتعلق بمسألة رئيسية ، هل يمكننا الاعتقاد بأننا متمدنون ؟ التاريخ يجيب بالوقائع على هذا السؤال . لا ، لايمكننا ذلك .

٣ — هل هناك اخلاق اخرى ، قائمة على العلم ، تعتبر ممكنة ؟ اذا كان مستحيلاً ، فالاخلاق الممكنة اذن هي في اعماق الشعب .

تلك هي التساؤلات الواضحة التي يقف بها **ستافروغين** في البداية امام الآخرين . وبين هؤلاء شخصية **ن . ب ميليكوف** (ليبوتين في الرواية) نموذج لرجل المبدأ ، يصفه **ديستويفسكي** في المخطوطة .

« انه رجل فكرة ، العقيدة تقلقه وتمتلكه على نحو متميز ، ذلك انها لاتسيطر على ذهنه فحسب ، بل تتجسد فيه ، وتتحول في كثير من المعاناة والألم . الى طبيعة في كيانه ... ومنذ ان تستقر لديه الفكرة ، فانها تلزمه بان يحولها مباشرة الى سلوك .. »

---

(١) Dostoevski — Les « possédés » Gallimard 32 édition 1958

(٢) الرواية صفحة ٢١٩

ويقول عنه ايضاً :

« ان تبديل المعتقدات لديه يعني تبديل الحياة ايضاً .. »

ويبدو هذا النموذج لأول وهلة ، صورة مناقضة لستافروغين الذي ينكر كل اعتقاد ، ولكنهما يلتقيان في العمل المشترك ، لأن « ن.ب » كان في مرحلة من القلق ، وليس غريباً ان يكون الشك في طبيعته رجل المبدأ . يوضح ديستويفسكي: **« مادام صاحب فكرة اومبدأ ، فلا بد من أن يرفض مايورثه الواقع « الملوث » ان ينفصل عنه كلياً .. »**

ويصفه بقوله :

« وسرعان ما أصبح ريبياً على نحو رهيب ، ينكر كل ما لايؤمن به ، اي ينكر « الشر » ويتحداه . وحين يبلغ به الأمر ان يدين كل شيء ، ويريد أن يحيا « فكرته » لم يكن له الا ان يحرق وراءه جميع السفن .. »

وبذلك كان صالحاً للمشروع ، فلا أهمية لنوع الفكرة التي يؤمن بها الانسان مادامت قد دفعته الى الرفض .

ولكن **ليبوتين** يرتبط بالاشخاص الآخرين على نحو اكثر قوة ، انه يلتقي معهم في اكثر الاحيان ، ولكنه لايستطيع التحرر من تأثير ستافروغين . من هؤلاء مثلاً غرانوفسكي (كان في الواقع استاذاً في جامعة موسكو يمثل النزعة الى الغرب **« ان نتبنى الحضارة الاوربية بكل مافيها »**) نموذج القلق الذهني وتوزع الميول . الانسان الذي يخضع لجميع المؤثرات ، انه في المخطوطة شخص لاأهمية له ، وتمثله الرواية في صور متناقضة ، تهيمن عليه فكرة الكرامة الشخصية ، الى جانب التردد والجبن ، والاستسلام لارادة الآخرين . وعلى الرغم من هذا التصدع فهو يحتل القسم الاكبر من التحليل في صفحات الرواية . واحياناً يبدو شخصية رئيسية ، ويحمل اسم : ستيفان تروفيموفيتش ، ان طبيعة الانفعالية المذعنة تجعل حياته سلسلة من الألم والرياء .. يقول على فراش الموت :

« لقد كذبت طوال حياتي .. »

« ان قانون الوجود الانساني ، يقوم كله ، على ان الانسان يستطيع ان ينحني دائماً امام شيء عظيم بصورة لانهائية .. وحين يحرم الآدميون من هذا ، فانهم لايريدون الحياة .. ويموتون في القنوط .. » (١)

ذلك ان الطبيعة الانسانية تنطوي على الضآلة والهوان . ولكن هذه الطبيعة ذاتها ، تبدو على نحو مناقض ، في شخصية شاتوف وهي تمثل

---

(١) الرواية صفحة ٦٠٥

الطرف الآخر في هذا الارتباك . انه يؤمن بالقيم الاجتماعية وبالشعب . ولكنه يملك وعياً عميقاً بالسقوط الذي يعيش فيه الجميع ، وتربطه بستافروغين اولا فكرة التحرر : الانسان الجديد . كتب ديستويفسكي في المخطوطة .

« ان فكرة الحرق والتدمير كانت تعذب نيتشايف كان يخشى ان يكون عدمياً ، ومن ثم لجأ إلى شاتوف من أجل « المشروع » ولكن شاتوف تردد . فسخر منه نيتشايف ... بعد ذلك قتل شاتوف على الأثر ... »

والواقع ان شاتوف كان الضحية البريئة في الرواية .. كان نموذجاً للانسان الحصيف الذي يرتبط بالواقع ارتباطاً انسانياً واعياً . مهما تكن الحياة مظلمة مزعزعة البنيان ، فانها تنطوي على أسس راسخة لاسبيل الى تحطيمها ، هذه الأسس يمثلها الشعب يقول :

« ان وصايتنا على الشعب وانفصالنا عنه قد كشف لنا في وضوح أولاً : انه لادعامة لمجتمعنا يحاول الدفاع عنها ، ثانياً : ان هذا المجتمع يكره الشعب لانه (اي الشعب) يملك دعائم متينة يتصدى للدفاع عنها ، ويحيا حياة ممتلئة ... اجل اننا نكره الشعب لان حياته ممتلئة » ويستطرد ديستوفسكي :

« كان شاتوف يتحدث عن الكراهية التي يكنها للشعب دعاة الحضارة الغربية ... ويسأل ـ ولكن الجميع تحت الوصاية ، كما هي حال الشعب. فيجيب ـ ولكنكم تعلمون ان الجميع تنكروا لوطنهم إلا الشعب ، الشعب لايكره وطنه ابداً .. »

ويوضح **شاتوف** هذه النظرة في الرواية .

« هناك قوة اخرى ، غير العقل والعلم ، تتكون بها الجماهير وتتحرك ، قوة مهيمنة فعالة ، ولكنها مجهولة غير مفهومة .. انها الرغبة الملحة في الوصول الى غاية ، وهي في الوقت نفسه تتجاوز كل غاية .. انها روح الحياة ـ كما يقول الكتاب المقدس ـ .. إنها المبدأ البديعي كما يقول الفلاسفة والمبدأ الاخلاقي ايضاً .. ان هدف الشعب في كل حركة جماهيرية هي البحث عن الـه الخاص ... »(١)

ولهذا تحمل نظرة الشعب شعوراً متميزاً برسالة شاملة بقيادة العالم ...

ويبدو ان هذا الايمان بالشعب كان من العناصر الأساسية في موقف **ديستويفسكي** نفسه ؛ وكان يبلغ احيانا حد الصوفية بالقومية ، الثقة بقدسية الشعب وجدارته ، وهي الكلمة الأخيرة التي يقولها ستافروغين ، في المخطوطة :

« ان وطننا هو تجسيد للروح الارثوذكسية ، وسكانه فلاحون (**كلمة فلاح بالروسية تعني الصليب**) Krest . الرؤيا ؛ وحكم الألف عام . ثم السيطرة الرومانية البغي ،

(١) الرواية صفحة ٢٣٢

الخضوع لاوربا ، للحضارة ، اللعنة الاخيرة التي جرها اصلاح بطرس الأكبر . ولكننا سوف نهم ونحطم اغلال اوربا التي ضيقت علينا الخناق من كل جانب . وسوف يتبين العالم ، الكرة الارضية كلها ، اية روح عظيمة تأتي فتاً ، من الشرق ، فتحرك الجماهير الاوربية لتجديد العالم . ذلك هو خطاب الامير (ستافروغين) . ثم يذهب الى بطرسبورغ ويشنق نفسه . »

والواقع ان هذا الموقف يصدر عن حقيقة اساسية يوضحها ديستويفسكي في المخطوطة ، على النحو التالي : كل اصلاح جذري ينبغي ان يكون طبيعياً ، عودة الى شيء من الفطرة في حياة الشعب ، **اما الاصلاح الذي يفرض من فوق فانه لايجدي نفعاً ،** كل اصلاح يفرض إنما يقوم على فكرة « الحقوق » وهناك حقيقة اولى في حياة الشعب ، هي ان الطبيعة البشرية تتطلب شيئاً من روح التقديس ، اي ان على الشعب ان يسمو على حياته المتردية « ان يتوجه الى اللانهائي ... الحقيقة الثانية ، ان الحقوق — مهما تكن قائمة على المساواة والعدالة — تبقي الانسان كما هو ... عليه ان يتعلم كيف يتخلى عنها بملء حريته . ليس في ذلك شيء من الحرمان والعبودية ، أولاً ، لأن التخلي يكون طوعياً ؛ ثانياً لأن الجميع يتخلون ؛ اما الذين يرفضون (وهم الاقلية) فانهم يجابهون الحرائق والدمار . بعد ذلك يصبح البشر اخوة . »

تلك هي صورة المستقبل كما يتمنى اليها ديستوفسكي في المخطوطة مستنداً الى دعامة أساسية هي **الحس الاخلاقي ، ان يتجاوز الانسان حدود نفسه من أجل القيم السامية ..**

ولكن الانسان عاجز عن هذا السبيل ، لأنه سجين نزواته ومصالحه ؛ وبذلك يبدو الخلاص أمراً مستحيلاً : حتى الذين يبشرون بالمستقبل ، وهم يعيشون الانهيار ، يفشلون على نحو مضحك .

يقول ديستويفسكي :

« في هذا المجال ، ليس للفن ان يعطي كلمة أخيرة الا في صورة دون كيشوت . »

ولكن شيئاً واحداً يمكن ان يكون نقطة البداية ؛ هو رؤية الحقيقة ، وذلك ما تمثله الشخصية الاخيرة في مسودة هذه الرواية ، ويمثلها كيريلوف . يكتب عنه :

« عند كيريلوف : فكرة شعبية : أن يضن بنفسه مباشرة من اجل الحقيقة ... التضحية بالنفس ، وبكل شيء في سبيل الحقيقة : تلك هي السمة القومية للجيل ... لان القضية كلها تقوم على ان تعرف ما يعتبر حقيقة . ومن أجل هذا كتبت الرواية .. »

ولكن كيريلوف في الرواية يرتعد امام الحقيقة ، فحين تتكشف الأمور في واقعها الفاجع ، يقف الانسان هذا الموقف المرعب :

« تصور صخرة معلقة في الفضاء ، فوق رأسك

تماماً صخرة كالبيت، كالجبل تزن ملايين الاطنان.. ويمكن ان تسقط على رأسك في كل لحظة.» (١)

ويقول الراوية :

« ان الانسان يخاف الموت لأنه يحب الحياة.. هكذا أفهم الامور ، وهذا ما تريده الطبيعة .»

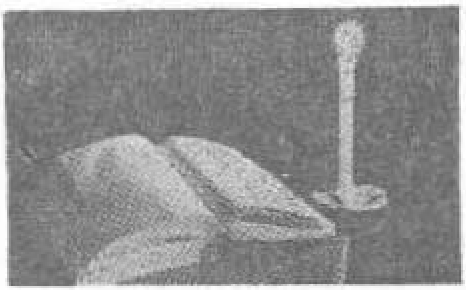
ويجيب كيريلوف :

« بل هو الجبن .. هو الذي يخدعنا ، الحياة هي العذاب . انها الرعب ، والانسان كائن شقي كل شيء في هذه الأيام رعب وعذاب ، والانسان اليوم يحب الحياة لأنه يحب الألم ... بل ليس الانسان في هذه الايام ماسيكون .. سيكون ثمة انسان جديد ، سعيد ، فخور .. سواء لديه ان يحيا أو لايحيا .. هذا هو الانسان الجديد ، انسان المستقبل ... » (٢)

---

(١) الرواية صفحة ١٠٧

(٢) الرواية صفحة ١٠٨



مع الصيرفي في ديوانه الجديد

صدى ونور ودموع

عرض وتحليل : سامي الكيالي

لشعرنا المعاصر دور متميز في التعبير عن الكثير من هوا جسنا وميولنا واهوائنا وتجارب هذه الحياة التي نعيش في خضمها الزاخر ..

وأثره المباشر غير منكور في انتفاضاتنا وثوراتنا وسير تطورنا سواء أكانت هذه الانتفاضات والثورات فكرية او اجتماعية او قومية .

وشعراؤنا المعاصرون اكثر من فئة واحدة. شعراء تجاوبوا مع تيارات التطور الاجتماعي والثوري .

وآخرون عاشوا في ظلال المتع الحسية يكتبون تجاربهم الذاتية وخلجات عواطفهم الندية..

ثمة شعراء جمعوا بين « الذاتية » و « الموضوعية » فكانوا متجاوبين مع مجتمعهم ومع تجاربهم الذاتية في آن واحد ..

وربما كانت هذه الفئة الثالثة اكثر عدداً ، واوفر انتاجاً ، وأوسع آفاقاً ، وأبعد مدى في تفهمها معطيات الحياة بشتى اسرارها وملتوياتها ، وفي تفهم واقع المجتمع بشتى ظواهره ومختلف تياراته ..

ولا اعلم كيف خطر لي هـذا التقسيم ، او هذا التصنيف لمذهب الشعراء وهم اناس ما كرهوا شيئاً كرههم للقيود ، وما احبوا شيئاً حبهم للحرية والانطلاق . .

نعم ، تساءلت كيف خطرت لي هذه الفكرة، ثم رأيتني أقف طويلا إزاء دواوين حديثة . . واذا بي مع شعراء « موضوعيين » وآخرين « ذاتيين » ، بكل مافي الموضوعية والذاتية من ضيق تارة وشمول تارة اخرى

وفئة ثالثة تجمع بين المذهبين . .

فديوان نزار القباني الاخير « حبيبتي » ، ديوان ضم مقطوعات منتزعة من صميم ذاته من حبه ووجده ، من أهوائه والاعيبه ، من عبثه ومباذله . . .

وصدور هذا الديوان الذي اقتصر محتواه على الحب والوجد ، وعلى المباذل والعبث لايعني ان الشاعر قد خلا شعره من « الموضوعية » .. ففي هذا الديوان وفي سائر دواوينه قصائد ومقطوعات تحكي قصص تجاوبه مع مجتمعه باسلوب يختلف عن اساليب غيره من الشعراء ..

ولمحمود حسن اسماعيل الذي خلا ديوانه

. . .

الاخير « اصفاد واغلال » من الاخوانيات والوجديات واقتصر على كل ما يمس احداث قومه.. لهذا الشاعر اكثر من ديوان واحد في الطبيعة والشوق والوجد ـ الطبيعة المخضلة الباسمة ، والشوق الالهي المتقد . .

والوجدان الثائر الذي يرسم اختلاجات الذات في ذهولها العفوي ويقظتها العنيفة معاً ..

ونجد عند كل شاعر من شعرائنا هذه الارتسامات اللطاف التي تصور تجاوبهم مع مجتمعهم ، الى تجاربهم الذاتية مع الحياة .

منهم من عمد الى الرمز ، ومنهم من كان صادق التعبير عن « واقع » حجب باطار من الخيال المرهف الذي لايحد افق .

. . .

وفي كلامي عن الشعراء المعاصرين اقضي لحظات قصاراً مع شاعر من جماعة أبوللو — هذه الجماعة التي اسسها المرحوم احمد زكي ابو شادي قبل ثلاثين سنة ١٩٣٢ .. والتي ضمت صفوة من شعراء الشباب في طليعتهم علي محمود طه وابراهيم ناجي رحمهما الله — وصالح جودت وحسن كامل الصيرفي وغيرهم من الشعراء الذين جعلوا وكدهم السمو بالشعر العربي من « موضوعية » شعر القدامى الى « ذاتية » الشعر الجديد .. اي الى وحدة القصيدة ، والابداع ، وتصوير منازع النفس بصور جديدة لاتجتر صور الماضي ولا تردد النماذج القديمة ..

نعم ، اريد ان اقضي فترة مع شاعر من هذه الجماعة — مع حسن كامل الصيرفي في ديوانه الاخير : « صدى ونور ودموع » .

في قصائد هذا الديوان اصداء نفس عاشت بين الخيال والاطياف ، بين الحب والوجد ، بين النغم والصدى ، وبتعبير ادق نحس ان الشاعر عاش حياته مع الطيف والوجد والصدى اكثر مما عاش مع الواقع والحب والنغم .

ويدرك القارىء من إلماعي الى هذا ان الصيرفي عاش في « صوفية من الوجد » اكثر مما عاش في « جحيم الوجد » فما يكاد يقترب من المرأة .. اريد من انوثتها الصارخة حتى يبتعد عنها الى عالم الشعر يرسم اختلاجات نفسه ونبضات فؤاده ..

انه يخاف الاستسلام الى اغرائها وفتنتها فيكتفي بالنظرة يتأمل ملاحتها ، ويبتسم لغنجها ودلالها ، فيصف احاسيسه برعشة الشاعر الذي

يقدس الجمال لا برعشة المحب الذي يغوص الى الاعماق ..

فحديث تلفوني ينساب في اذنه من فتاة لا يعرف عنها شيئاً يثيره ويهزه فيكتب اثر هذه الرعشة :

يا نغمةً رنت
في مسمَع الشاعر
يا طيب ما اوحت
من خاطر ساحر

* * *

ان غرّد البلبلْ
في هدأة الاسداف
وصفّق المجداف
في صفحة الجدولْ :
فصوتك المرسل
انغامه اطياف
تطوف في دلّ
في مرقص الليل
كشرّد الاحلام
براقة الاجسام
من عالم الوهم

صوتها الساحر الذي انساب الى اذنه جعله يعيش مع عرائس الالهام .. ولا اعلم ماذا يكون احساس الشاعر لو خلا بها بعد أن أثاره صوتها ؟

. . .

انه دائما في خوف من نعيم المرأة الذي يتراءى له قريبا جحيما !

حسبه منها ان يعيش مع الطيف والنغم .. ان يتأمل الجمال دون ان يتملاه !

في قصيدة « الى وكرك ياقلبي » يتجلى هذا الخوف بأجلى معانيه .

فهو اشبه بالفراشة التي تحوم حول النور وتحاول ما استطاعت ان تعيش قريبة من الاضواء خشية الاحتراق بالوهج ..

الى وكرك ياقلبي
ففي وكرك احلامك
تعانق فيه ما يوح
يه من شعرك الهامك

* * *

ويقول :

فقد تسحرك الدنيا
فتستيقظ آثامك
اذا ما حدت عن وكر
ك، او غرتك اوهامك

ويكرر هذا النداء في ثلاثة مقاطع : فهو يخاف على قلبه ان تجن الدنيا حوله حيث لا وحي ولا عقل ! ولا شيء الا الكئوس المرة والشهوة العمياء .

الى وكرك ياقلبي
فان الليل خدّاع

ترى الاضواء ساحرة

وهذا السحر ايقاع

وهذى الفتنة الحيرى

غوايات واطماع

وهذا الحب ياقلبي

ملذات وإمتاع

وهذى حبة الجنا

ت تلهو بالألى انصاعوا

فعد للوكر ياقلبي

فلا تشقى وتلتاع

أيكون هذا الخوف نتيجة تجربة قاسية ذاق مرارتها الشاعر .. ام انه محض تصوف شاعري ؟

ولا اتهم الشاعر بل اميل الى ان خوفه نتيجة تجربة قاسية ذاق مرارتها من احدى الفاتنات فولدت عنده هذا الخوف الذي نراه في الكثير من مقاطع شعره !..

* * *

ويترك سحر المرأة ليعيش في كنف الطبيعة.. من روضة الى روضة ، ومن اريج الزهر الى اغاريد البلبل .

في قصيدة « البلبل » لايحدثنا عن اغاريده بقدر مايحدثنا عن هذه الهموم المكبوتة في صدره .

فقد جاء الربيع ، وانتشت الدنيا ، وكل شيء يبسم ويغرد ويصدح ، وهو في ثورة عارمة من الوجد يريد ان ينطلق وان يعبر عن ثورة احاسيسه ولكن خوفه من الاثم ، او من عذاب الحب الذي اكتوى بناره مرة هو الذي يعيده

الربيع الطلق قد آب

ولكنني مهيض

* * *

الربيع الطلق قد آب

فمن لي بربيعي ؟

بسمات النور في

عيني وارتهاد موعي

وظلال الراحة السمحة

مالت عن ربوعي

وحمام الطير قد

غصت بمهراق النجيع

فدعوني صامتاً.. ادفن

في الصمت نزوعي

ما الربيع الحق الا

خفقات في الضلوع !

حتى هذه الخفقات ظلت حبيسة في صدره فلم يستطع ان ينفث عن كربه ، فجعل الكلام على لسان البلبل الذي طلب اليه ان لايصمت ، وان لايحزن ، وان يغرد ..

فوجه الارض في الربيع يضحك ، والدنيا

كلها تضحك الا الشاعر الكئيب النفس،المجروح الفؤاد والذي :

نضبت فيه الاماني
بعد ان كانت تفيض
انا ان غردت او نوحت
هل يغني القريض ؟

* * *

بسمات النور في عينيّ
وارتها دموعي
وظلال الراحة السمحة
مالت عن ربوعي
فدعوني صامتاً ..
ادفن في الصمت نزوعي
ماالربيع الحق الا
خفقات في الضلوع !

حقاً ما الربيع .. ومابهجته اذا خمدت جذوة الحب من قلب الشاعر ووقفت خفقات ضلوعه !

* * *

ان ديوان « صدى ونور ودموع » يضم قصائد ومقطوعات شتى من احاسيس الشاعر في شتى الوان الحياة .

ولئن طغت « الذاتية » في الكثير من قصائده فشعره « الموضوعي » ليس بالقليل .

فقد مر الشرق العربي بأحداث جسام هزت ضمير الشاعر فكتب قصائد غاية في القوة وصدق التعبير . وكثيراً مايلمس القارىء في بعض قصائده دموع الشاعر ووجيبه وهو يصف تلك الاحداث الرهيبة وصفاً رائعاً ، فمن قصيدة « شريعة الغاب » قوله :

وحشيةٌ نسبت للوحش ظالمةٌ
فالوحش يأنف مما جاء اذناب
دنيا الحضارة عادت من فعالهم
احطَّ ما وصفت ظلماً به الغاب
العلم — وهو اداة الخير — سخّره
للشر مستعمر باغ وسلاّب
والعلم مالم يصنه العقل من فتنٍ
فناسك العلم دجّال وكذاب
تمضي القرون ووحش الغاب يستره
قناع وهم من الانسان خلاّب
ولن تغير من اطباعه أبداً
ديانةٌ ، وتعاليم ، واحقاب

وهو متفاعل مع الاحداث القومية الكبرى وله عدة قصائد تعبر تعبيراً صادقاً عن شعوره وشعور قومه بل شعور كل عربي يخوض معركة الحياة مع الاستعمار .

* * *

واحساسه الذاتي نحو من اصطفاهم بوده وربطت بينه وبينهم قرابة الروح والفكر عدا انسبائه واقربائه ـ ان هذا الاحساس يبدو قوياً صادقاً في روايته .

ولا يتسع المجال لأقف وقفات طويلة مع تلك النبرات التي تصور لنا اسطورة الحياة بأكاذيبها بل حسبي ان اقف قليلا مع قصيدة « الفكر الهامد » الذي صور فيها مصرع فقيد الذكاء والعلم والادب الدكتور اسماعيل احمد ادهم الذي انتحر زاهداً في الحياة بقذف نفسه الى اليم صبيحة اليوم الرابع والعشرين من شهر تموز ١٩٤٠ .

عمرٌ كلمّاع الشهاب طوى الدُنى
حتى تعثر في دجى الاشجان
لو مدّ فيه أتى بأروع آية
لكنه قدرٌ من الرحمن

وبعد ان وصف ملامح حياته ولوامع موهبته والاسقام التي صارعته اشار الى معركة الفكر التي خاضها مع خصومه بقوله :

لما اقتحمت على العقائد بابها
وبسطت رأي الباحث الحيران
قامت عليك قيامة الدنيا له
والدين أثمن ثروة الانسان
لو ناقشوك وجادلوك بحكمة
وهوادة وترفق وليان
لرجعت عن رأي تبين خطؤه
ونزلت عن دعواك بالاذعان
لكنهم شنوا عليك حروبهم
ولقوك بالايذاء والعدوان

والقصيدة تصور المراحل التي مر بها الدكتور ادهم ومنازعه الفكرية والتهم التي الصقت به وموقف خصومه الذين حقدوا عليه

الحقد داء الشرق اعيا بُرؤه
طبّ الأساة وحكمة الكهان
العبقرية من أذاه جريحة
في كل مرحلة وكل زمان
منسيةُ الآثار ، ضائعة الصدى
مخذولة الانصار والأعوان
خذلوك والدنيا اذا لم تسقها
كأسَ الرياء جزتك بالخذلان

وكما بكى صديقه ادهم بكى اصدقاءه الشعراء الذين حملوا مشعل مدرسة ابولو – رثى احمدزكي ابو شادي وعلي محمود طه وابراهيم ناجي وغيرهم ممن تجاوب معهم في الروح والفكر .

وهكذا ، فقد ضم ديوان الصير في اكثر من الالوان والازهار والدموع التي يترقرق في كلماتها الحب والشوق والوفاء ، الى ماتفرضه احداث الحياة على الانسان من اثارة وبغض وحقد على اولئك الذين يريدون ان يسلبوك حياتك ويقوضوا مقدساتك ويزلزلوا كيانك فتنقلب الكلمات والتأملات وهجاً من سعير ونار .. وهذا مانلمسه في شعره القومي الذي يمثل تجاوبه مع الاحداث اصدق تمثيل .

تاريخ الادب العربي

للدكتور ريجيس بلاشير
تعريب الدكتور ابراهيم الكيلاني

عرض ونقد : محي الدين صبحي

ريجيس بلاشير وشـــارل بلات ولويس ماسينيون أسماء مألوفة لدى دارسي الأدب العربي القديم ، إلا أن المضمونات الفكرية التي تشير إليها هذه الأسماء مازالت مجهولة لدى الكثرة الكاثرة من المهتمين بالادب القديم . ومن هنا تتأكد قيمة العمل الذي يقوم به الدكتور ابراهيم الكيلاني في ترجمة هذه المراجع القيمة وتعريف الدارس على نصوصها دون أن يكتفي بالاشارة إلى مذاهبهم واستنتاجاتهم في أبحاث يكتبها هو ويعتمد فيها على آراء غيره وبخاصة المستشرقين ، كما فعل من قبله طه حسين وشوقي ضيف وزكي مبارك .

الدكتور كيلاني هو الذي ترجـم دراسة شارل بلات عن الجاحظ التي تقترح منهجاً في الدراسة علاوة على ما تقدمه من معـلومات ؛ وهاهو يقدم الينا ترجمته لكتاب الدكتور ريجيس بلاشير « تاريخ الادب العربي منذ نشوئه حتى أواخر القرن الخامس عشر للميلاد » ، وقد طبع منه حتى الآن الجزء الاول الذي يحوي كـتابين يبحث في أحدهما المحيط العربي وسكانه والمؤثرات الخارجية والتيارات التوحيـدية ونشوء الكتابة العربية مع بحث ضاف عن اتخاذ لهجة عربية كلغة أدبية . أما الكتاب الثاني فيدرس الادب الجاهلي من حيث تـدوين النصوص وروايتها وجمعها ودراستها دراسة نحوية ولغوية ونقدها ثم قبولها أو رفضها في حالة عدم التثبت من صحـة السند أو صحة النص المروي .

يتألف المجتمع العربي لعرب الشمال من قبائل عديدة يعيش أكثرها على الهجرة الدائمة وانتجاع أماكن الكلأ وهذا ماجعلهم يلجؤون إلى القوة واليقظة الدائمة والحساسية بالكرامة والتضامن مع الجماعة . على أن قوى الطبيعة الغالبة على الصحراء غرست في العربي قدرية عميقة يستحيل معهـا المناضل الصلب الى حكيم يستسلم للدهر ويجد فيه العبر . وقد نتج عن ميل العربي إلى التجسيد أن تعددت آلهته وتشخصت على شـكل قوى تكمن في الأشجـار والينابيع والفلوات . عدا بعض المراكز الحضرية التي عرفت التوحيد . وكانت بلاد العرب الجنوبية أهم المراكز الحضرية الـتي تأثرت بالمعتقدات التوحيدية حتى انهـار سد مأرب وتفرقت قبائل الجنوب . يضاف إلى ذلك

مركزي مكة ونجران في الشمال حيث كانا ملتقى القوافل والشعراء مع تأثيرات تشع من مراكز عربية أخرى كدمشق وبصرى والحيرة . ولقد نشأ الخط العربي في احدى هذه المراكز الشمالية التي تأثرت بالآرامية وطورتها ولعل الفضل في ذلك يعود إلى الأرتباط في أوائل القرن السادس وقبله . وبعد أن استقرت دولة العرب أدخلت إلى الخط اصلاحات يسرت الكتابة فيه . وقد تجاوزت هذه الاصلاحات فن الكتابة إلى اصطفاء لهجة عربية واحدة من بين اللهجات المتعددة التي تنطقها القبائل . ويقرر الفارابي « أن قيساً وتميماً واسداً هم الذين عنهم أكثر ما أخذ معظمه ، وعليهم اتكل في الغريب وفي الاعراب والتصريف ، ثم هذيل وبعض كنانة وبعض الطائيين » وعلى هذا النهج الاصطفائي وفق النحويون في استقراء قواعد اللغة عن طريق توحيد لغتي القرآن والشعر الجاهلي واستخراج لغة مجردة على قدر الامكان من الاختلافات اللهجية .

وما دامت اللغة والخط قد رسخا فلم يبق سوى استخدامها في تدوين النصوص والاستعاضة عن الرواية بالتأليف والجمع . ولعل ما يسهل بحث هذه المشكلة معرفة الطريقة التي كان ينظم بها الشاعر . هل كان يكتب ما ينظم أو يلقنه للرواية مشافهة ؟ وكيف كانت تنتشر آثاره بين الناس ؟ وعلى الرغم من ورود بعض الشواهد في الشعر الجاهلي تدل على علم بعض الشعراء بالكتابة فانه ليس لدينا مجال للاعتقاد بأن الشاعر الجاهلي قد دون آثاره . وعلى ذلك فان انتشار هذه الآثار يدل على اعتماد الرواية طريقة للنشر . وبما أن الشاعر يعيد تنقيح القصيدة بعد شيوعها فانه يفسح المجال لتعدد الروايات . وحين اتخذ التدوين شكلاً رسمياً ـ بعد جمع القرآن ـ تركزت فكرة التدوين الكتابي في أذهان الناس في الربع الأخير من القرن الثامن الميلادي وظهرت طبقة من الرواة تختلف عن رواة القبائل في أنهم كانوا ذوي خبرة بحياة القبائل وأخبارها كما أنهم كانوا مقيمين في الحواضر واشهرهم خلف الأحمر وحماد الرواية والمفضل الضبي . وقد أباح بعض هؤلاء الرواة لأنفسهم التلاعب بالآثار الأدبية حتى نادى مثقفو البصرة بعدم الثقة برواية حماد واعادة النظر في مرويات خلف . وقد ساعد على تمحيص المرويات نمو العلوم النحوية واللغوية في العراق فقد نشأت مدرسة البصرة على القياس في النحو واللغة وكان من مؤسسيها أبو عمرو ابن العلاء وعيسى الثقفي . أما مدرسة الكوفة فقد اعتمدت على الاستعمال وبحث الشواذ واعتمدت على الكسائي . ولم يأت القرن التاسع الميلادي حتى كان العلماء والنحاة الذين أعقبوا كبار الرواة قد أتموا تدوين الشعر الجاهلي بشكل نهائي ، ومن أهمها « المفضليات » و « الأصمعيات » ثم « ديوان الحماسة » لأبي تمام وأخيراً الدواوين و « الأغاني » وجميعها تسير على أساس نسبة الأثر إلى صاحبه والتدقيق في مناسبات القصائد . ومع ذلك فان صحة الشعر الجاهلي تبقى موضوعاً للبحث بسبب تشكك علماء العراق أثناء التدوين وليس لنا امام عجزنا إلا قبول الافتراض القائل بأن النصوص الشعرية ذات المظهر الجاهلي تعطينا صورة غير بعيدة عن المثل الأعلى الجاهلي للعقيدة

عطشان ياصبايا

مجموعة قصص لسليمان فياض
اعداد مؤسسة الشرق للطباعة والنشر ،
القاهرة - ١٨٣ صفحة من القطع المتوسط

عرض وتحليل : زكريا تامر

لعل قلب الانسان الذي تتلاقى فيه الافراح والاحزان والآمال واشباح الخيبة ، سيظل الموضوع الدائم الاساسي لأعمق الآثار الادبية ، وسيظل الصوت الحقيقي الحار الخالد الاشد روعة من المشكلات الآنية التي قد تغري بريقها الساطع السطحي الكتاب غير الاصيلين فيلبون نداءها ، ويجهدون تأثيرها في نتاجهم الذي يفقد الكثير من قيمته بعد زمن قليل .

وقد يكون التعبير الحقيقي عن الموهبة الاصيلة انتفاء وتسجيل ماهو آني وخالد في وقت واحد .

واذا كان الكاتب المبدع الخلاق هو ذلك الذي بمقدوره ان يعبر عن القلب البشري الذي يملكه انسان .. ولد في يوم من الايام وعاش لفترة مافوق ارض صلبة ثم وافاه الموت في الختام .. فان الكاتب المصري الشاب سليمان فياض في مجموعته القصصية (عطشان ياصبايا) كان واحداً من المخلصين الطامحين لقول كلمة صادقة عن هذا القلب .

ومن البديهي ان الكاتب في عصرنا مضطر لان يكون رمزاً للانسان الواعي المطلوب منه موقفاً محدداً مما حوله . وليس باستطاعة الكاتب الانفصال عن عصره ، وسيظل نتاجه انعكاساً لحياة ذلك العصر ولكن الكاتب باستطاعته ان يكـون ثورياً صادقاً أو كاذباً غير مخلص لانسان عصـره .

والكاتب العربي في هذه المرحلة الحرجة

الشعرية . كما أنها تقدم صورة نستطيع بواسطتها أن نتعرف على الوسط البدوي . وعلينا أن نتقبل هذه الآثار بجملتها وألا نعتبر سوى العواطف العامة التي عبرت عنها دون الدخول في جزئيات العبـارة .

هذا هو مجمل البحث الذى يقدمـه المستشرق الدكتور بلاشير عن الأدب الجاهـلي في الجزء الأول من كتابه . ويمتاز هذا البحث بالشكل التجميعي الذي يعود إلى كل المراجع ويسبكها في قالب واحد يخرج منه بنظرية قـد لاتكون نهائية لكنها تفيد الدراسين باقتراح منهج يعتمدون عليه في دراساتهم اللاحقة . وليس لنا إلا شكر الدكتور ابراهيم كيلاني على ترجمته الواضحـة السليمة التي تمتاز بدقة الأسلوب وصفائه .

●

التي تمر فيها بلاده مجبر على ان يكون ثورياً . وسيكون غير امين لفنه ولوجوده اذا لم يصدع قلبه عذاب الانسان المسحوق تحت قيود الاوضاع الاجتماعية ، واذا لم ينبذ الحديث الناعم عن الورد والنساء ، ويختار خوض المعركة ضد عدو مارافضاً القيم التي تسلب الانسان حريته وكرامته وحلمه والا فانه سيكون مجرد منمق بارع لكلمات جوفاء لاتملك جذوراً في الانسان ومشكلاته . لذلك وجب على الفن ان يكون سلاحاً يدافع عن الانسان عندما يكون ذلك الانسان مهزوماً معذباً فالمخلوق الجائع المتعب اليائس لن يستطيع رؤية الورد الجميل والسماء الزرقاء ولن ينصت لتغريد عصفور أو لخرير ساقية .

ولقد استطاع سليمان فياض ان يحقق نجاحاً باهراً في تصوير عذاب البشر في حياتهم اليومية ، وتجلى في قصصه تجسيد عميق لادراك الواقع ادراكاً واعياً يمجد الارض والانسان . والعالم الذي تقدمه القصص هو عالم الامور اليومية حيث تصخب اهواء البشر وشهواتهم وآمالهم . عالم واقعي معني بالاشياء المرئية الملموسة ، تتوفر فيه خصائص ومقومات تمنحه وجوداً حياً دون الحاجة لمعرفة بيئة معينة .

ان ابطال القصص هم مخلوقات من لحم ودم ، رؤوسها ليست محشوة بثقافة الكتب ، تعيش بعفوية دون اسئلة ، ولا تجادل في افكار تجريدية ولا تبتدع نظرات فلسفية او حكماً فهي مستسلمة لتيار الحياة اليومية . واستسلامها ليس مبعثه اذعانها لواقع قاس اقوى منها انما لمعرفتها ان الهزيمة هي نهاية كل صراع . وهي ليست شريرة ، ولكنها ايضاً ليست طيبة بالمعنى التقليدي فقيمها مستمدة من طبيعة واقعها اليومي ، وتهيمن على علاقاتها روح انسانية قائمة على تناقض مدهش يتميز بحيويته الشبيهة بالدم الحار المنبثق من جرح كبير ، فاشخاص القصص هم اشرار وطيبون في آن واحد ففي قصة (اللص والحارس) يقدم اللص على السرقة دون ان يشعر انه يرتكب عملاً غير مشروع ، ويخونه صديقه في اللحظة الحرجة ليتركه يواجه بندقية الحارس بمفرده ، ويتردد اللص في قتل الحارس ، والحارس يرمق بحنان اللص القتيل ويخاطبه بندم قائلاً (لولم اقتلك انا .. لقتلتني انت) . وبطل قصة (يهوذا والجزار والضحية) يخون المرأة التي تعشقه من اجل مبلغ من المال ولكنه يوشك ان ينفجر باكياً لحظة تناديه مستغيثة حين يهم اعداؤها بخنقها .

ان الحياة اليومية في القصص تبدو وكأنها قدر غامض متوحش يتحكم بمصير البشر ويسوقهم نحو مصير مفجع لاخلاص منه ، فبطل قصة (عندما يلد الرجال) يعجز عن فهم الحيــاة التي تقسر الانسان على التخلي عن كرامته من اجل القوت ويعتبرها نوعــاً من المعجزة ذات التأثير السلبي الهدام .

وترين على بعض القصص نظرة تعتبر الانسان مجرد عابر سبيل ، له دور صغير في الحياة ، يؤديه ثم يرحل عن الارض .. هذه الارض التي تحتاج فقط لشمس ومطر ولرجل واحد ولامرأة واحدة لـكي تظل الحياة مستمرة على سطحهـا ، وبطل قصة (النداهة) يعبر عن هذه النظرة باعتقاده : (كان ينبغي للساقية ان تدور حتى لو كان ميتاً .. لابد ان تشرب الارض وان يكبر الارز ويكبر) .

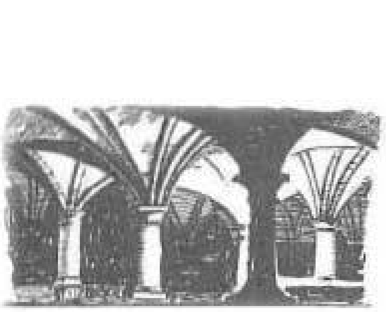
وثمة لحن فاجع متكرر يصعد من القصص ويتردد باستمرار بإيقاع عنيف وحزين ، وهو البحث باصرار عن شيء ما مفقود كأن طبيعة الحياة تقتضي وجوده .. شيء مجهول بامكانه تبديل وجه الحياة البائس ومنح السعادة والطمأنينة .. ويمتزج هذا البحث على الدوام بتوق الى الحصول على حياة آمنة مفعمة بالغبطة .

واذا كان ابطال القصص خاضعين لظل اسود فليس هذا مبعثه سوداوية مريضة انما هو تعبير صادق عن واقع غير انساني يعيشه بشر معذبون يحاولون الظفر بالسعادة . وتتجسد ثورتهم البعيدة عن التهويل في ذلك الاسى الخفي المرير الذي يدفعهم لان يقذفوا بحياتهم في جحيم العنف واراقة الدماء أو لأن يتشبثوا بالوهم وينتظروا مقدم المعجزة التي ستغير حياتهم في قصة (عطشان ياصبايا) لا يموت الامل بان ثمة كنزاً مدفوناً تحت ارض القرية ، ولن يملكه البشر الا اذا آمنوا بان يكون ملكهم جميعاً لا الواحد فقط .

وقد قال مالارميه قديماً :(ان تسمية الاشياء تقتلها اما الايحاء بها فهو يخلقها) وهذه الكلمات تعبر بايجاز عن مزايا اسلوب سليمان فياض الفني فسرده القصصي يخلو من الشرح البطيء الممل للتفاصيل والجزئيات مما يجعل من عملية القراءة نوعاً من المتعة التي يهبها الكشف عن عالم جديد يعج بأناس أحياء . وحوادث القصص ليست اعتباطية تأتي كيفما اتفق فهي محددة بدقة ، وتتجسم عن شخصيات تحيا طبائعها ، وينجح سليمان في خلقه الوهم بأن هذه الحوادث حقيقية عندما تنمو من خلال ملاحظات واحاسيس الشخصيات لا عن طريق تصوير خارجي مقحم .

وسليمان فياض لايقيد نفسه بمكان او زمان معين انما هو يتخطاهما محطماً القواعد التقليدية ليعبر باسلوبه الخاص عن موقف يلتزمه .

وان هذه المزايا جميعاً تتجسد في قصة (يهوذا والصحة والخراب) التي تمثل بشكل جلي الكاتب في احسن حالاته ونتيجة لتطور من الممكن تلمسه ومتابعته عبر القصص .. هذه القصص التي تشكل بمجموعها نتاج فنان مخلص جدي يسير في طريق النضج والعطاء الخصب السخي .



لن يكون وداع

مجموعة قصص لياسر هواري
المكتب التجاري - بيروت
١٧٢ صفحة - قطع متوسط

قصائد من خشب

شعر ابراهيم سلامة - اصدار دار الغد - بيروت - ١٠٤ صفحات متوسطة .

عرض وتحليل غسان كنفاني

من اطرف المصادفات التي تلفت النظر وتثير التأمل : صدور كتابين في وقت واحد تقريباً ، لا يجمعهما اي شيء ولا تربط بينهما أية صلة ، ورغم ذلك فان وجودهما معاً في الواجهة يثير أكثر من فكرة ويطرح الى الدراسة أكثر من باب . .

الأول هو مجموعة قصص الاستاذ ياسر الهواري التي سماها « لن يكون وداع » (١) والثاني هو مجموعة « قصائد » ابراهيم سلامة التي سماها « قصائد من خشب » (٢) . . اما الصلة بينهما فهي صلة التضاد ان جاز ان نسمي التضاد صلة.

و « صلة التضاد » هذه تبدو اوضح اذا عرفنا ان الاستاذ الهواري هو رئيس تحرير مجلة « الاسبوع العربي » بينما يشغل الاستاذ سلامة منصب محرر في نفس المجلة ، وبين الهواري وسلامة تقوم مسافة كبيرة في المنصب ، وفي الراتب ، وفي الوضع الاجتماعي ، وفي جو المعيشة ، وفي مستوى الاحتكاك . . وهذه المسافة هي التي جعلتنا نقول بوجود صلة التضاد التي تطرح نفسها بوضوح - على شكل الانتاج الادبي ومضمونه - بين « لن يكون وداع » و « قصائد من خشب » .

ففي حين يمثل « لن يكون وداع » خلاصة تجربة بورجوازية مخلصة ، فان « قصائد من خشب » تمثل مرارة التجربة التي تقع في المقابل تماماً .

ولسوف اسارع الى القول بأن اطلاق صفة البورجوازية على « لن يكون وداع » لا تحمل في طياتها اي موقف نقدي او انتقاص ، كما يفترض النقد الماركسي تماما كما لا تحمل صفة « البروليتارية » ل « قصائد من خشب » اي مديح او مؤهل ، وانما استعملت هاتين الصفتين لاقرر حقيقة الاصول التي ترتد اليها المجموعتان ، والذي يهمنا من الأمر - على الأقل هنا - هو الادب الجيد ، بغض النظر عن اي شيء آخر .

* * *

تتمثل البورجوازية في « لن يكون وادع »

---

(١) « لن يكون وداع » لياسر الهواري عن المكتب التجاري ١٧٢ صفحة - ٢٠٠ ق.ل.

(٢) « قصائد من خشب » لابراهيم سلامة عن دار الغد ١٠٤ صفحة - ٢٠٠ ق.ل.

بالنماذج البشرية اولاً ، وفي الاحداث على مستوى مساو ، وفي القضية التي تشغل النموذ ج والحدث وتشكل خلفيتها ، ثانياً ، وفي اللغة التي ينعكس عليها هذا كله في كثير من الاحيان ، ثالثاً .

اما في قصائد من خشب « فان البؤس — ولسوف نستعمل هذه الكلمة هنا مقابل البورجوازية لان البروليتارية توحي بالناحية الاقتصادية فقط بينما نعني هنا ماهو اوسع من ذلك — .. إن البؤس ذاك يتبدى بالنموذج ، وهو دائماً المؤلف نفسه بالاحساس المفرط بالذاتية المقاومة لعمليات الطمس المتواصلة ، وفي القضية ، المتبدية دائماً بذلك الشعور الغامض بالتحدي ، تحدي الحياة الخلقية والمادية والاجتماعية للذات » وينعكس ذلك على الاسلوب دائماً فيطبعه بالسخرية المريرة التي تؤمن للمهزوم سلاحه الحاد في المعارك الطويلة التي تنتهي دون ضجيج .

ففي « لن يكون وداع » يكون البطل النموذج دائماً هو الرجل العاشق او المرأة العاشقة وتكون هذه القضية هي المحور الذي تدور حوله الحياة كلها ، فالشمس تشرق مع ابتسامة الرضا على شفتي المحبوب ، والكون كله يرتكز على هذه القضية — في نظر النموذج — اما في « قصائد من خشب » فالشمس لاتشرق إلا على « اوناسيس » إله الثـيرة ، كما يقول المؤلف ، والكون كله يرتكز على العدو اللدود ، المليـاردير الذي كتب له الخلود جنباً الى جنب مع غاغارين وآينشتاين ..

أما الاسلوب فانه في « لن يكون وداع »

ينكشف احياناً بشكل مباشر عن كل المظاهر البورجوازية التي تلفت نظر تلك النماذج التي تعيش جوها ، واحياناً كثيرة باقل من سطرين :

« .. الدنيا اول الصيف ، ورووف فندق الكابيتول غارق في ضوء خافت ، وموسيقى ناعسة تنثاب من الجوك بوكس ، وحفنة من الناس منتشرون في ارجاء المكان يتعشون ، ذات ليل »

ولكن بطل « قصائد من خشب » لايعرف هذا كله ، ليس لأنه لم يره بل لأنه لايهتم به .. فتلك ليست مشاكله على الاطلاق ، إن مشاكله « اصغر » من ذلك ، ولكنها اكثر اهمية في تكوين الحياة اليومية لاولئك الذين يعيشونها حتى الثمالة كل لحظة من لحظات أيامهم .. ان الامور التي تلفت نظره وتثير افكاره وتفتح ابواب مأساته الباكية المضحكة هي امور لايلحظها إلا البائس:

« صاحبة الكاديلاك الاسود
لم يعد فيك شيء يغري
ولم يعد بامكانك شراء السعادة
بورقة الخمسين او المئة
لوعت قلبي مراراً
بطقطقات ليرانك
وانتقاء القديم منها بدل الجديد ! »
ويقول ايضاً :
« .. لا اعتقد ان شقة في الدنيا
تباعد اكثر مما بيني وبينك
وهل ابعد من انسان واقف في الشمس
معدته خاوية

رأس سمكة

مجموعة قصص لاسكندر لوقا ـ ١٨٠ صفحة قطع متوسط ـ منشورات دار الشعلة ـ دمشق •

عرض وتحليل أورخان ميسر

ان القصة في بلادنا ، اذا قيست بمفاهيم المعجم العالمي للقصة الذي جاء حصيلة لدراسات كبار النقاد العالميين ، لاتزال في بدء نشأتها وعند اولى المراحل التطورية التي لها من الطاقات الكامنة ما يمكن ان يجعلها بعد برهة — يصعب تحديدها الآن — تأخذ مكانها على مستوى القصة العالمية التي صار اليوم من ابرز مقوماتها اتخاذ مواقف معينة من الوجود ومن مشكلات الانسان ومعضلاته ، مواقف تعتمد في الدرجة الاولى على المعرفة اليقينية والتجربة الانسانية الواسعة والنظرة الفلسفية التي تحمل خصائص العمق والشمول .

الا ان ذلك ، اي كون قصتنا في بدء نشأتها وتطورها ، لايعني ان نتاجنا الحاضر يفتقر الى الجودة والابداع او انهـا اذا قيمت ظلت على مستوى ضحل لا اهمية له . ان في بعض النتاج الحديث مادة ترفعه الى مستويات اقل ما يمكن ان يقال فيها جيدة ، ان من حيث المواقف الفكرية التي يتخذها اصحاب هذا النتاج من معضلات الانسان وان من حيث اساليب المعالجة للمواضيع التي يتطرقون اليها في قصصهم . الا اننا لانستطيع

من انسان آخر يتلحف بالذهب والجوهر »

ومرة اخرى ، ليس هـذا الكلام تحيزاً لموقف وانتقاداً لموقف آخر ، لا وانما هو وصف لظاهرة لا أكثر ولا أقل ، ذلك انه ، في الواقع ، لا يمكن ان نطلب أدباً مزيفـاً من اولئك الذين لا يعيشون إلا واقعهم الحي الموحي ، وهم ليسوا مطالبين بان يغادروا ارتباطاتهم المعقـدة بجوانبهم ليصفوا حيوات لايعرفونها إلا من مقاعد المتفرجين.

ومن الطبيعي اي هـذا العرض لا يتطرق ـ أيضاً ـ إلى تقييم نهائي ومفاضلة ، فبعض قصص « لن يكون وداع » جيدة وبعضهـا الآخر ضعيف ، وكذلك الامر في « قصائد من خشب » حين تأتي بعض القصائد في غاية الروعة لتصل الاخرى الى حضيض الاسفاف ..

وعلى اي حال فان الكتابين ، اللذين صدرا في وقت واحد وارتفقا في الواجهات جنباً الى جنب هما تلخيص مذهل حتمي لاطراف الحياة يعيشها مجتمعنا مثلما هما ضروريان لفهم هذا المجتمع .

في الوقت ذاته ايضاً ان تنكر ان هناك عدداً غير قليل من كتاب القصة وكاتباتها قد اساءوا الى قصتنا المعاصرة نتيجة تقصيرهم في الاحاطة بمفهوم القصة ، كما هي اليوم ، فراح بعضهم يصطنع توتر اللفظة ليحيا في جو ذي حمى وهمية على نحو ما كان يفعله الكتاب والشعراء الرومانسيون عند بدء الحركة الرومانسية في فرنسا، وراح البعض الآخر يحاول « ربتجة » القصة اي جعلها ريبورتاجاً مما ينشر عادة في الصحف اليومية .

ورب معترض قال انه لايجب علينا ان نقيم نتاجنا القصصي وفق المستويات العالمية بل وفق النسبية السائدة في بلادنا . غير ان مثل هذا الاعتراض لايتفق مع منطق نقد القصة مطلقاً . لان السؤال الذي ينطلق منه النقد الصحيح هو: هل عندنا قصة، والى اي مستوى ؟ اننا لانستطيع ان نعتبر بلادنا بلاداً متمدنة فيما لو بقيت عندنا وسائط النقل مثلاً مقصورة على قطارات القرن التاسع عشر من تلك التي لاتزيد سرعتها على بعض من الكيلومترات في الساعة الواحدة بينما تستعمل البلدان الاخرى طائرات نفاثة تقطع المسافات بين القارات في ساعات معدودة . الا اننا نستطيع ان نعتبر بلادنا متمدنة لان وسائط النقل التي ذكرناها كمثال سابق والتي نستعملها عندنا لاتقل اليوم عن تلك التي تستعمل في اكثر البلدان رقياً ومدنية .

ومن الكتاب الشباب الذين يخطون اليوم خطوات واسعة في ميدان القصة الاستاذ اسكندر لوقا الذي قدم لنا آخر نتاجه القصصي في مجموعته التي تحمل اسم « رأس سمكة » . ان التطور الذي استطاع ان يحققه الاستاذ لوقا في ميدان القصة ما بين عام ١٩٥٢ ، اي عندما اصدر مجموعته الاولى « حب في كنيسة » ، وفي عام ١٩٦١ في مجموعته « رأس سمكة » تطور يمكن ان يسجله الناقد الموضوعي في جملة الاعمال الايجابية التي قام بها فئة خيرة من كتابنا الشباب في خلال السنوات الاخيرة . اننا لانطلب من كتابنا القصصيين ان يكونوا صنواً لاولئك الذين تقرع نواقيسهم باستمرار في الصحف والمجلات والمكتبات الغربية مثل فوكنر ودريل وكوسنبرغ وتدوي من بعد ذلك اصداء هذا القرع في اذهان كتابنا وقرائنا دوياً يفقد كثيراً من ايقاع نغمته الاصلية. وذلك ما يحدث عندنا غالباً . ان كل ما نطلبه من كتابنا القصصيين اليوم ان يكونوا ذاتهم على مستويات فكرية شبه عالمية تتناسب مع ما حققناه من مكاسب غير قليلة في مجالات التربية والتعليم والاجتماع والسياسة الدولية منذ بدء الاستقلال حتى يومنا هذا . ولهذا السبب بالذات كان للتطور الذي سجله الاستاذ اسكندر لوقا ما بين عامي ١٩٥٢ و ١٩٦١ اهميته التي لايمكن ان نغفلها في نقد القصة السورية .

وقد تميز هذا التطور بالانتقال من مجرد النظرة العابرة الى شؤون الحياة اليومية نظرة فردية ذات اطار « مخروط » تنمقه وتزخرفه مافي لا وعينا من احاسيس عقدية ومن رصيد استجابي لعوامل كثيرة تحيط بنا احاطة محكمة لا نستطيع الهروب منها مهما بذلنا من جهد عقلي

في سبيل ذلك ـ تميز بالانتقال الى موقف ذهني له مقوماته الخاصة وله مايمكن ان يعتبر في مفهوم النقد الصحيح تطوراً لم يتوفر بسهولة مثيـل واضـح له في انتاج كتابنا الشباب الآخرين.

اما هذا الانتقال في قصص الاستاذ لوقا مابين هاتين المرحلتين فانه يتضح في نقطتين هما :

١ ـ محاولة التحليـل للمواقف والاشخاص تحليلاً ينسجم ، الى حدود بعيدة ، مع القواعـد الفرويدية التي تعتبر حتى اليوم وفي جميع جامعات العالم اسساً ينطلق منها التحليل النفسي .

٢ ـ التناغم المنطقي في داخل احداث القصة، هذا التناغم الذي ينتهي بالقارىء الى التساؤل عن قضايا تحيط به كمواطن عربي وتحيط به كانسان ، ثم الى التساؤل عن قضايا كبرى لها بعض علاقتها بالوجود المطلق وبمعضلات الانسان الاجتماعية.

وتظهر هاتان النقطتان جلاء في قصص عديدة من ابرزهـا « الديدان تحب اكل العيون » و « غدا تكون الشمس محرقـة » و « لكنت انساناً آخر » و « نداء القرية » و « انسان ضال » و « الاله الصغير » . ولعل هذه القصة الاخـيرة هي التي تستطيع ان تكثف هاتين النقطتين تكثيفاً لانغوص فيه . ان القصة قصيرة جداً ، اذ انها تقع في اقل من ثلاث صفحات . الا انها تبرز معـالم كثيرة في تطور مفهوم القصة عند الاستاذ لوقا كما انها تعطي ايضاً رشقة حارة الملامس لمـا عنده من نزوع الى تفهم المعضلات الانسانية المختلفة تفهما صميمياً .

وتبدأ القصة هكذا :

تثيرني رؤية الماء الجاري . والسبب يعود الى طفولتي .. اذ يوم كنت في الخـامسة كان ابي يصطحبني معه الى البحر ويدربني على السباحة . فنشأت على حب تكسر الامواج وسمـاع جريان الماء . وبعد قليل من ذلك يقول : « ولكن بقيت في نفسي لهفة الى رؤية الماء ، وكبرت معي فيا بعد » . ان في هذه البدايـة كثير من الفرويدية . الا ان هذا لايعـني ان الفرويدية من اسس كتابة القصة ، انما يعني ان هنـاك اتخاذاً لمواقف ذهنية معينة لها اثرانها ولها قيمتها في المفاهيم الانسانية بصورة عامة . لذلك فان هذا يختلف كل الاختلاف عن اتخاذ مواقف شخصية فردية انفعالية تزول بزوال الاستجابة التي يكونها مؤثر معين كما هو مألوف في حياتنـا اليومية في المكتب والمتجر والشارع والمقهى .

وتتناول القصة صفحة من حياة شاب يبحث عن عمل ، الا انه بدلا من ان يحاول ايجاد عمل لنفسه يغوص في اعماق ذاته ليعانق ذكريات ماضية حلوة تنسيه حاضره المر . وهو بالاضافة الى ذلك يحاول ان يجعل النملات الحمراء التي تمضي امامه على التراب « جثثا » لاقيمة لها . ان التحليل الفرويدي لظاهر في هذه المحاولة ظهورا بينا . اننا لانستطيع دائما ان نكون ما ومن نريد . لذلك فاننا نعمد الى الاستعاضة للتنفيس عن الشعور المكبوت ، وهذا ما حاول ان يفعله الاستاذ لوقا في قصته « الاله الصغير » .

ذاكر ياترى

مجموعة قصص للسيدة خديجة الجراح النشواتي ـ أم عصام ـ منشورات دار الثقافة ١٩٥ صفحة ـ قطع متوسط

عرض وتحليل ياسين رفاعية

المرأة عندنا مازالت تعاني انواعا من الحرمان والكبت .. ولكننا لانتفي ان ذلك بدأ اليوم يمضي نحو الزوال بالتطور المعقول.

والاقلام النسائية التي برزت عندنا خلال الاعوام الخمسة الماضية تكاد ترسم الطريق لتحرر المرأة تحررا عاقلاً . فابتداءا من كوليت سهيل الخوري فالسيدة ام عصام فالدكتورة انعام مسالمة فلوى شحادة فالسيدة غادة السمان حتى السيدة قمر كيلاني في القصة ، نستطيع ان نقول انه اصبح لدينا أدب يعبر عن المرأة وحياتها في مجتمعنا .

ان الاسماء التي سبقت كوليت كوداد سكاكيني والفت الادلبي وسلمى الحفار الكزبري وغيرهن ، استطاعت من غير شك ان تقدم للادب العربي خدمات جلى ، وان في عطائهن من الاصالة مايقدر .. على ان هذه الاسماء كانت وما تزال ، لاتقدر القدرة الكافية على التعبير عن حقيقة المرأة . ولنستطيع ان نسمي هذه الاسماء **بالكاتبات المحافظات** اما كوليت وما بعد ، فنستطيع ان نطلق عليهن اسم **الكاتبات المتحررات**

→

وكانت معالجته موفقة كل التوفيق عندما انتهى الى نهاية فيها بعض الحصيد الميتافيزيائي عندما قال بعد استعراض تحليلي لنفسية البطل ذى العقد الصبيانية الذي حاول ان يغرق حاضره في ماضيه « مد الاله الصغير يده الى مجرى النهر واخرج من جوفه كمية من الماء تفوح منها رائحة سمك ، وتجرعها بعصبية .. » . ان في هذه النهاية بداية ميتافيزيائية تحاول ان تظهر عبثية الوجود ضمن نظرة معينة في مفهوم الحياة الواقعي اظهارا لايقصد منه مجرد عرض للعبثية انما يقصد منه عرض فكرة تنقض عادة استمرارنا في عبثية لاهدف ورائها .

واذا ظل هذا العرض المقتضب لمجموعة « رأس سمكة » مقتصراً الى حد كبير على قصة واحدة هي « الاله الصغير » فذلك لان هذه القصة تعطى نموذجا واسع المدى ، واضح المعالم لانتاج الاستاذ لوقا الحديث الذي يتميز عن الانتاج الآخر في ميدان قصتنا بمحاولة الغوص الى اعماق الانسان عن طريق التحليل النفسي الفرويدي وفي سبك احداث القصة سبكا منطقيا ينم عن حصيلة علمية لها ازهار واثمار .

اللواتي استطعن ان يحولن الانظار نحوهن تحويلا كبيراً واضحاً لانهن عبرن بجرأة ، عن مشكلة المرأة الحديثة في مجتمعنا الحاضر .

احدى هؤلاء الكاتبات السيدة خديجة الجراح النشواتي « ام عصام » التي اسهمت وما زالت تسهم في حركة التحرر الادبي بالنسبة للمرأة العربية في سورية .

واول كتاب اصدرته هذه الكاتبة مجموعة قصصية بعنوان «ذاكرياترى» ضمنتها القصص الاولى التي كتبتها وهي على التوالي : ذاكر ياترى ، ياليل ، هذا عامك العاشر . تراه يحن يوما ، وريقات في الخريف ، ذكريات منثورة ، بدون غد ، ضائعة ، قدر ، عبير ذكرى ، ناقمة ، حنين ، انتظار ، لن انسى .

والملاحظ في هذه القصص انها محاولة للخروج من الاطار الضيق وثورة مكبوتة مخنوقة من اجل تحرر المرأة .

على ان اكثر هذه القصص تكاد « تتفكك » فنياً ، حتى ان المنطق الواعي في اكثر الاحيان واضح الانفلات من يد الكاتبة ، انها خلط بين التجربة الذاتية والتجربة الشخصية ، حتى ليحس القارىء ان الكاتبة تنقل له خواطرها الخاصة في الحياة وفي تجاربها هي بالذات دون الانتقال الى الشمول الانساني الواسع .

انها مجموعة احداث مرصوفة الى جانب بعضها البعض وانطباعات لارابط بينها ، وتجارب شخصية مغرقة في ذاتيتها .

يقول رجاء النقاش : « انه من اخطر المزالق التي يمكن ان يقع فيها الفنان ، ان تتحول القصة الى يوميات . . يجب ان تنتقل التجربة الشخصية المباشرة الى ما يمكن ان يسمى بالتجربة الذاتية . ان الفنان يطبع الاشياء بوجهة نظره الذاتية الخاصة فيبدو العمل الفني مهما كان فيه من التخيل والابتكار منسوباً الى هذا الفنان مشتملا على طابعه الذاتي الخاص . اما التجربة الشخصية فهي نقل وتاريخ وبينها وبين الفن الصحيح مرحلة او عدة مراحل . .

وهكذا فان الكاتبة انزلقت في هذا المهلك الخطر في كثير من قصص المجموعة . بالاضافة الى ذلك ، فقد كانت تسيطر على المجموعة رومانسية مغرقة في احلامها ، حتى ان حوادث القصص تشعر بها كأن حوادثها قد جرت في القرن الثامن عشر والتاسع عشر .

لكن ذلك فيما يبدو لم يسيء الى القصص، لان الابطال الذين قدمتهم لنا الكاتبة يزخر بهم مجتمعنا . نراهم في كل مكان . نلمسهم كل يوم . ان ام عصام عبرت تعبيراً دقيقاً عن فئة معينة ، من الناس ، بل من النساء اللواتي لايستطعن ان ينطلقن من تقاليد مجتمعهن المحافظة القديمة البالية .

ان كثيراً من المخلوقات في الشرق ، مازالت تعيش بعقلية القرون الماضية ومازالت العاطفة تحكمها اكثر من أي شيء آخر ، ومازالت البطولات الدون كيشوتية تترك في نفوسها آثار الاضحى ، فيها خليط من الاعجاب والدهشة والخوف في آن واحد

عندما قرأت مثلا قصة « ذاكر ياترى » ادهشتني مقدرة الكاتبة على رصد هذه المواقف في قصة حب عجيبة ممتلئة بالحوادث الغريبة ومع ذلك فقد خلصت الى نتيجة واحدة : وهي ان مجتمعنا مليء بهذا النوع من القصص .

انها قصة فتاة احبت رجلا متزوجاً ، وكانت تقابله ، وعندما تتأخر تتعرض لضرب اخيها .

« واستقبلها اخوها حانقاً .. كأن غضب الدنيا كلها قد صب عليه ، ونزل بها صفعاً وركلا . لانها استعملت تلك الحرية الى أقصى حد .. »

ثم تكتشف البطلة ، انه من غير المعقول ان تحب انساناً متزوجاً تحبه زوجته ، فتتركه وتتزوج غيره ، وبعد مدة يلتقيان مصادفة .

ـــ سمر .. أهلاً وسهلاً .. اين كنت طوال تلك الايام .

ـــ كنت اطبق مبادئك التي غرستها في .. كنت في يوم مضى لك ياعامر.. كنت احبك..

واليوم .. اليوم .. اصبحت امرأة . امرأة فعلا كما يقولون .. امرأة تعجبك . امرأة ليست عادية .. وليست تافهة .

لقد لقنتني مبادئ الحياة حين كنت غافية عنها، علمتني كيف احيا علمتني كيف اكفر بالحب . واتفهم الغاية . لقد أصبحت إمرأة ناضجة. امرأة غرست فيها افكارك لكنك خسرتها .

وتهمس له في نهاية القصة **« لقد عرفت الحقيقة وفهمتها »**

وهكذا على نفس الروح وعلى نفس المستوى تمضي القصص الباقية : ان المشكلة التي طرحتها السيدة ام عصام في هذه المجموعة هي المشكلة العاطفية لدى المرأة وما ينجم عنها من مشاكل ومآس وفواجع .

وفي قصة « تافهة » تبرز نقمة الادبية على التقاليد وعلى الذين يجعلون من المرأة مجرد آلة للتفريخ والتسلية .

« المرأة هي الكأس الزجاجي الشفاف الذي يجب ان يراعى بعناية . فكيف نرمي به بين براثن القسوة والظلم وننتظر منه ان يظل صحيحا لامعا. كيف تتماسك مادته ؟ وهو يتعرض لألف ضربة ورمية . المرأة ذلك المخلوق العاطفي الرقيق : كيف تسعد ان عاشت حياتها في ضياع وحرمان .. »

وهكذا زخرت هذه المجموعة القصصية بالثورة التي تعتمل في نفس المرأة الشرقية ولكنها لم تنج في كثير الاحيان من الهنات . ولاشك ان القصص التي اخذت تنشرها المؤلفة الآن في الصحف والمجلات هي اكثر من محاولة انها اقرب الى فن القصة والى مفهوم القصة منها في « ذاكر ياترى ».

يقدمها محي الدين صبحي

صديقة بيبو

تاليف كارلو كاسولا

ايطاليـا

نشرت سنة ١٩٦٠ هذه القصة القصـيرة العذبة والمؤثرة عن القدر الذي يفرق بين حبيبين شابين . وقد اصبحت آنئذ حديث ايطاليا بأسرها ونالت جائزة ستريجا بسبب حماسية اسلوبها رغم قلة المخيلة وضعف الشخصيات التي تؤلفها. وبطلاها فتاة قروية تدعى مارا وشاب في التاسعة عشر يدعى بيبو وهو شيوعي ومقاوم سابق ضد الفاشية . يغادر بيبو القرية وفي جيبه مسدس وفي قلبه حماسة غامرة تدفعه الى قتـل كاهن فاشي واصابه ابن أحد ضباط الميليشيا ، وهنا مايجعله بطلا في نظر نفسه . وهو يبرر عمله بأن المقتول ليس شيوعيا ، فهو اذن ضد الشيوعية. أما مارا فانها لاتهتم بمشاكل بيبو في بادىء الامر ولكن حين يحكم بالسجن اربعـة عشر عاما تقرر ان تقف الى جانبه وتساعـده على القرار حتى ينتهي الحـكم الفاشي . والطريف في الكتاب هو حماسة المؤلف تجاه بطله . اذ يعتبره شابا مناضلا خانه الحظ بدلا من ان ينظر اليه على أنه شاب خيالي متهور .

قصص من الحرب

وقصص المساء

لميخائيل سادوفين ـ رومانيا

ميخائيل سادوفين ابن فلاح روماني جاهل . لكن ميخائيل مافتىء يكتب منذ تعلم الكتابـة عام ١٩٠٤ حتى توفي عام ١٩٦١ وانتـج مايقرب من ١٢٠ كتابا أصبح بهـا من أعظم كتاب رومانيا . كان فنانا ومعلقا سياسياً فريدا. وكان رئيس البريزيديوم في سنة ١٩٤٧ وساهم في بناء رومانيا بعد الحرب . وتؤخذ كتاباتـه الان مثالا على الثار الاولى للثقافة الجديدة. لكن سادوفين لاينتسب الى الثقافة الجديدة بقـدر ماينتسب الى القرن الماضي ، فزملاؤه الحقيقيون ليسوا هرنبورغ أو باسترناك بل تولوستوي وتورجنيف ، رغم أنه أقل مهارة منها . ومعظم كتاباته ليست قصصاً بل حكايات تهدف الى تصوير منظر ريفي او حادثة في لحظة مـا . ففي قصة « البرعم الاول » يلخص الـكاتب حيـاة كاملة بصفحات عديدة . اذ تحتفل ابنة أحد الاقطاعيين بعيد ميلادها الثاني عشر ، فتتبرع بدافع الشفقـة

يعض الهدايا لضحايا احدى السفن الغرقى ، لكن السخرية التي يواجهها بها أهلها وأصدقاؤها تدفعها الى البكاء والانعزال عن مجتمعها وترتد الى عالم الطفولة.

وفي مجموعة «قصص من الحرب» يتحدث عن بطولة الرومانيين في حربهم ضد الاتراك عام ١٨٧٧ وهو يحسن الحديث عن الحرب القديمة بالاسلوب التقليدي ، فيصور جنود احدى الفرق وهم مرحون اثناء الحرب ذات الاساليب القديمة.

وصف رعب جندي تركي أسير في احدى المستشفيات وحبه لاحدى الممرضات الجميلات حبا ممزوجاً بالخوف من الانتقام ، لكنه يكتشف أن الرومانيين ليسوا متعطشين للدماء رغم حقدهم على الاتراك. ان أسلوب سادوفين يحمل ميزات الاسلوب الرومانتيكي ـ بمساوئه ومحاسنه ـ ويصلح لوصف معارك القرن التاسع عشر ومناظر الريف فيه .

انفجار الشمع

لجورج ماندل

أمريكا

ربما كانت موضوعات الجنون والحرب والشجاعة هي اكثر الافكار انتشاراً في العشرين عاماً التي مضت . وقد لايعود هذا الى ان الانسانية في هذه الفترة هدرت من الدم والعقل أكثر مما هدرت في الايام السالفة ، بقدر مايعود الى ان الكاتب يؤخذ بقيمة نضاله الفردي ضد العالم وضد المزالق التي يتعرض لها في حياته ، ويتجه كثير من كتاب اليوم الى تصوير المآزق والحالات العامة بدلا من ان يتحدثوا عن الناس كأفراد ، ويبدو ان موضوع الحرب يساعدهذا

الاتجاه ويصرف النظر عن شخصيات القصة ودرجة قوتهم أو واقعيتهم أو نسبيتهم . وقدسار الكاتب جورج ماندل في هذا الاتجاه فوصف في روايته الانهيار العقلي لفرقة مدرعات أمريكية تحارب في المانيا سنة ١٩٤٤ . ويصور الانحلال الذي يحل بأفرادها اثناء القتال . في عالم غير معقول ، يملؤه الوحل والدم والنار ، تصبح الحالة الطبيعية للجندي المقاتل قريبة من الجنون .

فقد حاربت هذه الفرقة مايقرب من اربعة اشهر تحت إمرة ضابط يعتقد ان منتهى الشجاعة

هو أن يدفع فرقته الى التقدم دون أن يؤمن لها الامدادات الكافية . وتكاد الفرقة ان تقع في حصار لولا ان الحظ يرسل اليها فرقة تنقذها من مأزقها . ويبدأ قائد الفرقة الجديدة بملاحظة جنون ذلك الضابط اثناء الليالي التي تمنع فيها الانفجارات النوم عن عيون الجنود الراقدين في ظلام الخنادق . ويحاول الجنود ان يضيئوا الخنادق بشموع يصنعونها من دهن صناديق الطعام ، لكنها لاتضيء الا بضع دقائق . الا ان احد الجنود الجبناء يعثر على كمية كبيرة من الشمع فيخفي سرها عن رفاقه ، الا ان الجنود يكتشفون ان الشمع موجود بكثرة في الكنائس واماكن العبادة فيحضرونه الى الخنادق ، الا ان هياجهم يزداد كلما ازداد النور حولهم . ويعلنون انهم لن يحاربوا بعد الآن ويرفض القائد الجديدان يقودهم الا ان احد المساعدين يهبط الى الخندق ويقتل الضابط ويدوس الشموع بأقدامه والجنود ينظرون اليه . في تلك الاثناء يهجم الالمان ويقتلون الجميع .

والجديد في الرواية هو اتخاذ الشموع رمزاً للنور الذي يصدر عن الدين وقد استثمر الكاتب هذا الرمز بمهارة جعلته محوراً للرواية تملأ ثلاثمائة صفحة



في هذه الزاوية من مجلة المعرفة مع الأحداث الفكرية العربية ، يحب احد محرري (المعرفة) أن يشرك قراءها في تذوق ثمرات الأقلام ، التي تقدم في مجلات فكرية عربية – عسى ان يكون في ذلك بعض التنويه بالمجهود القيم الذي تبذله الزميلات العربيات ، وبعض التسجيل لنواح مفيدة من النشاط الأدبي والفني والاجتماعي على النطاق العربي الواسع ولعل ذلك يطيب لقرائنا واصدقائنا ولعل زميلاتنا لا تبخل علينا بموافقتها على هذا الاقتطاف .

الثقافة – دمشق

عالج الدكتور عادل العوا في عدد تموز من مجلة الثقافة موضوعاً مهما وهو : اثر العرب في ثورة العلم . فأورد قول برتراند رسل «عندما ظهر العرب في التاريخ أصبح للعلم وظيفتان : اولاهما اتاحة المعرفة للانسان والاخرى فسح مجال العمل امامه . فالاغريق ، باستثناء « ارخميدس » لم يعنوا الا بالوظيفة الاولى ، وظيفة المعرفة ، وقد برهنوا على شغفهم العظيم بطلب المعرفة للمعرفة ، وتساءلوا عن العالم وبنيته ولكن الاغريق شعب كان يعتمد على عمل العبيد والأرقاء ، ولا يتذوق الاهتمام بالنواحي « التقنية » والعملية الا قليلاً ، وحينما ظهرت العناية بتطبيق العلم على العمل فانما ظهرت في ثوب الخرافة والسيمياء . وقد ابدع العرب في سبل الكشف عن الحجر الفلسفي ، والتنقيب عن الاكسير الذي يطيل العمر ، وبحثوا عن تحويل المعادن الى ذهب ، وقطعوا في هذا المضمار شوطاً بعيداً ، وتوصلوا الى طائفة كبرى من الاكتشافات النافعة في ميدان السيمياء . ولكنهم لم ينجحوا في معرفة العلمية التجريبية معرفة كاملة دقيقة . وسبب ذلك ان اجهزتهم كانت لاتزال ابتدائية اولية .»

ويقول الدكتور العوا بعد ان اورد هذا الرأي : ولا نود في هذا المقـــال ، ان نقصر كلامنا على هذا الرأي الذي يعترف للعرب بمكانة كبرى ، ومنزلة رئيسية .

ويدلل الدكتور العوا على آثار العرب في العلم فيضرب الامثلة المختلفة الـــتي تؤيد وجهة نظره منها قوله : ان « الجاحظ » قد تمرد على سلطة « ارسطو » العظيم ، كما تمرد (ابن سينا) ورفض الخضوع لهذه السلطة مؤثراً اتباع الحق المبين .

ويقول الـكاتب : اعلن العرب ثورتهم الثقافية على السذاجة والتواكل والاستسلام ، وجعلوا شعار « الجاحظ » شعـارهم حين قال: لاتشفيني الا المعاينة . ورجعوا الى محك التجربة والملاحظة والمنطق والعقل معاً . وهذا كله يؤلف الروح الانتقادية ، روح العلم الحديث . وفي هذا المضمار ذاته نجد اسهـام العرب عظيماً في تطوير الفكر البشري وتزويده بسلاح الوعي السليم .

الفكر – تونس

الادب في تونس الشقيقة آخـذ بالتطور والنمو . ومن الملاحظ ان كافة الصحف والمجلات التي تصدر هنـاك تفرد عدداً كبيراً من اعمدتها وصفحاتها للفكر والادب على ان مجلة « الفكر » هي المجلة التي تهتم بالادب والفن دون المواضيـع الاخرى .

وقد عالج الاستاذ البشير المجدوب، موضوعاً يكاد يكون موضوع السـاعة بالنسبة للفكر في العالم ، انه موضـوع « الادب بين الانطواء والشمول » .

ويوضح السيد المجدوب ان الـكاتب مسؤول لدى نفسه أولاً ومدعو الى تجسيم احساسه ونفخ الروح في فكرته لان في ذلك اكتمالاً لذاتـه . فما دام لم يبرم عملية الخلق يظل يشعر بالنقص في شخصيته فيندفع الى الكتابة اندفاع الباحث عن ذاته الغامضة المحتجبة متطلعاً متحرقاً الى معرفتها والكشف عنها .

ويؤكد السيد المجدوب ان الـكاتب مسؤول ايضاً عن الغير يرى ان من واجبه ارضاء حاجتهم الى المعرفة والجمال . لانه اذا ما انتشى ســاعة الوحي ، بما يختلج في صــدره من احاسيس وخواطر احس بان لديه سرا ثميناً . ذخراً نفيساً حرياً بأن ينعم ويسعد به النـاس . فيرغب رغبة ملحة في اشراكهم في افكاره واحساساته اعتداداً وانتصاراً لها وامتاعاً للغير لان في طربهم مضاعفة لسروره واعجابه بفنه .

ويقول : الادب هو الاهتداء الى «الوحدة» الانسانية عن طريق الفرد ، واعني بالوحدة الصلات القوية العميقة التي تجمع بين البشر في حدود الزمان والمكان وايضاً عبر هذه الحدود رغم اختلافها — اذ الوجود البشري بوجه عام — اشبه بالدوائر بعضها اوسع من بعض مردها جميعاً الى مركز واحد وليس بينها الا اختلاف نسبي .

ويخلص الكاتب في مقاله الى القول : اذن « فخرافة » الاديب الذي لايكتب الا لنفسه ان هي الا وهم باطل فما من كاتب جدير بهذا الاسم الا وهو — على الاقل — يخاطب طبقة من الناس ، وما انطواء النفس وانغلاقها دون محيطها الا قتل للادب وضرب من الانتحار الفكري .

الأديب - لبنان

في عدد حزيران الماضي ، قدمت مجلة « الاديب » افتتاحيتها للكاتب الاردني محمد اديب العامري، وهي بعنوان «الالهام والالتزام»

ويوضح الكاتب ان « الالتزام » ليس تعبيراً موفقاً وان كان موفقاً ما يهدف اليه من خدمة الانسان وخدمة المجتمع على اوسع نطاق ممكن ، ومن الاهمية بمكان ان لايحول هذا الاصطلاح الثقيل دون رؤية الهدف النبيل» ومع ان الالتزام في عرف سارتر يقتصر على ناحية معينة من الفنون ، فان مانرمي اليه لاعلاقة له بالتزام سارتر ولا بالوجودية التي لاندري كيف تتلاءم مع الالتزام ، عنده وعند زملائه ، والناس في فلسفة الوجودية — ان صح ان تكون هذه فلسفة — « انما يعيشون ليعيشوا فقط »

وبعد ان يوضح الكاتب ان الأديب لايمكن ان يكتب أدبا أصيلاً الا اذا كان ملتزماً، اورد بعض الامثلة على ذلك ، كما سجل اراء الكتاب الاجانب في هذا الموضوع ، نقل رأي توينبي الذي يقول ، ان القضية الاساسية في النقد الادبي في زماننا هي العلاقة بين الخلق والادب ، فليس بفنان بعد الآن من يرى اي معنى في دعوى الفن للفن ... اني اعتقد انه يجب على الكاتب المبدع ان يحيط بالآفاق الواسعة للحياة الانسانية التي ليس للحكم الخلقي عليها سلطان ..» .

البينة - المغرب

هذه المجلة تصدرها وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الاسلامية في المملكة المغربية، وقد لوحظ ان المشرفين عليها يحاولون ابراز الابحاث الدينية وتطوير الدين الاسلامي باستمرار ليلائم متطلبات عصرنا الحديث

وقد كتب الدكتور اجروز نطال الأستاذ بجامعة كامبريدج للبيئـة يشرح آراء ابن رشد السياسية وعلاقتها بالمجتمع الانساني وقد جاء في المقال قوله « ان ابن رشد — على ما ارى — كان يفرق بغاية الوضوح بين الشريعة وبين القانون كما حدده افلاطون لانـه كان يعطي الاولوية للشريعة بوصفه مسلماً » ويقول : « وموقفه الايجابي من القانون الالهي كان ييسر له المقارنة بين هذا القانون ومختلف القوانين التي ذكرها ارسطاطاليس (العامة منها والخاصة) والتي تشجع على اقامة الانصاف ولا يوجد بها عدل مطلق ولكنها تفسح المجال لعدل مصطلح عليه او عدل سياسي حسب رأي ابن رشد. اما الشريعة فهي القانون الكامل للدولة الاسلامية اي للخلافة على عهد الخلفاء الراشدين تلك الدولة التي فاقت في المثالية دولة افلاطون (Politeia) حيث ينص فيها على الملك الفيلسوف .

طبيك – دمشق

طرح الدكتور صبري القباني مأساة العصر الحديث وملهاته ألا وهي الصورة المتحركة السينما – وذلك تحت عنوان « الحقائق ... والظلال » في عدد حزيران الماضي من مجلة طبيبك » فأوضح مالهذا الفن من تأثير على حياة الانسان المعاصر والنشء الجديد ، كما أشار الى فوائده الكبيرة لو أحسن أستخدامه ، ويوضح الدكتور القباني ان القائمين على هـذا الفن في العالم لم يحسنوا استخدام هذا الفن ، بل انهم رغبوا فيـه اول مارغبوا بالربح المادي ودغدغة احلام الجماهير . وقد أدى ذلك الى شيوعه وايجاد فئة واسعة من البشر يمكن تسميتهم بمدمني الافلام. ويشير الكاتب الى تشويه ابنائنا من جراء ادمانهم السينما فيقول : يمكن بعد نظرة نلقيها على أي شارع من شوارع المدينة ان نرى بوضوح آثار هـذا التشويه في الشعور المموجة والحواجب المزججة، والشوارب التي لاتعرف أي شعر أم صبغة خطت بقلم مهندس أو ريشة رسام ..؟

وكان المفروض ان تقف السينما العربيـة موقف الدفاع عن ضمائر الجيل العربي امام غزو هوليوود . إلا ان الأمر كان على العكس ، اذ ذهبت هـذه السينما مذهب هوليوود ، ونقلت عنها مع حفظ التشويه كل سوءاتها وزادت على ذلك انها أدخلت عنصر الميوعة .

ويختم الدكتور القباني مقاله – بل صرخته المفجعة – بقوله : ان كثيراً من الامراض النفسية وما اليها من شذوذ وعقد وجرائم انما يعود الى هذا المرض الجديد الذي حمله العصر وهو « مرض الأفلام » وكان من الممكن لولا المتسابقون الى جني الارباح من عرض الافلام الرخيصة ، ان تكون السينما دواء لا داء ، وان تكون عـدة المربي في التهذيب واداة المعلم في التعليم ، ووسيلة المصلح في الاصلاح والارشاد الى السبيل القويم . وطالب الدكتور القبـاني الدولة بمراقبة الافلام بعين تدرك ان مستقبل القوة والعزة في البـلاد العربية ، رهين بما يوضع اليوم من مشروعـات للأخذ بيد الجيل والسير به الى أمام .

رسالة من لبنان

يقدمها : غسان كنفاني

حصيلة النشر في عام ـــــــــــ

لنلق نظرة جدية على حصيلة العام الماضي من الكتب التي طبعت ونشرت في بيروت .

لقد حقق الادب الانشائي قفزة كبيرة في هذا العام فبلغ عدد كتب القصة والرواية والشعر التي الفت خصيصاً لتنشر في بيروت رقماً قلما بلغه في الاعوام الخمسة الماضية ..

ولكن القفزة الاكبر تحققت في الكتب المترجمة ذلك انه ندر مرور يومين في الموسم الماضي دون ان تدفع المطابع الى الاسواق كتاباً مترجماً جديداً .

اما الانخفاض فقد حصل في كتب الفكر والدراسة المؤلفة ، ولوحظ ان العدد الذي صدر من هذا النوع من الكتب كان اقل بكثير من العدد الذي صدر في اي عام من الاعوام القليلة الماضية .

وقد تكون هذه الاحصائية العامة العريضة مثاراً للتساؤل ، ذلك ان تجارة الادب الانشائي تجارة غير رابحة غالباً ، على حين ان تجارة كتب الفكر المؤلفة تحقق في كثير من الاحيان تجارة رابحة ، ومن هنا لايستطيع المرء ان يعرف سبباً لارتفاع انتاج كتب الادب الانشائي وهبوط انتاج الفكر المؤلف ، اذا نظرنا الى المشكلة من ناحية تجارية محضة على الاقل .

فقد جرت العادة ان يطبع من اي ديوان شعر عادي نسخاً لاتزيد عن ١٢٠٠ نسخة ، وغالباً ماتؤدي ضرورة الاناقة في الاخراج والاسراف في الورق الى زيادة رأسمال النسخة بحيث لايحقق المبيع ربحاً كبيراً .

اما في كتب الفكر المؤلفة ، او المترجمة ــ اذا كانت راقية ــ فان الطباعة عادة تصل الى انتاج اكثر من ألفي نسخة ، ويحقق نوع الورق المستعمل نقصاً في الرأسمال يحقق ، بالتالي ، ربحاً صافياً في المبيع ..

ونستطيع ان نأخذ مثالاً بسيطاً على ذلك ، فكتاب « الشيوعية » الذي الفه هارولد لاسكي وترجمه خيري حماد طبع منه اكثر من الفي نسخة ، وحقق المبيع رقماً مذهلا اذ وصل الى اكثر من ٩٠ بالمئة ، وحدث ذات الشيء لكتاب « فرق تسد » الذي الفه ميشيل ايونيدس وعربه خيري حماد ايضاً .. وفي نفس الوقت مازالت دواوين الشعر التي صدرت باعداد اكثر ولنسخ

اقل تملأ واجهات المكتبات وكذلك بالنسبة لكتب القصة القصيرة والرواية .

طبعاً ان هذا الكلام لايتناول شاعراً مثل نزار قباني (الذي باع « حبيتي » في مطلع الموسم الماضي بعشرين الف ليرة لبنانية للمكتب التجاري) ، ولا يتناول كتاب « رحلة في قلب عبد الحليم حافظ » الذي صدر عن دار الموعد وطبع ٣٥ الف نسخة نفذ اكثرها في اقل من اسبوعين ! » انما يتناول الكتب العادية التي تتجه الى القارىء المثقف في قطاعاته المختلفة .

اذن ماهو السبب الذي اكثر من دواوين الشعر هذا الموسم وانقص من كتب الفكر المؤلفة؟

ان جلة الاسباب التي ادت الى ذلك تتلخص بما يلي :

اولا : انصراف المؤلفين العرب الى الترجمة لأنها تحقق ربما اكثر عن طريق اسهل ومضمون حين تجري الحسابات على الصفحة او السطر او ربما الكلمة الواحدة ، ومما لاشك فيه ان دور النشر تفضل هذا النوع من المعاملة لانه يكفيها مؤونة التقييم .

ثانيا : الرقابة المفروضة في غالبية الدول العربية والتي تمنع استيراد الكتب الفكرية في حالة مساسها بنظامها من قريب او بعيد او انتقاده ، سلباً او ايجاباً ، او الاشارة اليه ، او مدح نظام دولة توجد بينها وبين الدول المعنية خلاف في الرأي او وجهة النظر او المبدأ..وهذا يعني على اي حال انه لايؤمل لكتاب معين ان يوزع توزيعا حرا في نطاق الوطن العربي كله.

ثالثاً : عدم تعرض ديوان الشعر عادة الى مثل هذه الاجراءات ، وهذا يجعل امر توزيعه ــ عملياً ــ اكثر سعة.

رابعا : محاولة بعض دور النشر الجديدة اثبات اخلاصها في خدمة الادب ولو كان خاسراً ، والبرهنة على ذلك عملياً بغية قطع شوط في طريق الدعاية واحراز الثقة، واشعار جهور القراء بعزم الدار المعنية على احتضان الادباء الذين ترفض الدور الاخرى المغامرة معهم.

خامساً : عدم وجود انتاج موثوق ، علمياً ، لمفكرين او دارسين عرب بشكل يلفت النظر وهذا رأي يقول به مديرو دور النشر .

سادساً : عدم وجود مايغري المؤلف في الانصراف الى التأليف الجدي الذي يستغرق زمناً طويلا وجهداً اطول ، لامن حيث البيع ولامن حيث الارباح . . وهذا رأي يقول به المؤلفون .

وهكذا نصل الى الحصيلة ، التي هي مجموع هذه الاسباب والتي ــ كما يلاحظ بشكل خاص في هذا الموسم ــ تنعكس انعكاساً مؤسيـاً على الانتاج العربي اذا اتفقنا على الحقيقة التي تقول بأن بيروت قد غدت مطابع الوطن العربي باجمعه.

اخبار الأدب والفن في لبنان

● رغم أن المهرجانات الفنية قد قامت على نطاق واسع في لبنان قبل موعدها التقليدي بسبب برنامج سياحي خاص ، فان موسم بعلبك مازال يحتفظ بمكانته الخاصة . .

في ١٩ و٢١ تموز عزفت مقطوعات موسيقية غربية بين اعمدة بعلبك ، وبين ٢٧ و٣١ تموز أقامت فرقة مهرجانات بعلبك ، وعلى رأسها فيروز ونصري شمس الدين مهرجان الغناء والرقص الشعبي .. وكذلك بين ٢ و٥ آب حيث يصير مجموع الليالي اللبنانية تسعاً ، حملت عنوان « حكايا من لبنان » .

وفي ١٨ و٢١ آب سيقدم المسرح الفرنسي مسرحية جان كوكتو : (رينو وارميد) .

● قدمت فرقة بعلبك بين انقاض مدينة جبيل مسرحية مكبث لشكسبير ، وكان التمثيل والاخراج موفقين .

● من الكتب القليلة جداً التي طبعت مرتين هذا العام كتاب « كنت طبيبة في اليمن » من تأليف كلودي فايان وترجمة حسن العيني ، صدر عن دار الطليعة ، وكتاب « القومية العربية » الذي كتبه بالانكليزية حازم نسيبة وترجمه الى العربية عبد اللطيف شرارة واصدرته مؤسسة فرانكلين في بيروت . . بينما طبعت دار الطليعة للمرة الثالثة ديوان الناي والريح للشاعر خليل حاوي .

● يعكف ميخائيل نعيمة على كتابة مجموعة قصص جديدة ما زال عنوانها مجهولاً .. ويقول المطلعون على هذا العمل ان ميخائيل نعيمة ينهج في هذه المجموعة نهجاً جديداً لم يطرقه احد من قبله ، وان هذا هو السبب في التكتم الذي يريد له المؤلف ان يؤدي الى ضجة تستحقها الجدة في المجموعة .

● تنهمك مطابع كثيرة في بيروت بطباعة كتب لتعليم اللغة العربية باعداد كبيرة وباسلوب جديد بقصد الانتهاء منها قبل مطلع العام الجديد ليصير الى شحنها للجزائر بناء على توصيات المراجع الجزائرية العليا .

● الكتب التي اصدرتها مؤسسة فرانكلين في الشهر الماضي كانت « يقظة العرب » من تأليف جورج انطونيوس وترجمة ناصر الدين الاسد والدكتور احسان عباس ، وكتاب « حقوق الشعب » من تأليف وليم دوغلاس

وترجمة مكرم عطية . وكتاب « والتحويتمان » تاليف ريتشاود تشيس وترجمة سلمى الخضراء الجيوسي وكتاب « النثر غير القصصي في اميركا » تاليف ماي برودبك وآخرين وترجمة مروان الجابري وكتاب « مغامرات العقل » من تحرير ريتشارد ترولسن وترجمة الدكتور محمد فياض .

● انتهى موسم النشر ، وبدأت اعدادات « سرية » لبرامج الموسم القادم ، دار الطليعة تحضر لاصدار « واقع الفكر اليمني » من تأليف سيمون دي بوفوار وترجمها جورج طرابيشي و « مدينة الانهر السبعة » لمطاع صفدي و (بالسازار) الحلقة الثانية من رباعية الاسكندرية للورنس داريل وترجمة سلمى الخضراء الجيوسي .. وفرانكلين بالاشتراك مع دور نشر اخرى ـ تعد لاصدار كتاب « س سكوت فيتزجرالد » من تأليف تشايس تشين وترجمة بكر عباس وكتاب « القصة الاميركية القصيرة » من تأليف دان فورث راس وترجمة سميرة عزام ، وكتاب الصناعة واثرها في المجتمعات والافراد » ترجمة برهان الدجاني ، و « الاسس الثقافية للحضارة الصناعية » تأليف جون نيف وترجمة الدكتور محمود زايد . اما دار مكتبة الحياة فقد اوقفت اتجاهاتها الموسم وسوف تصرف الشهور القادمة في دراسة مشروع جدي واسع لاحياء التراث القديم .

● كان آخر كتاب نزل الى السوق هو كتاب « قضايانا في الامم المتحدة » من تأليف الاستاذ خيري حماد ومنشورات المكتب التجاري وكان المكتب قد اصدر مؤخراً مجموعة قصص ياسر الهواري الثالثة « لن يكون وداع » .

● المكتب التجاري سيطبع في بداية الموسم القادم مجموعة قصص قصيرة للاديبة السورية السيدة كوليت خوري اسمها : « انا والمدى » .

● وصل في اول آب الى بيروت الدكتور توفيق صايغ وبدأ يعد العدة لاصدار المجلة الفكرية « الحوار » التي ستصدر في اول تشرين اول و ٦ مرات في السنة ، كما وصل الى بيروت جبرا ابراهيم جبرا لاعادة طبع ديوان شعره « تموز في المدينة » والاشراف على تجهيز ترجمة قصته « صيادون في ازقة ضيقة » التي يترجمها رياض الريس .

●

المراكز الثقافية

دمشق :

● قدم المركز معرضين للرسم الاول كان كان للفنان انطون فرح ، اما الثاني فقد عرضت فيه لوحات من الرسم الهندي .

اما بالنسبة للندوات الفكرية فان المركز في عطلة صغيرة الان . بمناسبة الصيف .

حمص :

● عرض مدير المراكز عبد المعين الملوحي بعض النماذج الشعرية وبعض الصور والمقالات من الصحف والمجلات .

حماة :

● قدمت ثريا الحافظ محاضرة بعنوان : « ثلاث نساء عربيات خالدات في التاريخ »

حلب :

● « الفروسية عند العرب » عنوان المحاضرة التي قدمها سعاد السمان .

● اما اسماعيل صدقي فقد القى حديثاً بعنوان « الاب ومشكلة المراهقة »

اللاذقية :

● قدم القاص عبد الله عبد حديثا حول القصة القصيرة واهميتها من الناحيتين الفنية والتوجيهية .

● اما الشاعر اللبناني يونس الامين فقد قدم أمسية شعرية في المركز بدعوة نادي الشبيبة .

اخبار مختلفة

● قدم نجاة قصاب حسن مدير الفنون في وزارة الثقافة والارشاد القومي محاضرة قيمة بعنوان « مسرحيات شاهدتها في اوربا » وقد لخص قصاب حسن المسرحيات التي شاهدها هناك ، وقد اعجب الجمهور بالمحاضرة اعجابا كبيرا .

● تحدثت فطمة الشلق عن المرأة العربية في الكفاح والمجتمع ، كما القى الاستاذ سعد صائب حديثاً بعنوان « خطرات نفس » اما عدنان الركابي فقد قدم حديثاً بعنوان « العمل الاجتماعي فن » وذلك بدعوة حلقة التكامل الاجتماعي وجمعية الادباء في حديقة المعهد الاهلي بدمشق .

● وفي درعا احيت الندوة النسائية امسية قصصية اشترك فيها السيدة قمر كيلاني والقاص جورج اسطفان والآنسة سلوى شحادة ، وقد حضر الندوة جمهور غفير .

كتب جديدة

● من منشورات وزارة الثقافة والارشاد القومي الكتب التاليه :

« **الرأي العام** تأليف الفريد سوفي وقد ترجمه الدكتور كامل عياد ، واشرف على مراجعته : الدكتور جميل صليبا

« **الصبي الاسود** » : تأليف ريتشارد رايت، وترجمه سهيل ايوب، ومراجعة الدكتور غسان المالح .

« **فنون وصناعات شعبية** » تأليف منير الكيال

«**الصواريخ والاقمار الصنيعة**: تأليف وجيه السمان

« **افريقيا الغربية في ظل الاسلام** » تأليف نعيم قداح ومراجعة : عمر الحكيم

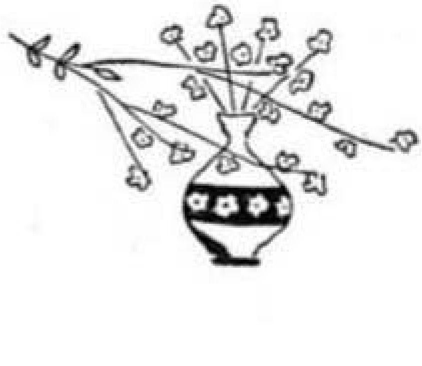
● صدر عن دار الرائد في حلب للشاعر توفيق اليازجي ديوانه الشعري الاول وهو بعنوان « نداء الام » ضم باقة من القصائد الوجدانية ، كما صدر عن نفس الدار ديوان شعري للاديب الاردني عيسى الناعوري وهو بعنوان « أخي الانسان » .

● انهى العالم اللغوي السوري قاسم احمد كتابه بالفرنسية وهو بعنوان « تجديد بناء اللغات الهندية والاوروبية باللغات السامية المتجددة » .

● ترجم نهاد خياطة كتاب « سندان الحضارة » لمؤلفه ليونارد قطرل .

المسرح

● لمناسبة مرور ستين على تأسيس مسرح العرائس . دعت وزارة الثقافة والاشاد القومي الى عرض خاص لكبار المسؤولين والكتاب والنقاد اقدم فيه مسرح العرائس في مسرح القباني رواية علاء الدين والفانوس السحري وقد كانت هذه الرواية في مستوى رفيع من حيث الاخراج والاضاءة دل على التقدم الكبير الذي حققه المسرح .



نوبار صباغ

ولد نوبار صباغ في حلب عام ١٩٢٠ ، وتابع دراسته الفنية الخاصة بالاشتراك مع بعض الاساتذه الفنانين في حلب . واشترك في جميع المعارض الرسمية التي اقامتها الوزارة . كما اقام معارض فردية خاصة في اوربا .

يمتاز اسلوب نوبار بالغنى اللوني ، وهو فنان انطباعي الى حد بعيد ، غير انه في لوحاته الأخيرة يعتمد على الوان خاصة تزيد من بهاء عمله وتجعله ذا طابع خاص بذاته ،

اللوحة

اسم اللوحة المنشورة في هذا العدد (الكازينو) وهي مأخوذة من شاطيء مدينة اللاذقية ، وفي مكان قريب من فندق الكازينو ، وقدبدت الحديقة القريبة من الفندق بوضوح .

رسمت هذه اللوحة بالألوان الترابية (غواش) على ورق خاص ابعادها ٥٥ × ٤٥ سم .



الكازينو في اللاذقية ـ نوبار صباغ



وليم فولكنر

« أنت تحاول أن تلخص في حيز ضئيل انطباعاً ما عن الحياة . ويمنحك القدر ستين عاماً من أجل هذا العمل . وباستثناء بعض الحالات ، لا يمتلك الانسان سوى شيء واحد : الوقت القليل »

وليم فولكنر

بالنسبة لفولكنر كان الوقت كافياً ليقرأه الناس ويسيئوا فهمه وينقموا عليه ثم ينسوه فترة طويلة . ففي عام ١٩٤٥ لم يكن أحد في الولايات المتحدة يهتم به كثيراً . وقد لاءم هذا الاهمال طبيعة فولكنر ، إذ أنه كان رجلاً خجولاً لا يبالي بالطريقة التي يتلقى الناس فيها انتاجه . ولكن قبل أن يمضي وقت طويل على ذلك التاريخ كان المراسلون الصحفيون يغزون مدينته في الجنوب . إذ أن تقريظ بعض النقاد الواعين في أمريكا أثار اهتمام الناس به في أوربا . وفي عام ١٩٥٠ تلقى فولكنر جائزة نوبل . وعندما مات فولكنر في تموز الماضي بسبب أزمة قلبية كان في عامه الرابع والستين . وقد رثاه المثقفون والأدباء وممثلو الهيئات الأكاديمية والجامعية . لقد مجدوا حياته وبكوا موته .

كانت له هيئة مقامر وعادات رجل أرستقراطي . وكان يكره الثرثرة الأدبية فيقول عن نفسه :

« لست أديباً بل مزارعاً متقاعداً » .

وكانت لهجة كلامه لهجة رجل قروي ، أما في حياته فكان يشرب كما يشرب رجل حطمه اليأس . وكان فوق كل اعتبار — كأجداده قبله — رجلاً من ولاية ميسيسبي . ومن تربتها الطينية السوداء الغنية خلق فولكنر أرضاً أكثر سواداً : خلق مقاطعة خيالية اسمها « يوكنا باتوفا » وتبلغ مساحتها (٢٤٠٠) ميل ويمتد عمرها قرنين من الزمان . وقد لطخت تربتها الدماء المراقة لأصحاب الأرض الذين تعاقبوا على ملكيتها وهم على التوالي : الهنود ، الاسبانيون ، الفرنسيون ،

وأخيراً جاء الأنكلوسكسون **« يجارون بالانجيل البروتستانتي والويسكي المغلية. يغيرون وجـه الأرض : يقطعون الأشجار التي احتاجت إلى مائتي عام كي تنمو ، من أجل أن يصطادوا دباً أن يستخرجوا ملء قبعة من عسل النحل البري .** » إن يوكنا باتوفا وعاصمتها جيفرسون لها مقابل شاحب في عالم الواقع وهو مقاطعة لافاييت وعاصمتها أوكسفورد حيث عاش فولكنر وكتب وحير مواطنيه بسلوكه العجيب ؛ لكن المقاطعة الحقيقية الواقعية القاسية هي المقاطعة التي أبدعها فولكنر من خيـاله ، كما أبدع هومر طروادته .

بدأ فولكنر يقدم ولاءه لأسرتـه منذ عام ١٩٢٩ حين كتب روايتـه الثالثـة « **سارتوريس** » وشكل الشخصية الرئيسية فيهـا على غرار جده الاكبر ومؤسس أسرته الكولونيل وليم فولكنر . لقد كان الكولونيل العجوز بطلا من ابطـال الحرب الاهلية ضد الشماليين وبانياً للسكك الحديدية وروائياً رديئاً يقلد في الكتابة والترسكوت ، بالاضـافة الى عنترياته كرامي بقر ومغامر من طراز فريد . لقد كان أكثر من بطل حالم : كان يجسد التراث الارستقراطي بأكمله .

وقد حدث لأسرة فولكنر كما يحدث في تاريخ كل اسرة : إن أخلاف الكولونيل المتتابعين أخذوا يفقدون هذه الصفات تدريجياً . وقد رأى روائينا فولكنر الرابـع ، في أبيه وجده جيلاً بدأ يفقد صفاته البطولية . وعرض هذا الانحطاط في رواياته عن طريق تصويره لأسرتي سارتوريس وكومبسون . فهم أرستقراطيون ، ضعاف البنية ، عصابيون ، فرطوا بالثروة والتقاليد . وفي مقابل هؤلاء ينهض آل سنوبس الجشعين الذين لاهم لهم إلا جمع الثروة ، ولا يبالون بأي تراث . ومؤسس هذه السلالة ورجلها النموذجي هو فليم سنوبس ابن لص الخيول .

يصل فليم سنوبس الى يوكناباتوفا خلال عام ١٨٩٠ ويظهر سوء معدنه في خداعه لوكيـل آلات الخياطة الذي عرف عنه انـه من أوفى الرجال في المنطقة . وما ان يستولي فليم على مزرعة « المنعطف الفرنسي » حتى ينتشر آل سنوبس في الارض كالجرذان . ويعكس نشوء هـذه العائلة وارتقاءها — في رأي فولكنر — انحطاط الجنوب بعد الحرب الاهلية الامريكية ، هـذا الانحطاط الذي يؤرخه في رواياته : « القرية » ١٩٤٠ و « المدينة » ١٩٥٧ و « البيت » ١٩٥٩ .

ان كل ما كتبه فولكنر منذ ١٩٢٩ يدخل بسهولة ضمن مخططه الواسع — باستثناء رواية « الخرافة » التي تعبر عن عاطفة دينية — ولما كان هذا المخطط رقعة ارض وليس بناء هندسيا فانه لايخل بتوازنه شيء. فقد اعطاه هذا المخطط الحرية لأن يكتب رواية عن حقبـة من الدهر « **ابسالوم ، ابسالوم** » وان يقدم أي مقدار

من المرح الصاخب « **الخيول المرقشة** » او يكتب رواية مجازية « **الدب** » لقد كانت التربة الطينية السوداء تكفي لحلمهم جميعاً.

ان فولكنر يتهم غالباً « **بالعنف** » ، وقد تساءل الناقد ميكي سبيلن ذات مرة : «**لماذا يشغل فولكنر نفسه بكل هذه المادة الكئيبة ؟** » . وفي الحقيقة يمكن أن يلام فولكنر لكونه يتعمد أن يكون أسلوبه غامضاً تتحرك فيه الحوادث ببطء وغموض وضعف كما لو أنها تحدث تحت الماء . ولهذا يشعر القارىء بأنه إذا لم يغادر هذا الجو الى السطح فسوف يختنق . وقد سألته ابنة عمه : « عندما تكتب هذه الأشياء ، هل تكون سكران ؟ »

وقد طرح هذا السؤال كثير من الناس حتى النقاد المعجبون به . وكان جواب فولكنر يحمل معنى الدفاع عن النفس حين همس :

— ليس دائماً

ومن المؤسف أن هذا الاسلوب قد انحط في كتبه الاخيرة إلى مجرد طريقة متصنعة وفقد دفقة الابداع الأولى التي كانت تحييه . فقد صار فولكنر يلجأ اليه لمجرد النزوة والكسل ، **لكنه في أفضل حالاته يبني غموضه بمهارة فنية فائقة** ، فهو يطمح في رواية « الدب » مثلاً إلى اشياء عديدة تتطلب التعقيد ، فهو يثير الحنين والالم بحدة تفوق مايمكن لأية طريقة مباشرة أن تثيرهما . كل ذلك دون أن يضيع الكاتب مايريد أن يقوله وما يكتب من أجله ، وهو أن عقلاً من جنوبي أمريكا أدرك في أول هذا القرن أن الرق لعنة الارض . ولم ينس في هذا التيه الغامض أن يضع بين الاحداث السريعة جداً حركات بطيئة بنفس الطريقة التي يمكن أن يتبعها مؤلف موسيقي حين يضع كونسرتو .

إن محير النقاد هذا بدأ حياته بتحيير والديه . كان فتى لامعاً دون شك لكنه كان أكسل من أن يتم دراسته الثانوية أو الجامعية وبدلاً من أن يدرس كان يتجول حول ساحة المحكمة في أوكسفورد لينصت إلى ثرثرة العجائز . وفي عام ١٩١٨ تطوع في القوى الجوية لكنه لم يخض أية معركة فعلية ، ورغم هذا فقد عاد الى بلدته مصاباً بكسر في ركبته واحتفل مع زميل له بيوم الهدنة فاستقلا طائرة وأخذا زجاجة ويسكي وحوما فوق المدينة ثم هبطا بالطائرة على سقف أحد المخازن !!

« لقد كنت أشرب الويسكي في نيوأورليانز أيام تحريم الخمر وهناك قابلت شروود أندرسون . » هكذا اعتاد فولكنر أن يشرح للسائلين قصة اهتمامه بالكتابة . وقد نشرت روايته الأولى « **راتب الجندي** » عام ١٩٢٦ لكن فولكنر قاسى شظف العيش واشتغل بمهن شتى ليقيم أوده إلى أن نشر بعد خمس سنوات كتابه السابع « **المعبد** » ، وللمرة الأولى أفصح فولكنر عن مرارته تجاه الجمهور حين كتب في مقدمة احدى طبعات « المعبد » أن هذه الرواية تعتمد على

« فكرة رخيصة » كتبت من أجل المال فقط . وقد أتاه المال وحصل على عمل في السينما فتزوج من استيل أولدهام وهي فتاة جنوبية مثله وعاش فولكنر الثلاثين عاماً الأخيرة مع زوجته في أراضيه بأوكسفورد مع « غزوات متقطعة لبستان هوليود ونهب ما فيه من المال »

لم يكن يتكلم كثيراً ، وغالباً ما كان يشرد . وكان يشاهد في أوكسفورد وهو يتجول واضعاً غليونه في فمه وسائراً بالقرب من أصدقائه دون أن يراهم ؛ فاذا نادوه حياهم بايماءة خاطفة . وقد قال مرة لأحد الصحافيين : « لو أني سأعيش ثانية لاخترت أن أكون المخلوق الذي لا يكرهه أحد ولا يحسده أحد ولا يريده أحد ولا يحتاج اليه أحد . لا يقع في ضيق ولا يحيق به خطر ويستطيع أن يأكل أي شيء . »

وقد تأثر جداً بالضجيج الذي أثير حول قبول الزنوج في مدارس البيض . وقد صرح قبل عامين من حوادث ليتل روك لأحد الصحافيين

« إنني أكره الدمج الاجباري بين البيض والسود بقدر ما أكره التفريق العنصري إذا كان اجبارياً . وطالما أن هناك طريقاً وسطاً فسوف أمشي فيه . ولكن عندما يأتي الوقت للقتال فسوف أقاتل من أجل المسيسبي ضد الولايات المتحدة ولو أدى بي الأمر أن أخرج إلى الشارع وأطلق الرصاص على الزنوج . »

لكنه كان بليغاً وشديد التفاؤل حين ألقى خطبته أمام لجنة جائزة نوبل :

« إن ماساتنا اليوم هي خوف فيزيائي عالمي استمر إلى حد لم نعد نقوى على احتماله . ولم تعد هناك مشاكل روحية وإنما فقط السؤال : متى أنفجر ؟ ولهذا السبب نسي الكتاب الشباب اليوم مشاكل القلب الانساني في غمرة الصراع الدائر في أعماقهم . ويجب ان يقنعوا أنفسهم من جديد بأن الخوف أحقر الاشياء . وعندما يتعلمون هذه الحقيقة فسوف ينسون الخوف الى الابد ولا يبقى في عملهم مكان لاي شيء سوى الحقائق القديمة لفضائل القلب الانساني . والى ان يبلغوا ذلك سوف تطاردهم لعنة : إنهم لا يكتبون عن الحب بل عن الشهوة ، عن الهزائم التي لا يخسر فيها أحد شيئاً يمت الى القيم بصلة ، وعن الانتصارات التي لا تفسح مجالاً للأمل ، والاسوأ من ذلك أنهم سيكتبون دون شفقة أورحمة ، ان أحزانهم لا تصل الى عظام الانسان ولا تترك ندوباً عليها . . انهم لا يكتبون عن القلب وانما عن الغدد .

« والى ان يتعلم الكاتب هذا مرة أخرى سوف يظل يكتب كما لو أنه يقف وحيداً يرقب نهاية الانسان . انني ارفض قبول الفكرة القائلة بفناء الانسان . فمن السهل ان يقال بشكل بساطة : ان الانسان خالد لانه سوف يتحمل المصاعب ويوم ينفخ في الصور ويسحب آخر شعاع للغروب النهائي فوق صخرة مهملة مفتتة فان صوتاً شاحباً نحيلاً سيظل هناك : صوت الانسان الابدي القوي يتكلم . . انني ارفض هذا ايضاً انا لا اعتقد بأن الانسان سوف يتحمل فقط بل اعتقد انه سوف ينتصر . »

فنون

موسم المسرح القومي

خرج المسرح القومي ـ مضطراً ـ عن التقاليد المرعية في جميع البلاد ، فبدأ موسمه المسرحي في مطلع شهر أيار ، أي في الوقت الذي تبدأ فيه المسارح عطلتها السنوية . وكان وجه الاضطرار في أن المسرح الذي يجب أن يعمل عليه ـ مسرح القباني ـ لم يسلم إليه إلا في أواخر نيسان، وكانت رواياته جاهزة ،وافراده يحرقون شوقاً الى العمل بعد إعداد طويل واحتجاب عن الجمهور سببه عدم وجود الصالة المناسبة ، والصحف تمطره بالتساؤل عن سر هذا الاحتجاب حتى خيل للناس أن الفنانين قدناموا..

مسرح القباني

ولمسرح القباني قصة يجب أن تسجل. فقد استملكت الوزارة هذا المسرح منذ سنتين ، وهو طابق تحت الارض ، وعهدت إلى شركة هندسية بوضع الدراسة لتحويله الى مسرح للعرائس ، فوضعت هذهالدراسة وبدأ التنفيذ، وكان مرتقباً ان يتم في مطلع الصيف الماضي . إلا أن العمل تأخر لعقبات فنية متعددة ولم يتم إلا في ربيع هذا العام . وكانت مديرية الفنون في الآن نفسه تبحث عن مكان مناسب يعمل عليه المسرح القومي ، فوجدت أن هذا المسرح على صغره (اذ مقاعده ٢٥٨ ومنصته ٦ × ٥ امتار) يصلح من حيث الموقع والشروط الفنية كالرؤية والصوت ليكون مسرحاً للتمثيل العادي بالاضافة الى تقديم مسرحيات العرائس فيه ، فوضعت خطة لاستثماره بشكل كثيف بحيث تعمل عليه فرقة مسرح العرائس صباحاً وفرقة المسرح القومي في المساء ، واتخذت الترتيبات اللازمة لحل الصعوبة الناشئة عن تتابع عمل المسرحين فيه كل يوم رغم الاختلاف في طبيعتهما . وحين فكرت الوزارة في الاسم الذي يطلق على هذا المسرح ، وجدت أن يكون اسمه مسرح « ابو خليل القباني »



تاء دبس
وفاطمة الزين
في
مسرحية
اللادي وندرمير

رائد النهضة المسرحية في سورية وأحد روادها في العالم العربي ، وحققت بذلك توصية كان تقدم بها المجلس الاعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية ...

مسرحيات الموسم

كانت المسرحيات التي قدمها المسرح القومي في موسمه ستاً ، وكان اختيارها ضمن خطة ترمي الى تقديم الوان من الأدب العالمي في مختلف البلدان (مسرحيتان انكليزيتان واثنتان فرنسيتان ، وواحدة روسية ، وواحدة زوجية) ومن مختلف الألوان (من الدراما إلى الكوميديا ومن مسرحية المناقشة إلى مسرحية الحبكة) وفي الصيغ المختلفة من الاخراج والديكور . وكان من أهداف المسرح القومي أن يزن قواه في اول مواسمه ، وان يسبر اتجاهات الجمهور ليتعرف على ذوقه ورغباته حتى يأتي اختيار الروايات في المواسم المقبلة على نحو يرضي الجمهور ويرتقي بثقافته المسرحية ...

اقبال الجمهور

وكان من القضايا التي تواجه المسرح القومي قضية شباك التذاكر ، فالحركة المسرحية لايمكن أن تقوم على المجانية والدعوات لأن الناس لايحترمون الدعوات المجانية ، كما اثبتت التجربة ولأن الحركة المسرحية مهما بلغت اعانة الدولة لها لايمكن ان تستغني عن اسهام الجمهور في نفقتها عن طريق شباك التذاكر . وكانت مغامرة أن يفتتح المسرح القومي موسمه لأول مرة ، وبعد طول ارتقاب ، في مسرح جديد لم يعرف احد بموقعه وعلى اساس بيع البطاقات وهو شيء لم يألفه الجمهور في بلدنا بعد . وقد نجحت التجربة وصار وسطي من يشترون البطاقات في مجموع حفلات المسرح القومي لشهرين صيفيين يصعب فيهما أن يحتشد الناس في القاعات المغلقة يبلغ اكثر من نصف المقاعد ، وجاوز ايراد المسرح ستة آلاف ليرة سورية في هذا الموسم الأول ، وهو شيء يبشر بالخير كله .



ثناء دبسي وموسى العكرماوي
في بيت الاشباح — لا[illegible]

آراء النقاد

وقد استقبل اكثر النقاد المسرح استقبالاً طيباً إذ رأوا فيه عناية كبرى في الأداء والاخراج، وسوية رفيعة في الفنة، وجواً انيقاً يحب الانسان ان يمضي فيه سهرة ممتعة. وقد صرح العديدون من رواد المسرح من كبار الشخصيات والمثقفين بأنهم كانوا ينتظرون أن تكون البداية في هذه السوية المتقنة، ووجه وزير الثقافة والارشاد القومي كلمة شكر الى المسرح القومي والقائمين عليه باسمه وباسم زملائه السادة الوزراء الذين حضروا مسرحياته جاء فيها :

السيد مدير الفنون

بعد ان شاهدت أمس مع السادة الوزراء وكبار الموظفين التمثيلية التي قدمتها الفرقة القومية بمناسبة افتتاح مسرح ابي خليل القباني، يطيب لي ان اوجه اليكم شخصياً والى السيد نهاد قلعي مدير الفرقة والاستاذ هاني صنوبر مخرج الفرقة والى اعضائها من ممثلين وممثلات اطيب الثناء على المجهود المثمر الذي ادى الى نجاح تمثيلية «الاشباح» نجاحاً مرموقاً.

وأحب أن أؤكد لكم ان اخواني السادة الوزراء الذين حضروا الافتتاح وشاهدوا التمثيلية قد عبروا لي عن اعجابهم بهذا العمل الفني الناضج وطلبوا إلي ان ابلغكم ثناءهم وتشجيعهم.

نهاد قلعي

في المفتش العام



لذلك أرجو ان تتقبلوا شخصياً ، وان تبلغوا مدير الفرقة ومخرجها واعضاءها ، فرداً فرداً ، ثنائي وشكري وأملي بأن يستمر عملكم على هذا المستوى من الاتقان والاخلاص الممتاز ، بل أن يطرد التقدم والتسامي في النهوض بالفرقة القومية وانتاجها: **وزير الثقافة والارشاد القومي**

الدكتور عبد السلام العجيلي



نجوى صدقي ـ ويعقوب ابو غزالة
ويأسر أبو الجبين ـ في مسرحية الفخ

وقد انهى المسرح القومي عمله في ٢٩ حزيران بعد ان قدم مسرحياته الست ، ليعود فيستأنفه في مطلع ايلول المقبل بصورة دائمة يومية .

المسرح الشعبي

يبدأ المسرح الشعبي التابع لوزارة الثقافة والارشاد القومي عمله في ١٩ تموز وفق البرنامج التالي: من ١٩ تموز حتى ٣ آب على مسرح المقاومة الشعبية في سوق ساروجة حيث يقدم تمثيلية بيت للايجار وهي من تأليف حكمت محسن واخراج محمد علي عبده .

وحتى ٤ آب يبدأ المسرح الشعبي جولة في سورية بدعوة من ادارة الشؤون العامة للجيش العربي السوري فيزور جميع البلاد السورية ويقدم رواياته للقطعات العسكرية والمدنية لمناسبة الاحتفالات بيوم الجيش العربي السوري .

ثم يعود في ايلول فيعمل في دمشق لمناسبة المعرض ويستمر عمله كل ليلة طيلة العام مع قيامه برحلات الى القرى على عربة المسرح المتنقل التي اعدت خصيصاً لهذه الغاية .

دبكة
مرج
السلطان



مسرح الفنون الشعبية



دبكة شديت الهجن



مسرح الفنون
الشعبية ..
في ساحة
القرية

مسرح الفنون الشعبية في سورية يحضر مهرجان عيد المرجان

في تونس

يستعد مسرح الفنون الشعبية في وزارة الثقافة والارشاد القومي لتلبية الدعوة التي وجهت اليه من حكومة الجمهورية التونسية الاشتراك في مهرجان عيد المرجان في تونس ، وهو مهرجان دولي للفنون الشعبية تلتقي فيه الفرق القادمة من بلدان عديدة اوروبية ، وعربية ، وتخصص فيه جائزة قدرها الف دينار تونسي للفرقة الفائزة .

ويتألف الوفد الذي سيسافر الى تونس من ٣٢ عضواً من مسرح الفنون الشعبية ومسرح الغناء والموسيقا بالاضافة الى ثلاثة اداريين ، وسيبدأ المهرجان في الثالث من آب ١٩٦٢ ويدوم اسبوعاً وقد ينتقل مسرح الفنون الشعبية السوري بعده إلى بلاد أخرى في المغرب العربي اذا اتيحت له الفرصة المناسبة .

اما البرنامج الذي سيشترك فيه المسرح فيتألف من قسمين تقليدي فيه الموشحات ورقصات السماح والمزاهر ، وريفي فيه لوحات ريفية ،مع الدبكة والمهاج بالاضافة الى الغناء والموسيقا العربية من فرقة الوزارة الموسيقية .

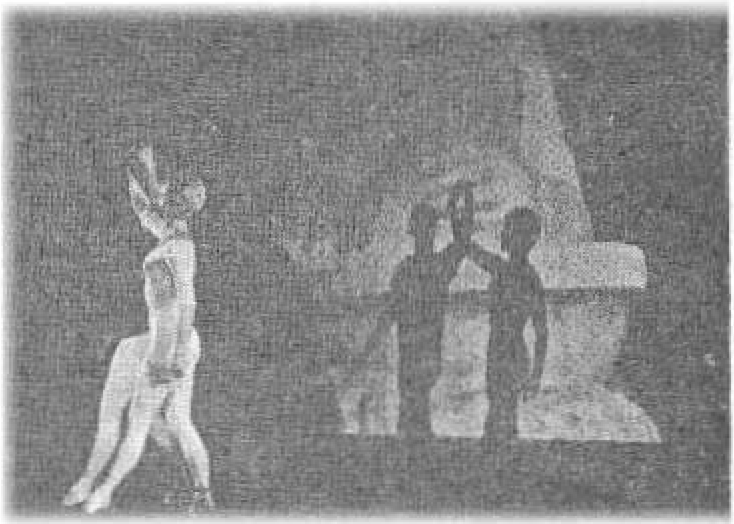
مسرح العرائس

بدأ مسرح عرائس دمشق عمله في صالة « مسرح القباني » ابتداء من يوم السبت ٢١ تموز بحفلة مسائية عامة ثم توالت حفلاته الصباحية للاطفال كل يوم الساعة العاشرة عدا يوم الثلاثاء حتى يحين موعد المعرض فينتقل للعمل في سرادق خاص اقيم له في مدينة المعرض . وسيقدم مسرح العرائس بادارة عبد اللطيف فتحي عدداً من المسرحيات بينها علاء الدين والفانوس السحري وساحر الغابات والطابة النطاطة وغيرها .

وسوف يستمر مسرح العرائس في العمل طيلة العام .

وبذلك تكون مسارح الوزارة الثلاثة (القومي والشعبي والعرائس) في حالة عمل يومي دائم يمسح عن وجه دمشق نهائياً وصمة الركود الفني .

اللاترنا
ماجيكا



كلما سارت البشرية خطوة في طريق الحضارة، انكسرت الاطواق التي كانت تحيط بالعلوم والفنون فتجعل كلا منها اسير قواعده الخاصة، واندكت الحدود بين الامم والشعوب نتيجة تقدم المواصلات وقيام التواصل الفكري عن طريق الكتاب والصحيفة والاذاعات والسينما والتلفزيون والمبادلات الثقافية. وقد بلغنا الى عصر يقابل تفكيك الذرة فيه وانطلاق قواها الهائلة، تفكيك القيود التقليدية التي كانت تحيط بالفنون وتمنع من تحرير قواها المبدعة الضخمة هي الاخرى.

وقد تعاطفت الفنون وترادفت، فصارت الموسيقا تعتمد لتجسيد الحانها على الصورة واللون (تجربة والت ديزني في فيلم فانتازيا) واللون يعتمد قواعد الهارمونية في تآلفه وتنافره (اتجاه الفنون التجريدية التي تعتمد بقع اللون المتآخية او المتنافية) والسينما تأخذ من المسرح والاوبرا (اتجاه السينما الاخير نحو الروايات المسرحية الشهيرة واعطاء شكسبير جائزة الاوسكار بوصفه احسن كاتب سيناريو في العالم...!) والمسرح يأخذ من التصوير التجريدي مناظره المسرحية الرمزية ومن السينما اساليب حركتها السريعة التي تكسر طوق قواعده التقليدية كوحدة الزمان والمكان والحادثة، (تجارب بوريان في ادخال العرض بالفانوس السحري، وتجارب سفوبودا وكاشليك في العرض السينمائي على المسرح) واخيرا جاءت اللاترنا ماجيكا التي ابتدعت في سنة ١٩٥٨ لمناسبة معرض بروكسل الدولي وفازت فيه بالجائزة الاولى، تؤكد على الصيغة الجديدة في تلاقي الفنون جميعا.

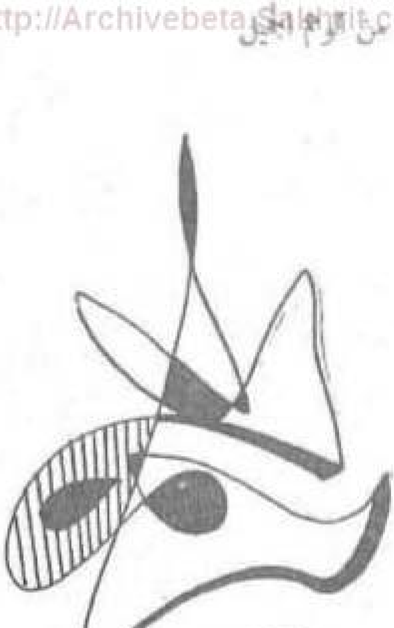
ان اللاترنا ماجيكا هي سينما مضافاً اليها مسرح مضافاً اليهما الباليه والموسيقا والفنون الشعبية في صيغة تجاوز الجمع الحسابي الصرف. فالسينما لاتدخل كاسلوب سريع فعال في تغيير المناظر

المسرحية وحسب ، ولا باعتبارها عنصراً مقوياً في الاثر المسرحي وفي شاعرية المسرح ، ولكن باعتبارها اصلا مقصوداً بذاته كالمسرح تماماً . ويدهش المتفرج حين يرى الممثل الحي الواقف على المسرح يدخل الى الشاشة فاذا هو صورة أو يرى صورة الراقصة على الشاشة تخرج فاذا هي صبية حسناء من لحم ودم ترقص على المسرح. لقد استطاعت اللاترنا ماجيكا باستخدامها السينما والحيل السينائية والمسرحية وعمليات الاضاءة والصوت المدهشة، والاساليب الآلية وبتأكيدها على الصفات الفنية العالمية لدى الفنان وعلى المجهود الكبير لاتقان الحركة ضمن توقيت عجيب الدقة ، استطاعت أن تعطينا شيئاً هو اعلى من كل هذه الفنون جيعها .

واذا كان من المعروف ان السينما تستطيع باساليبها المتقنة (كالسينما سكوب والسينراما والسيركوراما) ان تعطينا [illegible] لايعرف الابعاد ، فانها تظل مقصرة عن المسرح في انه ينقصها وجود الفنان الحي ، وجوده المؤنس في مواجهة الجمهور . اما اللاتيرنا ماجيكا فهي قد جمعت المزايا كلها على نحو متفوق .

ولا ريب في ان اللاتيرنا ماجيكا التي وصفها النقاد بأنها معجزة التقدم الفني في القرن العشرين، والتي استقبلتها العواصم الكبرى الملأى بالفنون المتقدمة استقبالاً ملؤه الحرارة والحماس ، سوف تعطي ابناء الشعب العربي مسرة فائقة حين تقدم برامجها على مسرح معرض دمشق الدولي من ٢٥ آب الى نهاية ٥ ايلول ، وتطلعهم على مستوى في الفن يفوق كل مارأوه من قبل. واننا نتهزها فرصة لنهنيء المديرية العامة لمعرض دمشق الدولي على المجهود الذي تبذله لتكون دمشق مهرجاناً دائماً للتقدم الحضاري .

« ن »



جولة الشهر



مع تيارات الفكر العالمي

تيار جديد من الفكر السياسي يجتاح اوروبة — يتحدثون عن الوحدة مصيراً لشعوبها ودولها — وعن تطور سياسي يحفظ لها قيادتها الحضارية التقليدية .

يقدمها فؤاد الشايب

في صحف الأدب والسياسة والاجتماع من انكليزية وفرنسية آثار واضحة لتيار فكري جديد في اوروبة ، يحمل دعوة الوحدة الاوروبية ، ويلقي على المفكرين قبل سواهم تبعاتهم في توضيح الدعوة ، وبواعثها وسبيلها مسيراً ومصيراً ، ولعل القراء يذكرون مروراً لنا ، عابراً بالموضوع ، ونحن ننقل رأي البروفسور الانكليزي (باركنسون) في دعوة إلى قيادة فكرية بريطانية (١) تتولى التوجيه والبحث في انشاء قوة اوروبية ثالثة ، تقف بين الاتحاد السوفياتي والاتحاد الأمريكي وتدعى الاتحاد الأوروبي . وقد ساقنا الاستطراد إلى معالجة

(١) العدد الثالث ، والعدد الرابع من المعرفة — جولة الشهر —

(الفن والحرية) في جولتي العددين الرابع والخامس فتحولنا عن موضوع السياسة الاوروبية الجديدة على ان نعود اليه . وها نحن معه كما وعدنا .

... بل ليست الدعوة سياسية ، كما يراها المفكرون ، الداعون إلى بعث اوروبة، او تجديد حياتها . ليست شيئاً من ظل القيصر الروسي ، او النابليون الفرنسي ، على القارة العتيقة، وليست دعوة إلى وحدة العالم المسيحي ، او الى شيء كحلف سياسي مقدس ... تدعمه علاقات حسنة بين ممالك وملوك، او وشائج مصاهرة ودبلوماسية تحوكها نساء جميلات ، وسياسيون دهاة . كما انها ليست في شيء من ضروب التجمع الأوروبي ، أو التوازن العسكري ، او التحالف على غرار التألب ضد النازية والفاشستية . انها على لسان المفكرين والفلاسفة ، والباحثين ، اكثر واقعية من جهة ، لأنها بعيدة عن الافلاطونية ، والمثاليات الانسانية ، والدعوات الجميلة الفاخرة ، واعمق جذوراً من جهة ثانية — لأنها اعمق غرضاً من محاولات سياسية ، تتعدد مظاهرها في هذه الأيام ، على شكل مداولات بين دوغول ، وأديناور وغيرهما .

وحدة اوروبة في التاريخ

يحاول الباحثون أن يجدوا في تاريخ اوروبة بعض الجذور المتصلة بوجود الوحدة السياسية الأوروبية ، وان يكن الرجوع إلى التاريخ ليس بالمادة البنائية التي تعتمد اليوم في تصميم البناء الأوروبي المنشود ، فان من ذكر بعض التاريخ مايدغدغ احلام الحالمين ، ويوجه أفكار المفكرين والمؤرخين الذين يستطيعون أن يجدوا دائماً بين الخرائب والاطلال ، مواد مطمورة ، تصلح للبناء ، إنهم يذكرون سيادة روما الوثنية على العالم الأوروبي القديم ، ثم سيادة روما بالمسيحية على نفس العالم ، ويذكرون بعد سقوط روما ، امبراطورية شارلمان التي قام فيها وجود سياسي لأوروبة الموحدة خلال قرون ، ثم يصعدون نحو منابع الحضارة الأوروبية ليشيروا إلى خصائصها الكامنة في ذلك المزيج الثقافي المتكون مع التاريخ من عنصرين أساسيين : العنصر اليوناني الروماني ، والعنصر الروماني المسيحي ، انهم يريدون الانتماء تماما إلى ولاءين : سقراط ، والمسيح . انهم يذكرون كيف سادت روما على شعوب اوروبة قبل المسيحية ، بالذكاء والتسامح ، والعالم الحضارات الاقليمية الصغيرة ، دون لجوء إلى العنف ، أو الابادة ، او التسلط ، كأن تتبنى روما آلهة أثينا ، وتدخلهم في معابدها على انهم آلهتها ، وكأن تجعل من رعايا الشعوب الخاضعة لسلطانها رعاياها نفسها ، لتمتزج وإياهم ، وتخرج بهم إلى خارج حدودها ، وترسخ قواعد منظماتها السياسية والاجتماعية . وعندما انتصر (الحزب السياسي) الجديد في ضمير الشعب الروماني ، وغدا المسيحيون اكثرية المواطنين ، دخلت روما في **الحزب الجديد** ، وتبنته ، ونزعت من يمين جوبيتر رب الأرباب سلاح الصاعقة . أما شارلمان ، الذي حكم اوروبة موحدة من بعد ، فلم يكن سوى وريث

تلك الحضارة الرومانية المسيحية ، وبها ساد ، إلى أن انتهى أجله ، فانتهت به آخر آثار الوحدة الاوروبية في التاريخ ، وتوزع الأمراء في القرن التاسع ، تركة شارلمان .

وعندما أطل القرن السادس عشر كانت الكنيسة قد تمزقت ، وتمزقت معها اوروبة ، كانت الحروب وحدها ، سياسة التحالف أو التنابذ ، وكان عظماء الملوك والقواد، يحاولون توسيع ملكهم بالسيف ، وتضخيم ممالكهم بمزق الدول المغلوبة . واضيفت الحروب الدينية الى الحروب السياسية ، والعسكرية ، واسفرت جميع الحروب عن تأليف (اوروبة الحديثة) ، القارة ذات العصبيات الوطنية العنيفة تتهالك على الحروب وتهلك بها شعوبها .

وتبرق مع القرن السادس عشر ، بوارق سياسية في ثنايا الدعوة إلى وحدة الشعوب الأوروبية. ولكن معظم هذه الدعوات يحمل الطابع الديني ، **الغيبي** ، فمن ياردوبوا ، إلى الأب سان بير ، إلى ليبنيز الفيلسوف الألماني ، إلى سييس الفيلسوف الفرنسي في عهد الثورة الفرنسية ، كان حلم الفلسفة ، والسياسة ، والقيادة ، أن يعاد توحيد أوروبة بالكنيسة ، وأن تؤلف اوروبة (امبراطورية المسيحيين) . أو كان المفكرون، يحلمون بالرجل الفرد العظيم الذي ينحني لجلاله الملوك والعظماء ، **على غرار ما توهمه ليبنيز من أن القيصر بطرس الأكبر، سيغدو أمل المستقبل الاوروبي .**

وسواء أكانت الدعوة باسم الدين ، اوباسم قائد قادر ، فلم تكن لتلقى مع قعقعة السنان ، اذنا صغواء : وعندما كان نابليون ، ينادي اوروبة قائلاً : كل الأسباب تدعو إلى ان تتخلى دول اوروبة عن خصوماتها ، وتتحد ، لأن اوروبة مقاطعة من العالم ، والحرب بين الاوروبيين حرب أهلية ، كان القواد البريطانيون الذين اقسموا إلاّ أن يهدروا دم القائد الفرنسي ، يقولون بأن حربهم هذه مع فرنسا حرب ابادة ، فاما موت أو حياة ـ اذ مهما تكن الدعوة الى الحق جميلة الطلعة ، فانها لاتنمو في ظل السيف .

ومهما يكن من شأن بعض المحاولات السياسية ، او الفكرية الغامضة لاحياء الكيان الأوروبي أو تأليفه على شكل ما بقيادة ملك عظيم ، او امبراطور مقدس ، فان تاريخ التفكك الأوروبي بعد شارلمان كان يتدرج من دول كبرى إلى اجزاء ، ودويلات ، لا تلبث ان تشكل كيانات وطنية صغيرة متجاورة ومتداخلة احياناً ، عنصراً ولغة وديناً . فاذا كبر كيان منها ، فبالحرب ، وعلى حساب كيان مجاور . واذا اغارت ثورة غازية على جزء من اوروبة ، لا تكترث له الأجزاء المجاورة ، بل انها لترقب الفرصة التي بين فيها ، لتنقض عليه وتلحقه بكيان امبراطوري قوي ، ثم يأتي دور التنازع الديني ، ويعقبه التنازع على التفوق اللغوي ، والعنصري ؛ وتتعمق بمجموعة متلاحقة من النزاعات ، حدود الوطنيات العازلة ، حتى ليظن أن الفروق الشاسعة بين عقليات البروسي ، والروسي ، والفرنسي ، والانكليزي ، والأسباني ، والسويدي ، فروق أزلية ابدية .

. . حتى اذا خرجت اوروبة إلى استعمار العالم الخارجي في اسية وأفريقية ، وظن بعض المفكرين أن قد يلهو المستعمرون عن خلافاتهم بغزواتهم ، وأن (عبء الرجل الأبيض) ـ كما يقول كبلنغ الانكليزي ، شاعر الاستعمار ، سيوحد صفوف البيض ، ضد الصفر ، والسمر ، والسود معاً ، تجلت في الواقع اسباب جديدة للتنازع العنيف بين الدول ماخرة البحار ، مكتشفة الشطئان ، قاهرة الغابات . ولم يكن من اليسير أن تجمع القراصنة راية واحدة ، لأن القرصنة في الأصل ، وقبل أن تعي رسالتها مؤخراً ، أمام يقظة الشعوب المستعبدة ، تجارة تعيش على الفوضى والمغامرة والاستهتار بكل قانون ونظام ومبدأ ، فاذا تداعى القراصنة بناة الأمبراطوريات الى وحدة الجبهة الاستعمارية ، فلم يكن ذلك الا في الحقب الأخيرة ، مع مطلع القرن العشرين ، عندما أخذ الرجل الملون يقر مراكب الغزو في مراسيها ، ويلوي الرايات في اكف حامليها .

اذن ... تضاف إلى محاولات التوحيد الأوروبي ، محاولات تجميع البيض في مواكب الاستعمار ، ثم محاولات تنظيم السيادة التي ظفر بها المستعمرون ، خوفاً من أن يفقدوها .

لأنهم وان غنموا المكاسب متفرقين ، فلا بد أن يحتفظوا بها متجمعين . على أن تاريخ القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، لم يؤيد تفاؤل المثاليات الاستعمارية في وحدة التحكم الأوروبي اذ قد شهد هذا التاريخ حروباً طاحنة بين دولتين او اكثر من دول اوروبة ، وكانت الحربان العالميتان الأخيرتان ، ابرز مظاهر الفشل ، مما ساعد وعي الشعوب الضعيفة المغلوبة على امرها في القارتين ، على التفتح والشعور العميق بأن الصراع الرهيب ، من اجل الفريسة ، لامناص من أن ينتهي بخلاص الفريسة من ظفر الفارس .

وصحيح أن تواطؤات استعمارية بين الفرقاء المتضامنين قد تمت في ظروف مصالحة ومهادنة بينهم ، ولكنها في مبناها ومرماها لم تكن لتضيف اي لبنة في البناء الموهوم لوحدة اوروبية ينشدها المثاليون الجيالون ، أو القادة والزعماء اليابسون .

أوروبة في حاضرها

مع هذه التحليقة السريعة فوق القارة العتيقة ، نرى اشتات دول ، حفرت الثورات والحروب بينها اخاديد حدود عميقة ، تحولت في حقب متعاقبة من التاريخ ، إلى حصون وقلاع ، وميادين حروب ضارية . وقد كان بالامكان تجاوز أو تناسي هذه الفرقة ، ما دامت المستعمرات تغذي رحى الحرب ، وتفيء بالنعم على جميع دول الاستعمار ، ولكن عندما بدأت تخسر هذه الدول مستعمراتها ، واصبحت الثورات بله الحروب ، تستنزف الطائل من الثروة المجمعة ، والسائلة معاً ، كما حدث لفرنسا في حرب الجزائر ، او لبريطانيا في الاحتفاظ بالهند ، أحست دول الاستعمار

بالقطيعة الرهيبة تغطي حضارتها بالصقيع ، وتسد عليها المنافذ نحو البحار الوسيعة حتى الاختناق ، اذ من الواضح البين ان من فقد مستعمرة لن يعود اليها ، ومن لايزال يمسك بقايا مستعمرة ، سيجلو عنها قريباً . ولابد من الاشارة هنا إلى أن الثورة الجزائرية كانت الحدث الانساني الأكبر في منعطف النصف الثاني من القرن العشرين، الذي حول تيارات المستعمرين وقلب رأساً على عقب موازين السياسة والحكم في العالم أجمع .

هذا من جهة.ومن جهة ثانية ، فان ماأصاب اوروبة من الغرور خلال القرن التاسع عشر ، مع ازدهار عصر الصناعة ، وامتداد شرايين المواصلات بين اجزائها نفسها، وبينها وبين اطراف العالم (١) ، عزل حاضرها عن مستقبلها، وزين لها وجوه الحياة ، مااظهر منها واستتر ، فراغت في مغامرات الصناعة والتجارة والربح ، وجابت فجاج الأرض على اجنحة الآلات السريعة ، والانتاج الغزير ، تضرب معولا فتفجر نهراً ، وترمي حبة لتحصد قناطير من الحبوب ، وخيل اليها ان من يمسك بيده **الآلة ورأس المال ،** فكانه جوبيتر ، وبيده الصاعقة. ومن هنا افراط التفاؤل لدى فلاسفة القرن التاسع عشر (٢).ومن هنا القول الأوروبي الشائع ان سيادة الغرب الأوروبي لن تغيب شمسها عن الارض . ولقد كان المدى الاستعماري مفتوحاً للجميع ، لكل من استعد للقهر والغلبة ،بحيث لا يشعر المتنافسون بأي حاجة لأن يتنازل احدهم الآخر عن قليل من مغانمه . ولعل نشوء هتلر ، لم يكن سوى تمثيل صحيح لضراوة الحرمان. كما ان نشوء البروليتاريا لم يكن سوى تجسيد للنمط الجماهيري العام الذي انتقل من المثقفين إلى العامة بدءاً من اواسط القرن التاسع عشر ، **قائلا ومردداً : اذا كان ثمانون بالمئة من ثروة الأمبراطورية البريطانية يصب بين ايدي خمسة بالمئة من سكان بريطانيا، فمن أجل من تقرع الطبول ، وتزهق الأرواح !**

وليس الغرور الأوروبي الذي ركب رؤوس المغامرين ، من صلب الموضوع ، لنتبسط فيه ،انما نقول استطراداً ان نظرية التفوق الجرماني العرقي، ومبدأ (عب الرجل الابيض) الانكليزي ، ودعوى فرنسا بانها ناشرة الحضارة ، وحاملة لواء الحرية والمساواة والاخاء — على مانادت به الثورة الفرنسية التي اكلتها حروب نابليون —

(١) نظر (رينان) نظرة حذرة إلى المستقبل عندما استقبل دولسبس ، في المجمع العلمي الفرنسي موجها اليه هذه الكلمات : لقد حددت ، مع قنال السويس ، أيها السيد ، المكان الذي ستقع فيه معارك الغد الكبرى.

(٢) راجع في العددين الثالث والخامس من (المعرفة) مع شبنغلر وتوينبي في سلسلة بحوث (كيف نفهم التاريخ)

كل هـذه ليست سوى بعض مظـاهر الغرور الأوروبي في ميـدان التنافس الاستعماري ، والتوسع العسكري ، على حساب المغـلوبين شرقاً وغرباً .

آنئذ ، بلغت اوروبة ذروة الثروة ، وبلغت بها غاية التفكك . وان لم يكن يبدو في الافق واضحاً ، مآل الدول الأوروبية ، مـع القرن التاسع عشر ؛ فقد غدا جليا بعد الحرب العالمية الأولى ، مع ظهور كتاب انحطاط الغرب لشبنغلر كشارة فكرية في الفوضى السياسية ، مع النتائج التي اسفرت عنها الحرب ، بتوزيع اسلاب المغلوبين بين الغالبين ، مع أختلاطات السلام المفروض بالقوة ، مع خيانة الحلفاء للعرب ، ومـع احداث جمة لانستقصي في تحليقة على التاريخ من عل ـ نقول غدا جليـاً أن مصير الدول الاوروبية لاتقرره هذه الدول نفسها . بل ثمة قوى جديدة بـدأت تضع أوزانها في الكفة المقابلة ، ولعل اهم هذه القوى :

١ ـ تفجر الوعي الجماهيري على نطاق عالمي .

٢ ـ نهوض الشرق من سباته العميق .

٣ ـ ظهور الاتحاد السوفيتي .

٤ ـ نزول الولايات المتحدة الى المعترك العالمي .

٥ ـ تحـرر المستعمرات واستقلالهـا عـن الامبراطوريات العتيقـة .

٦ ـ تخلف أوروبة في السباق الذري ، وخروج القيادة السياسية من يدها .

ومما لاشك فيه ان هذه القوى وعواملها في تطوير المفاهيم القومية ، والانسانية على الصعيد السياسي والفكري ، من وراء التيار الاوروبي الجديد ، الذي يحمل دعوة الوحدة الاوروبية ، ومعلوم أن السوق الاوروبية المشتركة ، هي البادرة الاولى من بوادر الحاجة الى التجمع ، كرد فعل ازاء العوامل التي ذكرناها ، منفردة او مجتمعة . كما ان التيار الفكري الذي يحمل الدعوة الاوروبية ، سيزداد وضوحا في الاعوام القليلة القادمة .

الدعوة في واقعها ومثاليتها

سيعبر الجانب الفكري من الدعوة الاوروبية ، على وحدة المنبع الحضاري الذي منحت منه اوروبة ثقافتها ، ولغاتها وطراز تفكير سكانها على تنوع قومياتهم واعراقهم ومنازعهم ، باعتبار أن في اعماق الضمير الاوروبي ، ووراء كل النزعات ، والمصالح المتباينة ، تقاليد فكرية وروحية ، تعمل بصمت ، وتحفر في الصميم شكل العقلية الاوروبية التي صنعت التمدن ، والعمران ، وجمت الثروة ، وفجرت الفكر ، وحملت بذور الحضارة الغربية الى أطراف المعمورة . وكانت هذه العقلية الواضحة في اتجاهات فلسفية مماثلة ، وانظمة حكم متشابهة ، سائدة في المجموعة الاوروبية فوق الحـدود والدول ، والجيوش والأحقاد ، عقلية تقول ان الانسان الاوروبي هو **حقيقة فكرية** تختلف عن حقيقة

الانسان السوفييتي ، او الانسان الامريكي سيقصد الجانب الفكري من الدعوة ، الى اعادة دراسة التاريخ وكتابته ، لاستخراج المواد المطمورة تحت الانقاض ، عسى ان يصلح بعضها لبناءفكرة الوحدة ، او على الاقل لتزيينها والتشويق اليها . سيبحث كثيراً في أمجاد القاعات الرومانية المسيحية المشتركة في تطور الفكر الاوروبي. سيعود الى شعارات الثورة الفرنسية في الحرية والتسامح والصفاء بين الدول _ طالما أن تحرر المستعمرات قد قطع على المستعمرين سبل الغزو والنزاع _ وطالما ان التسامح يمكن ان يكون بيد الاوروبي الضعيف ، سلاحا مثالياً يشهره بوجه الروسي او الامريكي القوي .وستكثرالدعوات الى البراءة، والنزاهة ، والانسانية المتجردة .

سينبذ الفكر الاوروبي تفاؤلية شبنغلر الالماني في أن الحضارة الغربية صائرة الى زوالها المحتوم ، وان حضارات اخرى ستقوم مقامها في قيادة العالم الجديد . وسيلقى توينبي الانكليزي، رواجا يضاف الى رواج لانه وان اشار الى انحطاط الغرب ،فقد أشار أيضاً الى الخلاص اذاشاء الغرب الاوروبي خلاصاً حقاً . وسيرى الغرب نفسه أمام ماوصفه توينبي بالتحدي مسوقاًالى ان يستجيب له، ويخوض المعركة ،مدافعاًعن كيانه ، وعن بقائه. وسيكون التحدي الجديد الذي يواجهه الغرب الاوروبي،حافزاً **لتكوين وحدة المتحدى**،

لان الخطر الخارجي، عندتوينبي عامل من عوامل التجمع القومي او المصلحي ، يضاف الى أهم عناصر التكوين الجماعي ، كاللغة ، والتاريخ ، والعرق ، والدين

سينحو الفكر الاوروبي الغربي منحى انسانية واضحة المعالم ، داعياً الى التوسط بين معسكرات الحروب ، ونبذ سيادةالقوة .وستلقى الدعوات الفكرية تجاوباًمن الجانب السياسي ،الذي غدا عاجزاً عجزاً واضحاً عن القيام بغزو أو تبريره بلغة الافك السياسي والدبلوماسي _ **وقد لقيت الثورة الجزائرية لدى الشعور العام الفرنسي تأييداً واضحاًمع منعطف النصف الثاني من القرن العشرين ، ولو ان الثورة قامت في الربع الأول من هذا القرن او بعده بقليل ، لما وجدت أمثال (سارتر) و (فانون) يسيرون في موكب تمجيدها وتعضيدها ولكان الجنرال دوغول ، أقرب صورة الى الجنرال غورو .**

سيرد الجانب الفكري ، على الجانب السياسي ، بتوضيح معنى الوحدة . سيقول الجانب الفكري أن الوحدة الاوروبية لن تتعارض مع قيام الكيانات الوطنية العريقة ، التي تهيأت لها مع الأزمنة والعصور ، خصائص وشمائل وعبقريات لايمكن تذويبها في بدعة جديدة تسمى (القومية الأوروبية) . سيقول الفكر أن الوحدة المنشودة ليست تذويباً لهذه الخصائص ، بل تجميعاً لها وحشداً ، وبالتالي صيانة لها من الذوبان والانهيار في فوضى الأوضاع الأوروبية الراهنة . فاذا كان الأوروبيون يعون محافظة حضارتهم ، ويحسون

بضرورة حفظها وبقائها. فانهم مدعوون إلى صب خصائصهم في ساحة العمل المشترك ، وإبعاد ما ليس هو من خصائص هذه الحضارة ومجدها . انها ليست دعوة إلى الغاء الجزء بالكل بل إحياء الكل بالجزء . انها دعوة الى المشاركة الديموقراطية الحرة التي تعمل فيها الوحدة الصغرى لذاتها ولذات الوحدة معاً .

سيكافح الجانب الفكري ، ما بدا للعيان او ما قد يبدو على الاوروبي من مركب النقص ، ازاء عجزه عن الامساك بمستعمراته ، وازاء تأخره مقارنا بالانسان الأمريكي او الانسان السوفييتي سيفلسف عجزه عن الاستمرار في سياسة الاستعمار ولن تكون هذه الفلسفة على كل حال ، ولو اتت متأخرة ، غير مجدية فكريا وانسانياً — سيقول مثلاً انه من العار أن تربط اوروبة العظيمة مصايرها بامتداد بترول في صحراء عربية او بقطعه . فلنتحرر من حاجتنا الى هذا الانبوب

أكلما قامت هزة في الشرق ، باتت الوف العائلات الاوروبية ، في قلق على لقمة الغذاء ! سيطالبون بحريتهم

سيقول عن الامريكيين ان بلادهم اندلس الحضارة الاوروبية ماوراء البحار الكبيرة ، وأنهم نسخة مظهرة تظهيراً جديداً ، عن اوروبة العتيقة الخالدة ! وسيقول للسوفييت ، ان ماركس غرسة اوروبية ، شوهها الجانب الأسيوي من روسيا الاوروبية : وسيقيم الغرب الأوروبي علاقات دبلوماسية حسنة بين ماركس الاوروبي ، وماركس الأسيوي ، اليس هذا كل مايفعله اليوم (سارتر) العجيب بين ماركسيته ووجوديته ؟ !

* * *

المحاولة الكبرى

وأخيراً ، فان المحاولة الاوروبية حدث كبير من احداث التطوير الانساني ، ولا اقول التطور . وان الفلسفة التي تعمل في الأعماق لتجميع دول متباينة حفرت الحروب والنزاعات ، عبر مئات السنين خلافاتها الضارية ، لفلسفة عظيمة حقا . فاذا كانت استجابة اوروبة للتحدي الخارجي ، وللتحدي الداخلي معا — انهما تحديان فعلاً — على هذا الطراز ، فان توينبي سيكون رجل الساعة لمئة العام القادمة : لأنه القائل بان الحضارات لاتخضع لناموس ، النشوء ، والاكتمال ، والزوال ، مثلما تخضع لقانون التحدي . فان هي استجابت لهنجت بنفسها ، اذا لم يكن التحدي ثقيلاً ساحقا ، وان هي انهزمت امامه ، سحقها مصيرها المشؤوم ،

ان توينبي في تفسير التاريخ البشري يترك المجال واسعاً للارادة الانسانية ضد اقدارها !

ان الجانب الفكري من اوروبة ، يبشر بأن مجموعة هذه الدول ، اذا ارادت ان تعيش فلابد لها من نظام اتحادي كامل ، انهم يطمحون ان يكونوا يوما (الولايات المتحدة الاوروبية).

ولايات متحدة ، يجمعها قانون التماس بين الدوائر ، لاقانون التوزيع من المركز . ولايات ديموقراطية ، لامركز فيها لأن قوة التماسك فيها ، قوة تماسك هندسي لاقوة الارتفاع على عمود واحد او مركز محدد ، وطبيعي أن التصميم الفكري للوحدة الاوروبية ، المكتملة الكيانات عبر تكون تاريخي طويل ، لايمكن أن يحصر في نظام يذيب هذه الكيانات ويصهرها بل سيقوم وراء هذا الشكل الهندسي لسياسة الوحدة ، عماد واحد اساسي **هو الوعي البشري الحاصل من صراعه مع الخطر** الذي انطبق على اوروبة ، فسيمحقها مجتمعة ككل ، ومنفردة كمجموعة كيانات . وعلى هذا فسيعمد الفكر إلى تمييز الشخصية الأوروبية الحضارية ، كما قلنا ، تحقيقاً لغرض هذا الوعي : تجربة جارة !

وقد يقال انها امنية بعيدة المنال ، لاتطال مهما زينها الفكر وزين لها . تبقى في حصيلتها ، مجهودا بشرياً رائعاً وتصميماً هندسياً ابداعيا ، تبقى دفقة من خيال الانسان في محاولته التغلب على واقعه المظلم . تبقى في اقل اوصافها ، موقفاً فكرياً ، وطموحاً مشروعاً ، وصورة قوية لتشبث عضلي عنيف بموقف النجاة ، فوق الهوة الفاغرة .

وما ادرانا ! قد تصبح اوروبة المتحدة ثانية ، سلطاناً سياسياً قادرا . وقد يداخلها الغرور ثانية ، وتركبها شهوة الفتح والتسلط ؟ ان الذئب ، ذئب ، بقدر ماتكون النعجة امامه سمينة وضعيفة .

ان مايجري في العالم امامنا من تجارب كبرى ... ليس للفرجة ، فقط .